لجنة الجامعيين لنشر العلم

أدب الحروب الصليبية

دكتور عبد اللطيف حمزة
أستاذ الأدب المصرى المساعد
بكلية الآداب . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى ١٩٤٩

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

لجنة الجامعيين لنشر العلم

أدب الحروب الصليبية

دكتور عبد اللطيف حمزة
أستاذ الأدب المصري المساعد
بكلية الآداب . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى — ١٩٤٨

الناشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة البحث

١

ما الحروب الصليبية ؟ ومتى تسمى بهذا الاسم ؟

من المؤرخين الأوربيين من يعود بتاريخ الحروب الصليبية إلى أول صدام حربى بين المسلمين والمسيحيين ، « فينظر إلى هرقل » أمبراطور الروم ، على أنه أول [..]رب صليبى ، وإلى موقعة « اليرموك » ، على أنها أول موقعة صليبية انتصر فيها عمر [..] الخطاب على هرقل عام ٦٣٦ م ؛ أعنى قبـــل قيام الحروب الصليبية المعروفة بمدة [..]قل عن خمسة قرون .

غير أن الحروب الصليبيـة — أو قصة الصراع الدينى العنيف بين المسلمين والمسيحيين — اسم أطلقه الأوربيون على الوقائع التى نشبت بين هؤلاء وهؤلاء فى فترات طويلة متقطعة ، لاشك أن أشهرها تلك التى كان المركز الرئيسى لها « فلسطين » ، التى يقع معظمها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد .

فكثيرا ما حاول البابوات أن يحرضوا المسيحيين على طرد المسلمين من شبه [..]يرة أيبريا ، وأقحموهم فى حروب كثيرة لهذه الغاية ؛ ومع هذا لم يصف التاريخ هذه الحروب بأنها صليبية ؛ لأنها لم تتجه صوب الأماكن المقدسة .

وكثيراً ما فكر الأباطرة البيزنطيون منذ عهد « نقفور » فى الاتجاه إلى الأماكن المقدسة ، وتخليصها من أيدى المسلمين ، وخاضوا حروبا طاحنة من أجل هذه الغاية ؛ ومع هذا لم يصف التاريخ هذه الحروب بأنها صليبية ، لأن أصحابها لم يحملوا الصليب .

ومعنى ذلك إذن أنه يشترط لتسمية الحروب الدينيـــة حروبا صليبية شرطان مجتمعان ؛ هما الاتجاه إلى الأماكن المقدسة ، وحمل شارة الصليب ، التى تدل على أن صاحبها فى حروب دينية لا دنيوية .

أما فى القرن الثالث عشر الميلادى — أعنى بعد انتهاء تلك الفترة التى أشرنا إليها — فيرى المؤرخون أن الحروب الصليبية بالمعنى العام ، نشبت فى كل مكان إلا فى فلسطين ؛ إذ انتقل منها مركز الجاذبية الصليبية إلى القسطنطينية . فمن حقنا إذن أن نهمل تلك الحروب الأخيرة التى لا يصح أن توصف بأنها صليبية ، لا لشىء إلا لأنها فقدت شرطا هاما من الشرطين اللازمين لهذه التسمية ، وهو الاتجاه إلى الأماكن المقدسة .

وعلى هذا ، نحن مضطرون إلى أن نقصر حديثنا هنا على الفترة التى كانت فيها فلسطين مركز الجاذبية الحقيقية للحروب الصليبية ، والتى كان فيها المسيحيون الأوربيون يحملون شارة الصليب . وهذه الفترة التى نعنيها إنما بدأت بالخمس الأخير من القرن الخامس الهجرى ؛ أعنى حول ٤٨٩ هـ ، واستغرقت القرن السادس كله ، ثم وصلت من القرن السابع إلى عام ٦٦٦ هجرية .

٢

ولكى نفهم قصة الحروب الصليبية ، ونمضى فى دراستها على الوجه الذى نريد ، نجد أنه لا غنى لنا عن كتابة هذا التمهيد ، الذى نلقى به ضوءا على العالمين الإسلامى والمسيحى ، فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، أو الحادى عشر والثانى عشر للميلاد .

وعسى أن يفيد هذا الضوء أيضا فى بيان الأسباب التى من أجلها قامت هذه الحرب الضروس فى فلسطين — تلك البقعة من أرض الله التى كتب عليها أن تكون مكانا تقتتل فيه ديانتان ، هما المسيحية والإسلام ، وتلتقى فيه حضارتان ، هما الحضارة الغربية ، والحضارة الشرقية . وليس يعلم إلا الله متى تظل هذه البقعة من الأرض مثارا للمنازعات الدينية العنيفة بين البشر ، وسببا فى تعكير الصفاء بينهم !

أما المسلمون فكانوا فى أثناء تلك الفترة التى نشير إليها ، مذهبين عظيمين ، هما أهل السنة والشيعة . وأما المسيحيون فكانوا فى أثنائها كنيستين عظيمتين ، هما الكنيسة الشرقية البيزنطية ، والكنيسة الرومانية الغربية . ولا حاجة بنا إلى القول بأن العداء كان على أشده بين كل مذهبين من تلك المذاهب الدينية السابقة ؛ فالعداوة بين السنيين والشيعة من المسلمين ، كانت عداوة مخضبة بالدم الذى لم يكد يجف إلا فى العصور الحديثة ، وكذلك الشأن بين الكنيستين الشرقية والغربية .

أما العاطفة الدينية العليا ، وهى عاطفة المسلمين جملة ضد المسيحيين جملة — أو بالعكس — فهى التى من أجلها قامت هذه الحروب ؛ وكان قيامها إذ ذاك فى منطقة متوسطة بين بلاد المسيحية وبلاد الإسلام ؛ ونعنى «منطقة بحر الروم» ، وهو البحر الأبيض المتوسط ، ففى شرقى ذلك البحر قام الإسلام ، وإلى جواره إحدى الكنيستين المسيحيتين ، وهى الكنيسة البيزنطية . وفى غربى ذلك البحر — بحر الروم — قامت الكنيسة الرومانية التى تولت بنفسها إثارة الحروب الصليبية ، وأشعلت جذوتها .

٣

ولا نريد أن تخلو هذه المقدمة أولا من بيان لموقف الأمبراطورية البيزنطية من الدول الإسلامية ، ثم من الدول المسيحية الأوربية ، وذلك فى أثناء الحروب الصليبية.

فأما موقف البيزنطيين من المسلمين فظاهر منذ أيام عمر بن الخطاب، ومنذ استطاع العرب بعد ذلك الاستيلاء على ممتلكاتهم فى مصر والشام وفلسطين ، ثم لم يكتفوا بعد بذلك حتى حاولوا فتح القسطنطينية نفسها أكثر من مرة ، وكل ذلك فى أيام الخلافة الأموية . فلما كانت الدولة العباسية كثرت غارات البيزنطيين على أراضى المسلمين ، وساعد على ذلك نقل العاصمة الإسلامية إلى بغداد ، ومع ذلك كان للعباسيين اسم عظيم يلقى الرعب فى نفوس البيزنطيين ، الذين أرغمهم الخلفاء العباسيون على دفع الجزية ؛ ولا تذكر الدولة العباسية والدولة البيزنطية إلا ذكر معهما انتصار الخليفة المعتصم على الروم انتصارا حاسما فى عمورية ، وهو الانتصار الذى سجله أقوى تسجيل وأبرعه ، شاعر العباسيين غير مدافع — أبو تمام — وذلك فى قصيدته الخالدة التى أولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وفى العصر العباسى الثانى ، وهو عصر الدول المستقلة — ومن أهمها بالنسبة للصليبيين دولة الحمدانيين — طال النزاع بين المسلمين والبيزنطيين ، وكان النصر سجالا بينهما . ذلك أنه كان لهؤلاء البيزنطيين آمال صليبية لم تخف على أذهان المسلمين ، وكانت تهدف دائما إلى الظفر بالأماكن المقدسة فى فلسطين. ومن أجلها خاضوا حروبا كثيرة ضد الإسلام ، استطاعوا بها فتح كثير من حصونه ، والاستيلاء على كثير من بلاده .

فهذا « نقفور » يطرد العرب من جزيرة كريت[١]، ويستولى على بعض بلاد الشام فى أثناء ذلك الصراع الهائل الذى كان بينه وبين الحمدانيين ، والذى أسر فيه أبو فراس الحمدانى الشاعر ابن عم سيف الدولة .

ثم هذا هو « الدمستق » Zimiskis الذى أتى بعد نقفور ، وكان يرمى إلى فتح بيت المقدس ، فاستولى من أجل ذلك على بعض حصون الشام ، ودفعت له حمص الجزية .

وكما قلنا لا يهمنا من الوجهة الأدبية الخالصة من مراحل هذا الصراع السابقة غير المرحلة التى اشترك فيها سيف الدولة الحمدانى ، ذلك الأمير العربى الذى صمد للروم ، وأصلاهم نارا حامية من سيفه ، وأجبرهم أحيانا على الفرار من وجهه . فلقد بقى هذا عشرين عاما وهو شجا فى حلق الدولة الرومانية الشرقية ، لم تخمد نار الحرب بينهما سنة واحدة ، وكانت له فى الروم نكايات ، وانتصر عليهم مرات ، وأوغل سنة ٣٣٩ ﻫ فى بلادهم ، حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية[٢] .

وكان فى بلاد سيف الدولة شاعر العربية فى عصره أبو الطيب المتنبى ، يمدحه إذا انتصر على الروم ، ويعتذر عنه إذا انهزم أمامهم ، فما قاله المتنبى فى الاعتذار عن سيف الدولة قصيدته التى أولها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جَبُنُوا أو حدثوا شجُعوا

ومنها قوله :

وهل يشينك وقت كنت فارسه ... وكان غيرك فيه العاجز الضرع

من كان فوق محل الشمس موضعه ... فليس يرفعه شىء ولا يضع

الدهر معتذر والسيف منتظر ... وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

وانتصر هذا البطل العربى مرات على الروم ، فمدحه الشاعر بعدة قصائد ، منها قصيدته التى أولها :

ليالى بعد الظاعنين شكول ... طوال وليل العاشقين طويل

وقصيدته التى أولها :

---

(١) بعد أن احتلها المسلمون من ٢١٠ ﻫ — ٣٥٠ﻫ .

(٢) أبو الطيب المتنبي لعبد الوهاب عزام ص ٩٩ .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقصيدته التى منها :

أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون القفول

وسوى الروم خلف ظهرك روم   فعلى أىّ جانبيك تميل ؟

وتوفى سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ بحلب ، ونقل إلى ميافارقين ، وكان قد جمع ماترا كم عليه من غبار الحرب ، فصنع منه لبنة أوصى أن توضع تحت رأسه فى قبره ! وطويت بموته صفحة رائعة من صفحات الجهاد المرير ضد آل الصليب .

ولا ننسى مع ذلك أن نشير إلى خطب ابن نباته ، ذلك الداعى الكبير من دعاة الحروب التى خاض غمارها المسلمون من أجل الدين . وجدير بنا أن نرجىء الحديث عنها إلى الفصل الذى نتحدث فيه عن الخطبة المنبرية زمن الحروب الصليبية . وهكذا ظل البيزنطيون يتقدمون فى فتوحهم ، ويحرزون النصر على أعدائهم ، حتى وقف هذه الفتوح ظهور الفاطميين أولا ، والسلجوقيين بعد ذلك . وقد كان هؤلاء وهؤلاء قوة كبيرة للإسلام ، ودما جديدا فى عروقه ، استعان به على القضاء التام على الآمال الصليبية لتلك الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق الإسلامى .

فأما الفاطميون فقد استردوا من البيزنطيين دمشق ، وحلب ، وحمص ، وشيزر ، وفلسطين ، وبيت المقدس .

وأما السلجوقيون فقد ملكوا جرجان ، وطبرستان ، واستردوا كذلك بيت المقدس ، وحلب ، وأنطاكية ، والرملة . والتقى السلطان ألب أرسلان بالإمبراطور البيزنطى أرمانوس ، فى موقعة من أهم المواقع الفاصلة فى التاريخ : موقعة (منازجرد) أو (ملازكرد) عام ١٠٧١م ، فهزمه السلطان السلجوقى هزيمة نكراء ، وأسره ثم أطلق سراحه بغرامة كبيرة .

٤

ذلك موقف البيزنطيين من المسلمين قبيل الحروب الصليبية . وأما موقف هؤلاء البيزنطيين من إخوانهم المسيحيين الوافدين عليهم من المملكة اللاتينية ، فقد ظهر بجلاء منذ اللحظة الأولى من تاريخ هذه الحروب التى أشعلها الصليب . فصحيح — فيما رجح

المؤرخون — أن البيزنطيين استنجدوا إخوانهم «اللاتين» . وكان موقف هؤلاء وهؤلاء يومئذ أشبه بموقف المسلمين شيعة وسنيين من عامة المسيحيين ، أى أنه كانت ثم عاطفة دينية عالية ، هى التى أشرنا من قبل إليها ، والتقى النداءان : نداء المسيحية الشرقية ، ونداء المسيحية الغربية ، وتجهز الأوربيون لأولى الحملات الصليبية التى وصلت إلى البلاد الشرقية ، واستقبلها عاهل الإمبراطورية البيزنطية ، وهناك أحب هذا العاهل البيزنطى الكبير أن يستغل الحملة لنفسه ، فكان يأخذ العهود والمواثيق على أمراء الحملة الصليبية الوافدين عليه من المملكة اللاتينية ، أنهم يردون إليه كل مايفتحون من البلاد الشرقية التى كانت يوما ملكا له . فحلف له بعضهم ، وأبى الآخرون ذلك كل الإباء ، لأن معنى هذه اليمين التى يأخذهم بها الإمبراطور ، أن كل أمير من أمراء الصليب إنما خرج من بلاده باذلا روحه ودمه وماله فى سبيل غاية سياسية لا دينية ، هى أن يسترد بسيفه للأمبراطور البيزنطى ما سلبه السلاجقة إياه . «وكأن الغرب الكاثوليكى بذلك لايعدو أكثر من مخالب قط فى يد هذا الإمبراطور الشرقى ، يحقق بها أطماعه السياسية .

ومع هذا فالغريب أن ذلك الإمبراطور الشرقى الأريب ، استطاع أن يحمل كبار أمراء الصليب ؛ مثل جودفرى وبوهمند ، وكانا من أعظم الصليبيين حينئذ ، إن لم يكونا أعظمهم على الإطلاق — على حلف اليمين ، فحلفاها أمامه فى جمع كبير من رجالات الدولة ، وعقدا معه اتفاقا على ذلك فى مايو عام ١٠٩٧ م . ثم لما نجح الصليبيون فى التغلب على البلاد الشرقية ، وفى تكوين الإمارات اللاتينية ، طالبهم الإمبراطور بتنفيذ الوعد ، فأبوا عليه ذلك ، بحجة أنه لم يشاركهم بنفسه فى هذه الحروب ، برغم أنه وعدهم تقديم المساعدة اللازمة لهم عند الحاجة .

ذلك باختصار موقف الكنيسة الشرقية ، والإمبراطورية البيزنطية من مسيحيي أوربة.

٥

ولا نريد أن تخلو هذه المقدمة أيضا من بيان وجيز لحالة المسلمين فى الشرق والغرب معا قبيل الحروب الصليبية . فأما المسلمون فى الغرب فقد انبثوا فى جنوب إيطاليا ، وفى صقلية ، وفى أسبانيا .

وهنالك كان للعرب اسم عظيم ، يلقى الرعب فى نفوس الأوربيين ، إلى بداية القرن

الحادى عشر الميلادى . ثم منذ ذلك تدهور المسلمون قليلا قليلا فى الغرب . وكان من مظاهر هذا التدهور سقوط طليطلة العربية أمام جيوش ألفنسو السادس أمير قشتالة ، ثم سقوط جنوب إيطاليا فى أيدى النورمانديين ، ثم سقوط صقلية فى أيديهم كذلك . « ولم يكد القرن الحادى عشر ينتهى حتى لم يعد فى قبضة العرب سوى جنوب إسبانيا ، وشمال إفريقية ، ولم يعد قرصان المسلمين شبحا للرعب فى بحر الروم »(١) .

وأما المسلمون فى الشرق ، فقد كانوا موزعين بين خلافتين : خلافة فتية فى مصر ، أتت إليهم من بلاد المغرب ، هى الخلافة الفاطمية ؛ وخلافة عجوز هرمة انحصرت أو كادت تنحصر فى بغداد وما حولها من البلاد ؛ هى الخلافة العباسية .

غير أنه فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، حدثنا التاريخ أن الخلافة العباسية تخلصت نهائيا من سلطان بنى بويه المعروفين بالتشيع ، ووقعت تحت سلطان الأتراك السلجوقيين المعروفين بالتحمس الشديد لمذهب أهل السنة ، فاستطاع هؤلاء السلاجقة — فوق سيطرتهم على الخلافة العباسية فى بغداد — أن يملكوا إرمينية ، وآسيا الصغرى ، وسورية ، وفلسطين ، وبيت المقدس ، فألقوا بذلك الرعب فى قلب الخلافة الفاطمية ، كما ألقوا كذلك رعبا أشد فى قلب الأمبراطورية البيزنطية ، وخاصة منذ هزموا عاهلها الأكبر — كما قلنا — فى موقعة « منازجرد » .

منذ ذلك الوقت شالت كفة الخلافة الفاطمية فى ميزان العظمة والمجد ، ورجحت عليها كفة السلاجقة ، الذين اقترن بظهورهم تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق .

٦

ولقد شاع أن السبب الأول فى قيام هذه الحروب إنما هو تعصب السلاجقة لدينهم تعصبا شديدا ، أدى بهم إلى أن أساءوا معاملة الحجاج المسيحيين ؛ فعاد هؤلاء الحجاج من فلسطين ، وبالغوا فى وصف الإهانات التى لحقتهم فى أثناء قيامهم بفريضة الحج . وهنا ثار الرأى الأوربى العام ، وكان أول من أوقد جذوته ، وأعان على إثارته ، البابا أوربان الثانى urban وسيتضح ذلك بعد .

أجل ، ربما كان تعصب السلاجقة وتحمسهم للدين ، سببا قويا من أسباب هذه

---

(١) إقرأ تراث الإسلام ج ١ ص ٩٠ .

الحروب ، ولكن لابد أن تكون هناك أسباب أخرى حفزت الأوربيين إلى حمل شارة الصليب ، والمضى فى هذه الحروب . ومن تلك الأسباب — فضلا عن الوازع الدينى الذى أهاب بالمسيحيين أن يذودوا بأنفسهم عن بيت المقدس :

أولا : رغبة الأمراء والكنيسة فى الاستفادة من النشاط الحربى الذى عم البلاد الأوربية ، وكان نتيجة من نتائج النظام الإقطاعى ونظام الفروسية .

ثانيا — حرص الأوربيين بوجه عام على أن تكون الحروب الصليبية بمثابة حل لمشكلة زيادة السكان فى أوربة .

ثالثا : أمل الأوربيين فى أن تكون الإمارات التى عزموا على إنشائها فى الشرق الأدنى ، سوقا تجارية للثغور الإيطالية التى رافقت سفنها أول حملة صليبية .

رابعا : رغبة العبيد فى التخلص من ظلم الأشراف ، واضطهادهم لهم اضطهادا كان يبرره النظام الإقطاعى .

خامسا : استنجاد الكنيسة البيزنطية بالغرب اللاتينى منذ انتصر الأتراك السلجوقيون انتصارهم الرائع فى منازجرد ، ومنذ استيلائهم من الدولة البيزنطية على إرمينية وآسيا الصغرى . ومهما تكن الدواعى التى دعت الأوربيين إلى التفكير فى هذه الحروب ، أو تكن البواعث التى حملت رجال الدين والدنيا معا فى أوربا على التنظيم والسعى لها ، فالذى حدث بالفعل هو أن الأوربيين صاح بهم صائح من الدين عجيب ، دفعهم إلى خوض هذه الحروب المقدسة ، التى أرادوا بها قبل كل شىء تحرير البيت المقدس ، وفسح الطريق للحجاج الوافدين عليه من أوربا .

وهذا معنى قول الأستاذ باركر : إن هذه الحروب كانت بمثابة حج كبير يحميه السلاح .

وبلغت الحروب الصليبية التى ثارت من أجل القدس غايتها ، وتناهت مدتها ، وهى المدة التى قلنا إنها تقع فى حدود القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد . ثم فى القرن الثالث عشر ظهر المغول ، وكونوا لأنفسهم أربع إمارات كبيرة لم تكن فى أول أمرها مسيحية ولا إسلامية ، ففكر كل من المسلمين والمسيحيين فى استمالة المغول إليهم ؛ أما المسيحيون فقد اعتمدوا على طريقة سلمية ، هى طريقة التبشير . وأما

المسلمون فقد ظلوا فى حروب طويلة بينهم وبين أولئك المغول ، وهى حروب أبدى فيها المماليك المصريون من أعمال الشجاعة والبطولة ماخلد ذكرهم فى التاريخ .

٧

مما تقدم نعلم أن الاحتكاك بين المسيحية والإسلام كان قديما منذ عهد عمر بن الخطاب ، وأنه استمر إلى أيام الأمويين والعباسيين فالحمدانيين فالسلاجقة فالفاطميين ، ثم قامت أولى الحروب الصليبية الحقيقية ، فنجحت فى تكوين مملكة لاتينية ، كانت أشبه شىء برقعة أجنبية فى ثوب العالم الإسلامى . وبقيت هذه الرقعة لاصقة بهذا الثوب حتى أزالها المسلمون على يد نفر من ملوكهم وزعمائهم ، نخص بالذكر هنا ثلاثة من أبطالهم ، وهم :

عماد الدين زنكى : حاكم الموصل .

ونور الدين محمود : حاكم دمشق .

وصلاح الدين الأيوبى : حاكم مصر .

فأما الحملات الصليبية التى أتت من أوربا إلى الشرق لتكوين إمارات لاتينيه ، فأهمها فى أول الأمر ثلاث :

الأولى — فى سنة ٤٩٠ — ٤٩١ (المقابلة) لسنة ١٠٩٦ — ١٠٩٧م — وهى الحملة التى نجحت فى تكوين المملكة اللاتينية وسط الخلافتين العباسية والفاطمية ، وكان البطل زنكى أول من ندب نفسه لهدم هذه المملكة .

والثانية — فى سنة ٤٥١ — ٤٥٢ هـ (المقابلة) لسنة ١١٤٧ — ١١٤٨ م — وهى الحملة التى حدثت فى عهد الملك نور الدين محمود ، وصدها هذا البطل العظيم ، فلم تصب من النجاح ما أصابته الحمله الأولى .

والثالثة — فى سنة ٥٨٣ — ٥٨٤ هـ (المقابلة) لسنة ١١٨٧ — ١١٨٨م وهى الحملة التى عجزت عن أن تنقض مافعله صلاح الدين بعده ، إذ أفلح هذا البطل الكبير فى امتلاك مصر ، وتمكن من طرد الفرنج من إماراتهم اللاتينيه فى الشرق ، وحصرهم فى شريط ضيق على الساحل .

ثم أتى خلفاء صلاح الدين ومن بعدهم سلاطين المماليك ، فأجهزوا على البقيه الباقية

من الفرنج ، واستطاعوا أن يطردوا آخر صليبي من الشرق ، وذلك بعد أن حاول الصليبيون فى ثلاث حملات أخرى من حملاتهم على مصر ، أن تستنقذ الملك الذى كونوه لأنفسهم فى الشرق ، فعجزوا عن ذلك كل العجز ، ولم يروا بدا من العودة إلى بلادهم ، والعدول نهائيا عن التفكير فى هذا الأمر .

٨

بقى أن نشرح الخطة التى وضعناها لأنفسنا فى كتابة هذا البحث ، ولم نجد خيرا من أن نتحدث حديثا تاريخيا موجزا عن كل مرحلة من مراحل الحروب الصليبية ، وذلك فى فصل خاص بهذه المرحلة ، نتبعه بفصل آخر فى وصف الحركة الشعرية التى اقترنت بها .

وسنرى أن الحرب الصليبية الأولى مرحلة ، وأن الحرب الثانية مرحلة ، وأن الثالثة مرحلة ، وأن الحروب الصليبية الثلاث التى وجهت إلى مصر وحدها بعد موت صلاح الدين يمكن أن تعتبر مرحلة ، فإذا خصصنا كل واحدة من هذه المراحل بفصلين ، أحدهما فى وصف الوقائع التاريخية ، والآخر فى وصف الحركة الشعرية ، كان مجموع الفصول الأولى لهذا الكتاب ثمانية .

وتأتى بعد ذلك فصول أخرى تكمل البحث ، يختص أولها بالرسائل الديوانية والإخوانية ، ويختص الثانى بالخطبة الصليبية ، ثم يأتى ثالث فى وصف الكتب التى ألفت فى موضوع الجهاد والفروسية ، ثم رابع فى موضوع فضائل البلاد الإسلامية .

ثم تأتى الخاتمة ، وبها ينتهى البحث الذى بلغت فصوله اثنى عشر فصلا غير المقدمة والخاتمة .

وكنت أود أن أضمن الكتاب فصلا عن الحركة التاريخية التى نشأت عن الحروب الصليبية . غير أنى وجدت أن ذلك يخرج بى عن نطاق الأدب الصرف ، وإن كنت أعلم أن من الكتب التاريخية التى نسبت إلى عصر الحروب الصليبية ، ما كتب بلغة أدبية لا علمية ، روعيت فيها الصناعة اللفظية أكثر من مراعاة الحقائق التاريخية ، ومن هذه الكتب ، على سبيل المثال ، كتاب الفتح القسى ، فى الفتح القدسى ، للعماد الأصفهانى .

٩

وللقارىء أن يسأل : لم خصصنا الحركة الشعرية بالعناية فى بحثنا هذا ، حتى أفردنا لكل مرحلة من المراحل الصليبية فصلا مستقلا بعرض نماذجها الشعرية دون النثرية ؟

وجوابنا عن ذلك : أن الشعر كان فى رأينا أهم من النثر الفنى فى تلك الفترة من تاريخ الأدب العربى ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن الشعر كان تعبيرا شعبيا عن عواطف المسلمين فى أثناء تلك الحروب ، بخلاف الرسائل الديوانية ، التى كانت مجرد تعبير رسمى عن عواطف الحكومات الإسلامية فى تلك العصور .

وهل تبلورت الفكرة الصليبية أحسن ما تبلورت إلا فى أذهان الشعراء ؟ وهل استعان الأبطال فى تصوير المثل الأعلى لهذه الحروب كلها بغير هؤلاء الشعراء ؟ وهل كان يحمس قادة المسلمين ويعبر لهم عن آمالهم فى الفتوح غير الشعر الذى كان يقوم مقام الصحافة السياسية فى ذلك العصر ؟ وهل كان يهنىء عماد الدين أو نور الدين أو صلاح الدين بالنصر ، فى هذه الموقعة أو تلك ، ويبشرهم بقرب دخول القدس غير الشعر ؟

أجل ، سنرى أن الشعراء فى تلك الحقبة لم ينوا لحظة ما عن تذكير الأبطال المجاهدين بالغاية الرئيسة من تلك الحروب الإسلامية المسيحية ، وهذه الغاية هى طرد الفرنج من جميع البلاد الشرقية ، وأهمها القدس . . .

وثانيهما : أنه حين كان الشعر العربى يقوم بوظيفتيه فى ذلك الوقت ، وهما إثارة الشعور ، وتسجيل النصر الذى يحرزه المسلمون على الصليبيين ، إذا بالرسائل الديوانية تنهض بالمهمة الرسمية ، لا تعدوها إلى غيرها . وهذه المهمة الرسمية هى هنا تسجيل الحوادث السياسية ، ثم إبلاغها الخليفة من جهة ، وأكابر الأمراء المسلمين من جهة ثانية .

والغريب — كما سنرى — أن الجهد الفنى الذى بذله الشعراء إذ ذاك فى الشعر ، لم يكن شيئا بالقياس إلى الجهد الفنى الذى بذله رجل كالقاضى الفاضل أو العماد الأصفهانى فى النثر . ومعنى ذلك بوضوح أن الشعر — كما قلت — كان أقرب فى أسلوبه إلى عامة الشعب الإسلامى من النثر ، وذلك بالطبع فيما عدا كتب الجهاد والفروسية التى كتبت لتحميس القادة ، وتشجيعهم على المضى فى تلك الحرب الدينية فى شجاعة وبسالة .

١٠

ومن هذا الذى أشرنا إليه منذ حين ، وهو أن الأدب العربى فى أثناء الحروب الصليبية كان شعرا ، ورسائل ديوانية وإخوانية ، وخطبا حماسية ، وكتبا فى الجهاد والفروسية ، وكتبا فى فضائل البلاد العربية ، نعلم كيف عنى هذا الأدب الصليبى بالنواحى النفسية الثلاث من نواحى العقل الإسلامى ؛ وهى نواحى الإدراك والوجدان والإرادة ؛ وهى النواحى التى تجب العناية بها عند ما يراد إعداد الرجل العربى للخوض فى هذه الحروب ، وذلك بصرف النظر طبعا عن الغريزة التى فطر العربى عليها ، وهى الغريزة التى توجب عليه الذود عن حياضه ضد العدو الخارجى .

فأما ناحية الإدراك ، فقد كان يغذيها من ذلك الأدب الصليبى ، ما كتبه العلماء فى موضوع فضائل البلاد . وليس شك فى أن العربى الذى يطلب منه أن يجاهد فى سبيل بلاده ، ينبغى له أن يعرف أولا مقدار هذه البلاد وقيمتها وفضائلها ، وما تمتاز به عن غيرها من بلاد الله ؛ فإذا أدرك ذلك بوضوح تام ، أعانه هذا على تقبل فكرة الحرب ، والمضى فيها إلى أبعد حد ، لأن البلاد التى يحارب من أجلها لها كل ذلك الفضل .

وسنرى أن العلماء الذين وصفوا هذه الكتب الأخيرة فى فضائل البلاد ، قد اتبعوا فيها خطة فى غاية اليسر والبساطة ، ولكنها فى الوقت نفسه فى غاية القوة والتحريك والإثارة . وتتلخص هذه الخطة فى أنهم اعتمدوا على الأحاديث النبوية التى وردت فى مدح كل بلد من بلاد الإسلام على حدة ، فكان مجرد الأتيان بهذه الأحاديث كافيا لإنهاض الهمم ، على نحو ما تفعل الصحف والراديو وغيرهما من وسائل الإعلان ، أو تهيئة الرأى العام لقبول فكرة من الأفكار .

وأما الناحيتان الوجدانية والإرادية ، فيغذيهما من هذا الأدب الصليبى ذلك الشعر الحماسى الرائع ، الذى صاغه الشعراء فى جميع الأقطار ، وخاصة مصر والشام ، كما تغذيهما فى نفس المقاتل العربى كتب الجهاد والفروسية ، وما فيها من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والسير التاريخية ، وكلها تحث على الاستشهاد فى سبيل الله ، وتعد المجاهدين من عباده جنات عرضها السموات والأرض .

وليس معنى ذلك أن الشعب الإسلامى بقى جامدا صامتا حتى كتب له الكتاب

فى الفروسية والجهاد وفضائل البلاد ، ونظم له الشعراء ما نظموه من القصائد التى تدعو إلى القتال الخ ؛ لا ، ولكن معناه أن شعورا إسلاميا فياضا كان يثور فى نفوس المسلمين ، وأن رأيا عاما نشأ بينهم فى ذلك الحين ، وأنه كان لا بد من تغذية هذا الشعور قبل أن يموت ، وإذكاء تلك الجذوة قبل أن تخمد ؛ وطريق هذه التغذية وذلك الإذكاء هو هذا الأدب الصليبى ، وهو الأدب الذى عبر تعبيرا صحيحا عن رغبات المسلمين المجاهدين وآمالهم ، وغاياتهم وأهدافهم ، وذلك منذ ظفر أولئك المسلمون المجاهدون بزعماء يجمعون كلمتهم ، ويقودونهم إلى غايتهم ، وهؤلاء الزعماء هم — كما قدمنا — عماد الدين ، فنور الدين ، فصلاح الدين ، ثم خلفاء هذا الأخير من بعده .

١١

ونريد فى هذه المقدمة أن ننبه على أمر له خطره عندما نؤرخ للأدب العربى فى ظل الحروب الصليبية . هذا الأمر هو الفرق الواضح بين المسلمين والمسيحيين فى تاريخ هذه الحروب . فليس شك فى أن كل فريق من هؤلاء وهؤلاء تعصب لدينه تعصبا ظاهرا . وليس هذا التعصب فى ذاته عيبا من عيوب المؤرخ ، الذى يستحيل عليه أن يتخلص من شعوره الدينى ، أو يخفف من حدة هذا الشعور فى عصر عرف بشدة التحمس الدينى . ومن أجل هذه العصبية الدينية كان المؤرخون من المسلمين يصفون المسيحيين بأنهم كفرة ومشركون ، كما كان المؤرخون المسيحيون يصفون المسلمين بأنهم كفرة وثنيون . ومثل هذا كثير فى كتب هؤلاء وهؤلاء ، لا محل لتوجيه اللوم لهم من أجله . ولكن ليس معنى هذا أن الحق فى هذا التاريخ الصليبى ضاع أو كاد ، إذ أنه ليس من الصعب على المؤرخين المحدثين استخلاص الصدق من كتابة الفريقين معا ، وبخاصة إذا علمنا ما عليه المؤرخون المسلمون القدماء من التحرج الشديد ، والتحرى الدقيق فى سرد الوقائع التاريخية ، وهو تحرج يشبه فى جملته ما كان يفعله رجال الحديث منذ ظهورهم على مسرح الثقافة الإسلامية إلى اليوم .

والذى نريد أن نصل إليه من وراء هذا التنبيه ، هو أننا نؤرخ للأدب العربى فى زمن الحروب الصليبية ، والأدب فى ذاته إنما هو فن التعبير عن العواطف الإنسانية ، قبل أن يكون فن التعبير عن الحقائق العلمية ، ومعنى ذلك أننا مضطرون

فى تصوير هذه الحروب ، ووصف الظروف المحيطة بها ، إلى الاعتماد الأكبر على المصادر العربية ، التى تصف وجهة النظر الإسلامية الشرقية ، لا المسيحية الأوربية . وإذا علمنا أن الأدب العربى فى ذلك الوقت إنما يمتاز بأنه أدب العاطفة قبل كل شىء ، كان معنى ذلك أن المصادر العربية وحدها كفيلة بخلق الجو العاطفى ، الذى يعين على فهم الأدب العربى الصليبى . ولو فعلنا غير ذلك ، فعولنا فى هذا التصوير على المصادر المسيحية أكثر من المصادر الإسلامية ، أو على الأقل ساوينا بينهما ، لقصرنا كل التقصير فى ذات الأدب العربى لتلك الفترة ، ولعجزنا كل العجز عن أن نتذوقه أو نقدره ، ولأصبحنا بهذا الصنيع أشبه بالمؤرخ الذى لا هم له إلا استخلاص الحقائق التاريخية المجردة ، وعرضها عرضا فيه ظل ضعيف من شخصيته . وليس هذا القدر كافيا لكتابة التاريخ الأدبى العربى لهـــذه الحروب . ومن ثم كان حقنا واضحا فيما أخذنا به أنفسنا من الاعتماد على المصادر العربية ، وخاصة ما كان منها قريبا جدا من الزمن الذى وقعت فيه هذه الحروب .

وهنا ينبغى أن نذكر أنه كان من أجلّ الكتب التى رجعنا إليهـــا فى التاريخ الأدبى لهذه الحروب ، كتاب واحد لم نجد له نظيراً فى المكتبة العربية الإسلامية ؛ وهو كتاب « الروضتين ، فى أخبار الدولتين : النورية والصلاحية » لشهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن المقدسى ، المعروف « بأبى شامة » . وقد جمع هـذا المؤلف فى كتابه بين الأدب والتاريخ . بل لا نبعد عن الحق إذا قلنا إن عنايته بالنصوص الأدبية كانت فى هذا الكتاب مقدمة على العناية بالنصوص التاريخية ، وتلك هى الصفة التى قل أن يساويه فيها كتاب عربى آخر من الكتب المنسوبة إلى ذلك العصر .

ومن ثم نحن مدينون فى بحثنا هذا لطائفة من العلماء القدماء ، أولهم أبو شامة — سقى الله ثراه — ويليـــه عميد المؤرخين المصريين فى العصر الوسيط ، وهو المقريزى ؛ وإلى أبى المحاسن بن تغرى بردى يرجع الفضل فى كثير من المعلومات التاريخية والأدبيـة التى اشتمل عليها هذا البحث ، فى الجزء الذى يؤرخ لما بعد صلاح الدين الأيوبى .

وبعد ، فإن من العدل أن نرد الفضل لصاحب الفضل ، فنعترف أن الباعث الحقيق لكتابة هذا البحث ، إنما هو « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » بالقاهرة ؛ فقد رغب هذا المجمع منذشهور إلى جمهور الأدباء والباحثين ، أن يقدموا إليه بحوثا قيمة فى موضوعات أدبية ، منها « أدب الحروب الصليبية » ، فعجبت لنفسى كيف لم أسبق المجمع إلى هذه الفكرة ، أو كيف أبطأ بى التفكير فيها حتى أعلن المجمع نفسه عنها ؟

ثم لم أكد أضع خطة البحث ، ولم أكد أفرغ منه ، حتى وجدت فى أعماق نفسى هاتفا عجيبا يهتف بى إلى إهداء هذا الكتاب إلى أرواح الشهداء فى فلسطين العربية المجاهدة ، وإلى التبرع بالربح الذى قد تأتى به الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، فى سبيل القضية التى تشغل بال المسلمين اليوم فى جميع أقطار الأرض ، وهى قضية فلسطين .

وسرعان ما استجبت لهذا الهاتف النفسى دون إبطاء ، وقلت فى نفسى يومئذ : إذا لم أقتد بسيرة المشتغلين بالأدب والعلم من قبلى ، ممن بذلوا أموالهم وأقلامهم فى محنة الحروب الصليبية ، وإذا لم أهتد بهديهم ، أو أتأثر بقولهم وفعلهم ، فلا خير فيما قرأته من أخبارهم ، وعرفته من أخلاقهم ، وشهدته من حسن بلائهم . والعلم الذى لا يثمر فى نفس صاحبه عملا ما يعتبر علما باطلا ، فوق أنه مما يحاسب عليه المرء أمام خالقه .

على أنى لا مطمع لى فى التشبه بهؤلاء القوم ، ولست من الجرأة على الخلق والتأريخ بحيث أضع نفسى مكانهم ، أو أقرنها بنفوسهم ، فأولئك إنما بذلوا دماءهم وأرواحهم ، وقضوا فى الجهاد حياتهم ، ولم يبخلوا عليه بمواهبهم ، وأما أنا فلا حيلة لى فى شىء من هذا قل أو كثر .

أسأل الله العلى القدير أن يمنح العرب فى فلسطين قوة ينتصرون بها على عدوهم ، ويملكون بها بلادهم ، ويطمئنون بها على أرواحهم وأموالهم ، ويكرمون بها إخوانهم اليهود المقيمين معهم إكراما يتفق مع مروءتهم العربية ، وشهامتهم الإسلامية ، وشرفهم القومى ؟

مصر الجديدة ١٩٤٨ — عبد اللطيف حمزه

الفصل الأول

المرحلة الأولى من قصة الحروب الصليبية

وقف البابا أوربان الثانى فى مجمع الأساقفة بمدينة كليرمنت ، فى اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وخطب القساوسة خطبة طويلة مؤثرة ، لعب فيها على وتر دينى حساس ؛ ووجه الحديث أيضا إلى الفرسان والشجعان ، فأيقظ فيهم النعرة العسكرية ، والحمية الحربية ، وشهامة الفروسية ، وأشار لهم بيده إلى الميدان الذى يظهرون فيه شجاعتهم ، ويشحذون فيه بطولتهم ؛ كما وجه الحديث إلى الأمراء ، فخاطبهم يومئذ بلغة المجد التى يفهمونها ، ولوح لهم بالسلطان الذى ينتظرهم هناك ، حيث البلاد التى وطئتها أقدام المسيح ، وتعذب فيها جسده الشريف فى سبيل المسيحية . فعلى هؤلاء الأمراء ، وغيرهم من أفراد الشعب الأوربى ، أن يستهينوا بالمخاطر التى يلقونها فى سبيل هذه الغاية ، وهى تخليص البيت المقدس من أيدى الكفرة ، وقد كان البابا يسمى المسلمين إذ ذاك بهذا الاسم .

وانظر إلى البابا يقول فى خطبته هذه :

« يجب عليكم أن تتعذبوا كثيرا لأجل اسم المسيح ، وأن تتحملوا المشقة والفقر ، وتكابدوا الحفاء والاضطهاد، وتقاسوا الذل والمرض والجوع والظمأ وجميع الشرور فى الدنيا ، كما قال السيد المسيح لتلاميذه : سأريكم كم ينبغى أن تتألموا من أجل اسمى ؛ وكما قال أيضا : إنى أنا أعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع معاشريكم أن يقاوموها أو يناقضوها ، وكما قال أيضا : إنكم ستأخذون ميراثا عظيما » .

ثم اتجه البابا إلى الحاضرين ، وصرخ فيهم قائلا :

« عبدوا طريق الرب ، واجعلوا سبله مستقيمة » .

وما كاد ينتهى البابا من خطبته حتى صاح الجميع صيحة واحدة زلزلت أركان المؤتمر ، وقالوا فى هذه الصيحة :

« هكذا أراد الله . . . ![1] » .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت هذه الكلمة صيحة عامة للمحاربين الصليبيين تقابل فى كل موقعة من المواقع صيحة من المسلمين : « الله أكبر ، الله أكبر ! » .

وطالما كانت تسمع الصيحتان دائما عند الصدام الأول بين الفريقين .

وتسابق الأمراء المسيحيون فى ركوعهم بين قدمى البابا ، وأسرع فى أن يضع شارة الصليب على كل واحد منهم ، وأقسم الجميع له يمين الإخلاص للمسيح ، وتعهدوا له بألا يلقوا السلاح حتى يظفروا بهذا الشرف الدينى ، وهو تحرير الأماكن المقدسة ، وتعبيد طريقها للحجاج المسيحيين ، ليقوموا بحجهم دون أن يتعرض لهم أحد من الأتراك .

أما الشعب فى خارج المؤتمر ، فوصلت إليه أنباء هذه الخطة ، وتولى القساوسة إفهامهم غايتها ، والغرض منها ، وكان أشدهم تحمسا فى إثارة الشعور ، وأوسعهم علما بنفسية الجماهير ، قسيس عظيم يقال له بطرس الناسك PeteroThe Hermet الذى أخذ يذرع البلاد الفرنسية طولا وعرضا ، وينشر دعوة الجهاد فى سبيل المسيح . وكان من أثر ذلك أن تحولت فرنسا فى وقت قصير إلى أتون من النار يؤجحه الدين ، وتحركه مطامع الأمراء المسيحيين ، وتعين عليه رغبة الفقراء والمساكين فى أن يتخلصوا من نير النظام الإقطاعى .

وإلى هذا الرجل الروحى الكبير ، وهو بطرس الناسك ، يرجع الفضل فى إقناع الدهماء بسلامة الفكره الصليبية ، حتى كان من أثر خطبه الكثيرة ، التى امتزجت فيها الحقيقة بالخرافة ، أن خرج وراءه فى أبريل سنة ١٠٩٦ جيش مؤلف من خمسة عشر ألف صليبى ، قوامه غوغاء أوربا ؛ فكان أول جيش تألف فيها لهذه الغاية ، وهى استنقاذ القبر المقدس من أيدى الكفرة . ووصلت هذه الحملة الشعبية التى لا نظام لها إلى آسيا الصغرى ، وارتكبت هناك طائفة من الفظائع الكبرى ، فتركهم الأمبراطور البيزنطى يجتازون بلاده ويلتقون بالأتراك ؛ وهناك حصدهم هؤلاء الأتراك حصدا حتى أفنوهم ، ولم يكد ينج منهم إلا عدد يسير كان فيهم ذلك الناسك الكبير .

(١) اقرأ حوليات مؤرخ مجهول ، نقلها حسن حبشى فى كتاب الحروب الصليبية الأولى من ١٠١، ١٠٢

منذ ذلك الوقت ابتدأ تاريخ الحروب الطويلة ، بل الجهود العنيفة التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين ، وتحملوا في سبيلها من آلام الجوع والعطش ، والعرى والمرض ، ما لم يدر بخلد البابا نفسه حين كان يهون عليهم هذه الخطوب ، وينظر بعين الغيب إلى ما ينتظر جنوده وأتباعه في الشرق الإسلامي ، من صنوف العذاب والويل .

إذن لولا ذلك الروح الديني القوى الذي بثه البابا ورجاله في نفوس الأوربيين ، ولولا الغفران وما إليه من الأطماع الروحية التي وعدهم إياها البابا إذا انتصروا على الكفرة الوثنيين — ما استطاع هؤلاء الصليبيون أن يتحملوا عشر معشار الألم الذي تحملوه ، أو يقاسوا جزءا يسيرا من الاضطهاد الذي قاسوه حتى كتب لهم النصر على المسلمين ، وهو نصر زعموا أحيانا أن الفضل فيه ليس للجيوش الكثيفة التي حاربت بكل قوتها ، ولا للأمراء الصليبيين الذين أنفقوا على الحملة من حسابهم الخاص ؛ وإنما الفضل فيه للقديسين الذين نزلوا فيه «بزعمهم» من السماء ، وعاونوا بأنفسهم في القتال ، وكتب بعضهم يقول : إنه «أبصر كتيبة من السماء وعليها هالات قدسية من النور ، تقدمت الصفوف ، وتسلقت السلالم والأسوار المحيطة بمدينة أنطاكية ، ورمت وأصمت»[1] . وكتب كذلك يقول :

ولما أقبل الليل لاحت في السماء نار مقبلة من الغرب ، حتى إذا دنت سقطت وسط الجيش التركي ؛ فاستولى الذهول الشديد على رجالنا وعلى الترك معا ، فلما تبلج الصباح ، فر الترك المذعورون جزعا من هذه الظواهر العلوية ، وتركوا الحصار الذي ضربوه على أنطاكية في يونية سنة ١٠٩٨ م .

ولئن دلت هذه الأخبار كلها على شيء ، إنها تدل على الروح المعنوى القوى الذي نفثه البابا ورجاله في أولئك القوم ، حتى جعلوهم يرون هذه الأمور الخرافية رأى العين . وتلك حالة عقلية لا شك أن لها نظيرا في المعسكر الإسلامي ، وقد سمعنا بمثلها مرتين في تاريخ الإسلام ؛ أولاهما في أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله تعالى : «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان» . وقوله تعالى : «إذ تقول

---

(١) انظر Gesta Framcorum نقلها إلى العربية حسن حبشي في كتابه الحروب الصليبيه ص ١٠٢ .

للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » .

والمرة الثانية فى عهد الحروب الصليبية . ولكن العرب المسلمين لم يقولوا مثل ما قال الفرنج الصليبيون إنهم رأوا الملائكة فى كتيبة من السماء وعليها هالات من النور الخ . ولا قالوا مثلهم إن نارا لاحت فى السماء ، ونزلت فى ميدان القتال الخ . ولكنهم اكتفوا بالإشارة إلى أن الله تعالى أعان المسلمين بإنزال الملائكة والروح ، وذلك منهم كناية عن الروح المعنوى القوى الذى شعر به المسلمون فى قتالهم ضد الصليبيين ، لا تصريحا برؤية الملائكة ينزلون فى كتيبة من السماء ، كما قال بذلك الصليبيون .

ومهما يكن من شىء ، فإننا نسوق مثل هذا القول لغرض واحد فقط هو الوقوف على مدى التأثير الذى تركته الخطط البابوية فى نفوس الجيوش الصليبية .

وعندنا أنه بفضل هذه الخطط أولا نجح الصليبيون فى تكوين الإمارات اللاتينية . ولكن قبل الكلام على هذه الإمارات ، يحسن بنا أن نشير إلى بعض الطرق التى عمد إليها رجال الدين المسيحى فى إثارة الأمم المسيحية ، حتى هبت هبتها لاستنقاذ « القبر المقدس » .

فمن هذه الطرق مثلا : أنهم رسموا صورة لقبر المسيح ، وعليه فارس مسلم يدوس القبر بجواده ، ويسمح لهذا الجواد ، فيبول عليه أيضا [1] !

وقيل : بل صوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا معه صورة عربى يضربه ، وجعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا : « هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين ، وقد جرحه وقتله » [2] .

ومنها — أى من الطرق — الأحلام والرؤى . فمن ذلك أن أحد الأمراء الصليبيين وهو ريموند الضنجيلى ، لما رأى الخور والضعف اللذين استوليا على قلوب المقاتلين وهم يحاصرون عكا ، رتب مع راهب حيلة ، فقال له : اذهب فادفن هذه الحربة فى مكان كذا ، ثم قل للفرنج بعد ذلك : رأيت المسيح فى منامى وهو يقول : فى المكان

(١) انظر كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٠

(٢) انظر كتاب مفرج الكروب ج ١ ص ٣٢٦

الفلانى حربة مدفونة — فاطلبوها ، فإن وجدتموها فالظفر لكم ، وهى حربتى . هذه هى الرواية الإسلامية لقصة الحربة المقدسة . وأما الرواية الصليبية فتقول : إنه كان هناك حاج فى جيشنا اسمه بطرس ، تراءى له القديس أندراوس الرسول قبل دخولنا المدينة (يريد أنطاكية) وقال له :

ماذا تفعل أيها الصنديد ؟ فأجابه : وأنت من أنت ؟ فقال له الرسول : أنا الحوارى أندراوس . اسمع يابنى : حين تدخل المدينة عرج على كنيسة القديس بطرس ، وستجد بها الحربة التى طعن بها مخلصنا يسوع المسيح حين رفع على الصليب . ثم اختفى الرسول بعد أن أخذه وسار به شطر الناحية التى كانت الحربة مطمورة فيها تحت الأرض (١) . هذا وغيره من طرق الإثارة والتشنيع على الأتراك السلجوقيين من المسلمين ، الذين أصبحوا شجا فى حلوق الأوربيين ، وقذى فى عيونهم منذ ذلك الحين .

هكذا فعلت الخطط الباباوية، فعلها فى نفوس الأوربيين، فاجتمع للبابا بعد الفراغ من خطبته ألوف مؤلفة من الناس الذين أخذوا على أنفسهم ميثاقا غليظا ليذودن عن البيت المقدس بالأموال والأنفس والثمرات .

وسرعان ما أخذ الأوربيون أهبتهم للقيام بالحملة الصليبية الأولى ، وفيها بلغ عدد المحاربين مئتين وثلاث مئة ألف مقاتل ؛ لم يكن لهم قائد واحد ، وإنما كانت قيادتهم موزعة بين عدة أمراء ، كان من أهمهم يومئذ : جودفرى Godfrey وأخوه بلدوين Baldwin ، وريموند Raymond ، وبوهمند Bohemont وغيرهم . وسار الجميع حتى وصلوا إلى البسفور ، ثم التحموا بصاحب سلطنة الروم من السلاجقة ، وهزموا جيوشه عند نيقية . ثم ظهر الخلاف بينهم ، ودبت الفرقة فى صفوفهم ؛ كل يريد لنفسه القيادة ، ولجنده الصدارة . ثم انفصل عنه بولدوين ، فذهب إلى جهة الرها « Edessa » ، إجابة لطلب أميرها ، وأسس بها أول إمارة لاتينية ، ونصب نفسه أميرا عليها .

أما الأمراء الآخرون فقصدوا إلى أنطاكية،وحاصروها تسعة أشهر كاملة، ثم دخلوها عنوة ، وقتلوا من أهلها عشرة آلاف أو يزيدون ؛ وأسسوا لهم إمارة لاتينية ثانية ، واختاروا من بينهم بوهمند لتولى أمرهم .

---

(١) انظر كتاب الحرب الصليبية الأولى ص ١٥٠ . نقلا عن Gesta Framcorum .

ثم ما كاد المقام يستقر بهم فى هاتين الإمارتين قرابة عامين ، حتى اشتاقت نفوسهم إلى الهدف الذى أتوا من أجله إلى بلاد المشرق ؛ وهو دخول بيت المقدس . فجمعوا صفوفهم ، ووحدوا كلمتهم ، واستأنفوا جهودهم ، واستطاعوا أخيرا أن يؤسسوا لهم إمارة صليبية ثالثة ؛ هى أهم فى نظرهم من جميع الإمارات اللاتينية السابقة ، لأنها قامت فى بيت المقدس . وانتخبوا جودفرى ليكون ملكا على هذه الإمارة الهامة ؛ فلم يرض جودفرى لنفسه هذا اللقب ، واختار بدلا عنه لقب (حامى قبر المسيح) ، ولم يكتف الصليبيون بذلك ، بل أخذوا يمدون سلطانهم إلى بعض الثغور ؛ ومن أهمها عكا وصور ، وتيسر لهم بعد ذلك تأسيس الإمارة اللاتينية الرابعة ، وهى إمارة طرابلس .

وهذا موجز لما وصف به المؤرخون الأوربيون الحملة الصليبية الأولى ، وذلك بصرف النظر طبعا عن أوصاف الجوع والعطش والعرى ، والصعوبات المادية والمعنوية التى اعترضت الصليبيين فى هذه الحملة ، إلى أن وفقوا أخيرا إلى تأسيس هذه الإمارات اللاتينية

فبم أجاب المسلمون عن هذه الحركة ؟

نشأت المقاومة الحربية التى أجاب بها المسلمون عن هذه الحركة أولا (بالموصل) ، وثانيا (بحلب ودمشق) ، وثالثا (بمصر) .

ومعنى ذلك أن الأتراك السلجوقيين هم أصحاب الفضل الأول فى مهاجمة الصليبيين ؛ وبعبارة أخرى : إذا كان على الإسلام والمسلمين أن يشكروا الدولة التى جاهدت فى سبيلهم ضد الصليبيين ، فإنهم يشكرون الدول التركية وحدها ، قبل أن يشكروا الخلافة العباسية نفسها ، أو الخلافة الفاطمية التى كانت وقت قيام الحرب الصليبية فى غاية العظمة والقوة .

وكم يتعجب الباحث حقا من إهمال الخلافة الفاطمية يومئذ مع قوتها وعظم هيبتها ، حتى لكأن الدولة الفاطمية فى مصر نظرت إلى انتصار الصليبيين فى الشرق على أنه مانع قوى للترك من محاولة غزو مصر .

أجل ؛ لقد أهملت الخلافة الفاطمية الدفاع الحقيقى عن الإسلام ، وهاك البرهان : أشرنا أولا إلى أن الفرنج نجحوا فى أخذ الرها وأنطاكية . فلما وقع ذلك اجتمع

من ملوك الإسلام صاحب الموصل ، وصاحب ماردين ، وصاحب سنجار ؛ وهم جميعا من ملوك السلاجقة . أما مصر — وكان أمرها يومئذ إلى الوزراء دون الخلفاء — فإن وزيرها (الأفضل بن بدر الجمالى) لم ينهض بإخراج العساكر المصرية .

قال التاريخ : وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال [1]؟) .

ثم قال التاريخ : والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا فى غاية الضعف من الجوع وعدم القوت ، حتى إنهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الإسلام فى غاية القوة والكثرة ، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم ، وانكسر أصحاب الجرد السوابق ، ووقع السيف فى المجاهدين والمتطوعين ، فكتب أمراء السلاجقة إلى الخليفة المستظهر العباسى يستنصرونه ، فأمر الخليفة من ذهب من قبله إلى (بركياروق [2]) بن السلطان ملك شاه السلجوقى يستنجده . كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج [3] .

وحينما كان الفرنج يحاصرون بيت المقدس كان به (افتخار الدولة) من قبل المستعلى بالله خليفة مصر ؛ فبقى الفرنج فى حصاره أربعين يوما ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالى ، فأبطأ فى الخروج ، ثم خرج بعشرين ألفا من عساكره ، ووصل القدس بعد إذ نجح الفرنج فى دخوله والاستيلاء عليه فعلا . فعاد الأفضل إلى مصر بعد أمور وقعت له مع الفرنج الذين بقى القدس فى أيديهم « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

ولما تم للفرنج أخذ بيت المقدس وضعوا السيف فى أهله ، ووصلوا بخيولهم إلى معبد سليمان ، وجمعوا اليهود فى الكنيسة وأحرقوها عليهم ، وأقاموا تلك المذبحة الشنيعة ، التى وصفها جودفرى فى خطاب له بعث به إلى البابا قائلا : إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتيها فى بحر من دماء الشرقيين فى إيوان سليمان ومعبده .

فعل الصليبيون المسيحيون بالقدس كل ذلك ، فلما وصلت هذه الأخبار السيئة كلها إلى دمشق ، هاج الناس فيها وماجوا ، وخرج المستنفرون منها ، ومعهم قاضى المدينة

---

(١) اقرأ النجوم الزاهرة : (ح ٥ ص ١٤٧ وما بعدها ، طبعة دار الكتب المصرية) .

(١) كان بركياروق السلجوقى بن ملك شاه صاحب النفوذ المطلق فى بغداد إذ ذاك . وكان يذكر اسمه فى الخطبة بعد الخليفة .

(٣) النجوم الزاهرة : (ج ٥ س ١٤٨) .

« ووصلوا إلى بغداد ، وحضروا فى الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا . وقام القاضى فى الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من يمضى إلى العسكر السلطانى ، ويعرفهم بهذه المصيبة » فوقع التقاعد لأمر يريده الله تعالى .

ومن الشعر الذى قيل إذ ذاك فى ديوان الخلافة ، قول أبى المظفر الأبيوردى، من قصيدة نثبتها على رواية ابن الأثير ، وأولها : (١)

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... ولم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيها بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
أتهويمة (٢) فى ظل أمن وغبطة ... وعيشٍ كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشأم يضحى مقيلهم ... ظهورَ المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمى ... توارى حياءً حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغبْ عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم
يكاد لهن المستجن بطيبة ... ينادى بأعلى صوته يالهاشم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا ... رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كُماةَ الأعاجم ؟

ومنها : فليتهمم إذ لم يذودوا حميّةً ... عن الدين ضنوا غيرةً بالمحارم
وإذ زهدوا فى الأجر إذ حمس الوغى ... فهلا أتوه رغبة فى المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلا عطسوا إلاّ بأجدع راغم

---

(١) انظر بن الأثير ج ١٠ فى حوادث سنة ٤٩٢ ﻫ .

(٢) التهويم والتهوم هز الرأس من النعاس .

دعوناكم والحرب ترنو ملحةً إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربيــــة تطيل عليها الروم عضَّ الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعـد هذه رُمينا إلى أعدائنا بالجرائم

ثم انبرى للقول شاعر آخر فقال [١] :

أحلَّ الكفر بالإسلام ضيما يطول عليـه للدين النحيبُ
فحقٌ ضائع وحمىً مباحٌ وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ومسلمةٍ لها حرمٌ سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا على محرابه نُصبَ الصليب
دمُ الخنزير فيه لهم خَلوقٌ وتحريق المصاحف فيه طيب !
أمور لو تأملهن طفــــل لطفل فى عواقبه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر وعيش المسلمين إذن يطيب ؟
أما لله والإسلام حق ؟ يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

وقال الناس فى هذا المعنى مرات .

قال التاريخ : ولكن القاضى ورفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة ، ولا قوة إلا بالله [٢] .

أرأيت إذن كيف تقاعدت عن الجهاد كل من الخلافة العباسية من جانب ، والخلافة الفاطمية من جانب آخر ؟ أرأيت إذن كيف تركت كل منهما بلاد الإسلام للفرنج يأكلون منها ما يأكلون ، ويتركون منها ما يتركون ؟

فهذا الخليفة العباسى يشهد بنفسه ذلك المأتم الإسلامى الكبير الذى أقامه المستنفرون من دمشق فى ديوان الخلافة نفسه ، فلا يفعل الخليفة شيئا أكثر من أن يبعث إلى السلطان السلجوقى يستنجده !

وهذا الخليفة المصرى يعتمد على وزيره الأفضل بن بدر الجمالى ، ويتقاعد هو عن الجهاد ، ويتهاون فى أمر البلاد، حتى يأخذها الفرنج عنوة ، وبغير دفاع يذكر .

---

(١) النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ١٥٢) .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

قال المؤرخ : من ذلك يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه :

الأول - من تقاعدهم عن المسير فى هذه المدة الطويلة .

والثانى - لضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج .

والثالث - لم لا خرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية (يريد فى الوقت المناسب) هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة ، فلله الأمر من قبل ومن بعد [١] .

ولنمض فى عرض قضيتنا والتدليل عليها ، فنقول :

ولما حاول الفرنج امتلاك صور - وكان ذلك فى عهد خليفة مصر الآمر بالله الفاطمى - دافع أهل المدينة دفاعا مجيدا عن أنفسهم ، وكتب أميرها سيف الدولة إلى الأفضل بن بدر الجمالى يستنجد به ، فانظر بم أجابه الوزير ؟ لقد أجابه بقوله : « لقد رددنا أمرها - يريد أمر صور - إلى الأتابك ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، ليتولى حمايتها والذب عنها ، وبعثنا له منشورا بذلك [٢] » .

ياللضعف الذى أصاب مصر فى ذلك الوقت ! يستنجد بها أمير من أمرائها فى ثغر من الثغور التابعة لها ، فيجاب - فى بساطة - بأن أمر هذا الثغر قد رد إلى الأتابك الذى يلى حكم دمشق ! ! .

فى ذلك الوقت كان شىء من نزاع قد دب بين أولاد السلطان ملكشاه السلجوقى ، ثم وقع الصلح بينهم ، وقسموا الملك عليهم بما أرضى كل واحد منهم ، ولم يبق إلا أن يبدأ هؤلاء الأبطال السلاجقة عملهم ، فكان أول مافعلوه من ذلك ، أن اجتمع منهم - كما ذكرنا صاحب الموصل ، وصاحب حلب ، وصاحب ماردين ، ونازلوا الصليبيين ، ونصر الله المسلمين ، وقتلوا من أعدائهم عشرة آلاف ، وكان ذلك عام ٤٩٧ هـ [٣] .

---

(١) نفس المصدر المتقدم ص ١٧٩ — ١٨٠

(٢) » » » ص ١٨١

(٣) » » » ص ١٨٨

وفى عام ثلاثة وخمس مئة اجتمع من ملوك السلاجقة صاحب إرمينية ، وصاحب الموصل ، وصاحب ماردين ؛ وبدءوا جهادهم (بالرها) ، وانتصروا يومئذ على الصليبيين الذين اجتمعوا هنالك من القدس وطرابلس وأنطاكية .

غير أن النصر لم يكن فى الموقعتين السالفتين نصرا حاسما ، فلم يستطع السلاجقة يومئذ استخلاص الرها ولا غيرها من أيدى الصليبيين .

وحدث بعد ذلك أن مات الأتابك ظهير الدين طغتكين حاكم دمشق ؛ فتولى أمرها من قبل السلطان السلجوقى أول بطل حقيقى من أبطال المسلمين المعروفين فى تاريخ هذه الحروب ، وهو الأتابك عماد الدين زنكى حاكم الموصل . وذلك فى عام ٥٠٧ هـ

فلم يزل هذا البطل العظيم منذ ولى أمر دمشق يجاهد الصليبيين حتى نجح فى طردهم من أول إمارتهم ، وهى إماره الرها ، فافتتحها ، وهدم أسوارها ، وأمّن من بها من النصارى على أنفسهم ، وأحسن إليهم ، وكان ذلك عام ٥٣٩ هـ [1] .

وبذلك طويت أول صفحة من صفحات الجهاد الذى كتب على أبطال المسلمين ضد الصليبيين . ومات هذا البطل الأول من أبطالهم ، وهو زنكى ، عام ٥٤١ هـ .

وكان له بنون ثلاثة وهم : سيف الدين غازى ، وقطب الدين مودود ، ونور الدين محمود المعروف بالشهيد ، والأخير هو بطل المرحلة الثانية من مراحل هذا الجهاد الصليبي المرير .

وقبل الانتقال إلى هذه المرحلة الثانية التى اقترنت باسم نور الدين ينبغى لنا أن ننظر إلى الشعر الذى قيل فى المرحلة الأولى التى أوجزنا فيها الحديث ، ونحن نعلم أن الشعر والتاريخ كانا يتعاونان دائما على تحميس الجند فى الميدان ، وعلى إثارة الرأى الإسلامى العام بين آن وآن ، وعلى أغراض أخرى تدور كلها حول معنى واحد ، هو معنى الاستشهاد فى سبيل الله .

---

(١) النجوم الزاهرة : (ج ٥ ص ٢٧٥)

الفصل الثانى

الشعر فى خدمة عماد الدين

كان أمام زنكى قوتان كبيرتان ، هما : قوة الروم الشرقيين المستقرين فى بيزنطة ، وقوة الفرنج الصليبيين الذى أغاروا على الشرق ، وكونوا فيه إماراتهم الصليبية كما رأينا .

وحدث أن استولى ملك الروم عنوة على حصن يقال له (حصن بزاغا) ، وذلك عام ٥٣٢ ﻫ . ثم قصد حماة وشيزر فى جموع كثيرة من الفرنج ، ألقت الرعب فى قلوب المسلمين الذين علموا أن الروم إذا ملكوا شيزر لم يبق لمسلم معهم مقام .

ولم يكن لزنكى بالفرنج قوة لكثرتهم ، فأخذ يدس إلى الإمبراطور (ملك الروم) من يخوفه على نفسه شر الفرنج الذين أتوا من أوربا ، كما أخذ يدس على الفرنج من يخوفهم على أنفسهم من الروم ، حتى اشتشعر كل منهما الخوف من الآخر ، فرحلوا إلى بلادهم ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وانتصر عليهم زنكى بهذه الحيلة ، ثم بغتهم وظفر بطائفة منهم ، وأقبل الشعراء على زنكى يتغنون بانتصاره عليهم . وكان من أولئك الشعراء رجل يقال له (أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموى) الذى قال[1] :

بعزمك أيها الملك العظيم تذلُّ لك الصعابُ وتستقيم
ألم تر أن كلبَ الروم لما تبين أنك الملكُ الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا كأن الجحفلَ الليلُ البهيم
فحين رميته بك فى خميس تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر فى المفاضة منك جيشا فأحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك فى العجاج شهابُ نور توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فوَلى وليس سوى الحمامِ له حميم
يؤملُ أن تجود بها عليه وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا وأنت بقطع دابرها زعيم

(١) كتاب الروضتين لأبى شامه ج ١ ص ٣٢

وكم جرعتها غُصص المنايا ... بيوم فيه يكتهل الفطيم

إلى آخر ماقال .

وهان أمر الفرنج بعد ذلك على زنكى ، فاستطاع أن يأخذ منهم حصنا فى طرابلس ، اسمه (حصن عرقه) ، ثم أخذ منهم قلعة (دارا) . وفتح بلدة (شهر زور) ، ومدينة (بعلبك) . ثم التقى زنكى بالفرنج عند حصن يقال له (حصن بارين) ، وصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله ، ثم نصر الله المسلمين نصرا . ووقع فى أسرهم بعض ملوك الفرنج ، وفيهم ملك البيت المقدس نفسه . كل ذلك والنجدة التى كان لا بد أن تأتى للفرنج من إخوانهم بالساحل لم تصلهم . فى أثناء الحصار الذى ضربه زنكى على حصون الفرنج بالشام ، استطاع أيضا أن يأخذ منهم (المعرّة) و (كفرطاب) . فطابت نفسه ، وقرت بذلك عينه ، وجلس لسماع الشعراء يهنئونه بما من الله عليه من النصر ، فقدم عليه الشاعر أبو عبدالله محمد بن نصر بن صفير المعروف (بابن القيسرانى) فأنشده قوله:(١)

حذار منا وأنى ينفع الحذر ... وهى الصوارم لا تبقى ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها ... صالوا فما أغمدوا نصلا ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم ... فى مأزق من سناه يبرق البصر
ولوا تضيق بهم ذرعا مسالكهم ... والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا ... يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة ... فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

---

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٣٤) .

وابن القيسرانى هو محمد بن نصر بن صفير بن داغر بن محمد بن خالد ، من ولد خالد بن الوليد الصحابى الجليل ، شرف الدين المخزومى الحلبى . كان شاعرا مجيدا ، وأديبا متفننا . وكان هو وابن منير الطرابلسى شاعرى الشام فى عهد الملك العادل بن زنكى . ولهما القصائد الطنانة فى مدحه ، قرأ الأدب على توفيق بن محمد الدمشقى وابن الخياط الشاعر ، وسمع بحلب من هاشم بن أحمد الحلبى ، وأبى طاهر الخطيب ، وسمع منه أبو سعد السمعانى والحافظ بن عساكر وأبو المعالى الخطيرى الأديب الشاعر وغيرهم .

وكان هو وابن منير يشبهان بالفرزدق وجرير ، بالمناقضات والوقائع التى جرت بينهما ، واتفق موتهما فى جمادى الآخرة . وفى ثانى عشر شعبان وصل إلى دمشق ابن القيسرانى باستدعاء الأمير مجير الدين . فمات بعد وصوله بعشرة أيام . وذلك فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٤٨ هـ وكانت ولادته سنة ٤٧٨ هـ ، وله شعر كثير مدون أجاد فى أكثره .

(معجم الادباء لياقوت ط أورباج ٧ ص ١١٢) .

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا أوطاردوا طردوا أوحاصروا احصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم حتى أتى ملك آراؤه غـــرر
والسيف مفترع أبكار أنفسهم ومن هنالك قيل الصارم الذكر

وكان فى طرابلس شاعر آخر بقى هو وابن القيسرانى — كما يقول القدماء — فرسى رهان ، وفارسى ميدان . وكان يقرن بعضهما ببعض كما يقرن الفرزدق بجرير فى العصر الأموى ، وحافظ وشوقى فى العصر الحديث . وهذا الشاعر الآخر هو أبو الحسن أحمد المعروف بابن منير أنشد يومئذ [١] قوله :

فدتك الملوك وأيامها ودام لنقضك إبرامها
وزلت لعيشك أقدامها وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم إليك القلوب هداها لما صح إسلامها
أيا محيي العدل لما نعاه أيامى البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمة أزال المحاريب أصنامها
جزرت جزيرتها بالسيو ف حتى تشاءمها شامها

وأراد الفرنج بعد ذلك أن يتداركوا أمرهم ، ويجبروا كسرهم ، فأتوا بجموعهم ينازلون مدينة حلب . ثم رأوا أن يرحلوا عنها خوفا من عماد الدين زنكى الذى فتح بعد ذلك آمد ، وحمص ، وديار بكر ، يريد بذلك كله أن يخدع صاحب الرها ، فيفهم هذا خطأ أن عماد الدين مشغول عنه بهذه الفتوح ، وأن فى استطاعة صاحب الرها أن يترك بلاده إلى حين . ثم ما كاد صاحب الرها يفعل ذلك حتى زحف على بلاده عماد الدين زنكى — كما يقول ابن الأثير :

بجيش جاش بالفرسان حتى ظننت البر بحرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر تخاطبنا بأفواه الرماح
وأروع جيشه ليل بهيم وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا وهيبته جناحا للجناح [٢]

---

(١) الروضتين : (جـ ١ ص ٣٥)

(٢) الروضتين ، نقلا عن ابن الأثير : (جـ ١ ص ٣٧) .

وتم لعماد الدين زنكى فتح هذه المدينة العظيمة ، وهو فتح توج به حياته ، وخلد به ذكره بعد وفاته . وكان ذلك الفتح عام ٥٣٩ هـ بعد حصار دام ثمانية عشر يوما .

يقول أبو شامة : « وهذه الرها من أشرف مدن النصارى ، وأعظمها محلا ، وهى إحدى الكراسى عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية ، ثم قسطنطينية ثم الرها » .

ولهذا كان فتح الرها من أعظم الفتوح الإسلامية التى طار ذكرها فى الآفاق ، وطرب المسلمون لسماعها فى جميع الأقطار ، وشهدها طائفة كبيرة من رجال الدين ، وذلك على عادة المحاربين فى تلك العصور من استصحاب الفقهاء والمتصوفة والصالحين معهم بقصد التبرك بهم ، والانتفاع بدعواتهم ، والتحمس بوجودهم بين الصفوف .

وقد أتاح هذا النصر فرصة عظيمة للشاعرين الكبيرين : ابن القيسرانى وابن المنير ، فصالا وجالا ، وأكثرا من قول الشعر . ومن ذلك ما قاله ابن القيسرانى [١] :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوق الأملاك إلا نجاده؟
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخرا بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وذاد قسيم الدولة [٢] ابن قسيمها ... عن الله مالا يستطاع ذياده
ليهن بنى الإيمان أمن ترفعت ... رواسيه عزا واطمأن مهاده
وفتح حديث فى السماع حديثه ... شهىٌّ إلى يوم المعاد معاده
لقد كان فى فتح الرهاء دلالة ... على غير ما عند العلوج اعتقاده
مدينة إفك منذ خمسين حجة ... يفل حديد الهند عنها حداده
وجامحة عز الملوك قيادها ... إلى أن ثناها من يعز قياده
فأضرمها نارين حربا وخدعة ... فما راع إلا سورها وانهداده
فصدت صدود البكر عند افتضاضها ... وهيهات كان السيف حتما سفاده

---

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٣٧) .

(٢) قسيم الدولة آق سنقر هو أصل البيت الأتابكى ، وكان من أصحاب السلطان ملكشاه السلجوقى وأترابه ، فولاه مدينة حلب وأعمالها ، ثم ملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها ، وظهرت له كفاية نادرة ، ثم مات عام ٤٨٧ هـ وخلفه ولده عماد الدين زنكى . ومات هذا فخلفه ولده نور الدين محمود .

فياظفرا عمَّ البلاد صلاحُـه   بمن كان قد عم البلاد فساده
فلا منبر إلا ترنح عوده   ولا مصحف إلا أنار مداده
إلى أين ياأسرى الضلالة بعده   لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر   يعـاند أسباب القضاء عناده
وقل لملوك الـكفر تسلم بعدها   ممالـكها إن البـلادَ بلاده
ولله عزم ماء سيحان ورده   وروضته قسطنطينية مستراده

أما ابن منير فقال يومئذ قصيدة منها [١] :

ومايوم كلب الروم إلا أخو الذى   أزَحت به مافى الجناحين من نبل
أتاك بمثل الروم حشدا وإنه   ليفضل أضعافاً كثيراً عن الرمل
فقاتلتـه بالله ثم بعزمـة   تصك قلوب العاشقين بما يسلى
توهم أن الشام مرعى وما درى   بأنك أمضى منه فى الشزر والسحل [٢]
فطار وخير المغنمين ذماؤه   إذا رد عنه مغنم المال والأهل

ومدح ابن منير عماد الدين زنكى كذلك بقصـيدة أخرى عقب فتح الرها ، ومنها قوله [٣] :

ملك أسهر عينـا لم تزل   همهُـا تشريد هم الراقدين
لا خلت من كحل النصر فقد   فقأت غيظاً عيون الحاسدين
كل يوم مر من أيامـه   فهو عيـد عائد للمسلمـين
لو جرى الإنصاف فى أوصافه   كان أولاها أمير المؤمنين
ومنها: والرها لو لم تكن إلا الرها   لـكفت قطعا لشك الممترين
همَّ قسـطنطين أن يفرعهـا   ومضى لم يحو منهـا قسط طين
ولـكم من ملك حاولهـا   فتحلى الحين وسما فى الجبين
هى أخت النجم إلا أنها   منه كالنجم لرأى المبصرين
ومنها : شام منه الشام برقا ودقه   مؤمن الخوف مخيف الآمنين

(١) نفس المصدر ص ٣٣
(٢) شزر الحبل فتله عن اليسار ، وغزل شزر على غير استواء والسحل الحبل الذى على قوة واحدة .
(٣) نفس المصدر المتقدم ص ٣٩

كم كنيس كنست قد رامها منه بعد الروح فى ظل السنين ؟
ومنار يجتلى صلبانه بين بيض تتبارى فى البرين
قرعته البيض حتى بدلت قرعة الناقوس تثويب الأذين
ومنها : قل لقوم غرهم إمهاله ستذوقون شذاه بعد حين
من يطع ينج ومن يمكر يكن من غداة عبرةً للآخرين
أقسم الجد بأن تبقى لكى تملك الأرض يمينا لا يمين
وتفيض العدل فى أقطارها منسيا مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارك كيف انتقلت كعبة محفوظة بالطائفين
كل يوم يتحلى جيدها من نظيم المدح بالدر الثمين
كلما أخلص فيها دعوة لك قالت ألسن الخلق : أمين

وقد أجاد ابن منير فى نونيته الأخيرة ، ووشحها بالبديع ، ولكنه لم يسرف إسرافاً يذهب بجمال المعانى التى مدح بها عماد الدين ، ولا بجمال الموسيقى التى اختارها لهذه القصيدة ولا بأس عندى هنا بالجناس فى قوله :

هم قسطنطين أن يفرعها ومضى لم يحو منها قسط طين

* * *

ثم مات عماد الدين زنكى ، ورثاه الشعراء ، ووصفه المؤرخون . فمن ذلك ما قاله أبو شامة [١] :

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا أن الحمام سيبتلى بحمام

« فأضحى وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، فأى نجم للإسلام قد أفل ، وأى ناصر للإيمان رحل ، وأى أسد افترس ، ولم تنجه قلة حصن ولا صهوة فرس ، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أدبها فى حفظه وحراسته ، فأتاه مبيد الأمم ومهينها فى الحدث والقدم ، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا ، وبعد وثير المضاجع فى التراب معفرا مقبورا . . الخ » . وأتى أبو شامة على شىء من سيرة عماد الدين ، فوصفه بالعدل والاستقامة والحكمة والزهد فى اقتناء الأملاك والنهى عن ذلك .

(١) نفس المصدر ص ٤٢

وكان من حسن سياسته ، أن الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئا . وكان عماد الدين زنكى يقول فى ذلك : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ، ويطمع العدو فيها ، زالت هيبتها ، وتطرق الخصوم إليها .

« وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما ، وبه كانت تضرب الأمثال . ويكفى فى معرفة ذلك أن ولايته أحدق بها المنازعون والأعداء من كل جانب : الخليفة المسترشد ، والسلطان مسعود ، وأصحاب إرمينية ، وركن الدولة ، وصاحب حصن كيفا ، وابن عمه صاحب ماردين ، ثم الفرنج ، وصاحب دمشق . وكان ينتصف منهم ، ويغزو كلا فى عقر داره ، ويفتح بلادهم ، ماعدا السلطان مسعودا فإنه كان لا يباشر قصده » .

ومن الذين رثوا عماد الدين زنكى شاعر يقال له (أبو الحكيم المغربى) فى قصيدة له ، منها [1] :

عين لا تذخرى المدامع وابكى — واستهلى دما على فقد زنكى
لم يهب شخصه الردى بعد أن كا — نت له هيبة على كل ترکی
إن دارا تمدنا بالرزايا — هى عندى أحق دارٍ بترك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد — وانضحوه بزعفران ومسك
كل خطب أتت به نوب الدهـ — ـر يسير فى جنب مصرع زنكى
بعد ما كاد أن تدين له الرو — م ويحوى البلاد من غير شك

ومن رثوا عماد الدين شاعر يقال له (الرئيس أبو يعلى التميمى) فى قصيدة له منها[2] :

كذاك عماد الدين زنكى تناثرت — سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر — وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
ومن صافنات الخيل كل مطهم — يروع الأعادى حليه وبراجمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه — وشامخ حصن لم تفته غنائمه
ودانت[3] ولاة الأرض فيها لأمره — وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه — وليس له فيها نظير يزاحمه

(١) نفس المصدر ص ٤٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٥ . (٣) فى الأصل : وكانت .

فلما تناهى ملكه وجــلا ... وراعت ولاة الأرض منها لوائمه
أتاه قضــاء لا ترد سهامه ... فلم تنجه أمواله ومغـــانمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلا ... صريعا تولى ذبحه فيه خادمه (١)
وقد كان فى الجيش اللهام مبيته ... ومن حوله أبطاله وصوارمه
وسمر العوالى حوله بأكفهم ... تذود الردى عنه وقد نام نائمه
وكم رام فى الأيام راحة سره ... وهمته تعـلو وتقوى شكائمه
وكم ثغر إسـلام حواه بسيفه ... من الروم لمـا أدركته مراحمه
فمن ذا الذى ينجو من الدهر سالما ... إذا ما أتاه الأمر والله حاتمه
ومن رام صفو فى الحياة فما يُـرى ... له صفوُ عيش والحمام يحاومه
فإياك لا تغبط مليكا بملكه ... ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه
وقل للذى يبنى الحصون لحفظه ... رويدك ما تبنى فدهرك هادمه !!

* * *

وهكذا انقضت المرحلة الأولى من مراحل الحروب الصليبيـة ، وهى مرحلة أكسبت المسلمين كسبا عظيما بافتتاح الرها ، ولو أن بطل هذه المرحلة ، وهو زنكى ، مُـد له فى عمره ، لسار على خطته التى اختطها لنفسه ، حتى أزاح الفرنج عن إمارات أخرى . ولـكنه مات وترك تنفيذ ذلك لولده نور الدين . وسنرى كيف استطاع هذا أن يحقق للمسلمين بعض آمالهم فى طرد الفرنج الصليبيين .

أما الأدب فقد ظفر بشاعرين عظيمين من شعراء الشام ؛ وهما ابن القيسرانى وابن منير ؛ كانا من طلائع الشعراء الصليبيين ، بل كانا ثمرة من ثمرات الجهاد الصليبى المرير ، وباكورة هذا الحقل الأدبى الجـديد : حقل الحروب الصليبية ؛ وهو الحقل الذى تعهده المسلمون جميعا بالنماء . حتى طلع علينا بزهور يانعة هى « الأدب الصليبى » .

وليس عندنا ما نلاحظه على شعر هذين الشاعرين إلى الآن ، إلا أنهما كانا — كما رأيت — يميلان نوعا ما إلى البديع ، وخاصة الجناس والطباق .

فمن ذلك ما قاله ابن القيسرانى :

وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا ... يخاف والـكفر لا عين ولا أثر

---

(١) إشارة إلى أن الذى قتله أحد مماليكه وهو نائم بقلعة جعبر ، وكانت آخر ما اشتغل زنكى بحصاره قبل موته .

وقوله :

فيا ظفرا عم البلاد صلاحه   بمن كان قد عم البلاد فساده

وفى البيتين السابقين طباق ، وإن كان ابن القيسرانى غير كلف به ولا بالبديع إلى الحد الذى وصل إليه ابن منير حيث يقول :

وزلت لعيشك أقدامها   وزال لبطشك إقدامها

وقوله :

جزرت جزيرتها بالسيو   ف حتى تشاءمها شامها

وقوله — كما قدمنا :

همَّ قسطنطين أن يفرعها   فمضى لم يحو منها قسط طين

وكل هذا من الجناس الذى كان ابن منير أحرص عليه من صاحبه ابن القيسرانى.

وقد كلف ابن القيسرانى أحيانا فى شعره بالتقسيم الموسيقى ، فى مثل قوله :

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا

أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا

وهو تقسيم يذكرنا بقول مسلم بن الوليد فى وصف بطل :

موفٍ على مهج واليوم ذو رهج

كأنه أجل يسعى إلى أمل

ولكن الفرق عظيم جدا بين البيتين السابقين ، فبيت مسلم بن الوليد أقوى وأجمل ، وذلك لخلوه من هذا العيب الذى لحق بيت ابن القيسرانى ، وهو تكرار المعنى الواحد أربع مرات بألفاظ مختلفة ، فالقتال والمحاربة والمطاردة والحصار كلها بمعنى واحد ؛ ومن ثم كان هذا البيت عيبا من عيوب ابن القيسرانى لا مزية له .

ولابن القيسرانى كذلك عناية أشد بالمعنى أو الفكرة فى مثل قوله :

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها   لقد ذل غاويكم وقل رشاده

رويدكم لا مانع من مظفر   يعاند أسباب القضاء عناده

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها   ممالكها إن البلاد بلاده

فالعناية بالمعنى هنا أشد من العناية بالبديع ، وإن كان المعنى الذى أورده فى البيت الثانى من هذه الأبيات الثلاثة، مما لا يتفق وذوق أهل السنة، وإنما يتفق وأذواق الشيعة .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من قصة حروب الصليبيين

مات زنكى وترك أولادا ثلاثة ، وهم : سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود ، وقطب الدين مودود . أما أولهم وهو غازى ، فخلف أباه على الموصل . وأما الثانى، وهو نور الدين محمود، فأشار عليه صديقه أسد الدين شيركوه، وهو عم صلاح الدين الأيوبى ، بالسير إلى مدينة حلب (لأن ملك الشام يحصل بمدينة حلب ، ومن ملكها استظهر على جميع بلاد الشرق [1]) . ففعل نور الدين ذلك تاركا الموصل لأخيه الأكبر غازى ، ولم ينازعه فيها .

وبموت هذا البطل الأول من أبطال المسلمين ، وهو عماد الدين زنكى ، عام ٥٤١ ﻫ أسدل الستار على الدور الأول الذى لعبته أول مدينة إسلامية على مسرح الحروب الصليبية ، وهى مدينة (الموصل) . وانتقلت المقاومة الإسلامية العنيفة ضد الصليبيين إلى مركز آخر من مراكز الإسلام ، وهو مدينة (حلب) ، التى ملكها نور الدين محمود ، المعروف كأبيه بالشهيد . وبقيت حلب مركزا لهذه المقاومة حتى ملك نور الدين (دمشق) عام ٥٤٩ ﻫ ، فانتقل مركز المقاومة إلى هذه المدينة الأخيرة . « وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق ، فكيف إذا أخذها وقوى بها ؟ [2] » .

واشتد خوف الفرنج من هذه الدولة الإسلامية الناشئة ، وهى دولة الأتابكة ، الذين منهم عماد الدين ونور الدين ، وبخاصة منذ استطاع زعيمهم (زنكى) الاستيلاء على الرها . ولذلك فإن أميرها جوسلين (وهو الاسم الذى أطلقه المسلمون على بلدوين) لم يكد يسمع بموت البطل عماد الدين ، حتى قصد بنفسه مدينة الرها ، بموافقة النصارى المقيمين بها ، فدخلها واستولى عليها ، وقتل من فيها من المسلمين ، وبلغ ذلك نور الدين

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ٤٧ .

(٢) نفس المصدر جـ ١ ص ٩٥ .

بحلب ، ولم يكن قد استقر بها أكثر من أسبوع ، فنهض فى عسكره ، وهجم على المدينة، وأزاح الأمير الصليبي عنها ، وانكفأ المسلمون بالغنائم ، ورجعوا إلى حلب قبل أن تصل إليهم النجدة من غازى صاحب الموصل .

وازداد انزعاج الفرنج من الأتابكة ، وخوفهم من قوتهم وشجاعتهم ، فبعثوا يستنجدون بأخوانهم فى أوربة ، ليعمل هؤلاء على تجهيز حملة صليبية أخرى ، لأنه مادام المسلمون قد استطاعوا أن يستردوا الرها ، فليس بعيدا عليهم أن يستردوا الإمارات اللاتينية الباقية .

وما أسرع ما استجاب الأوربيون لإخوانهم المسيحيين فى الشرق ، وأخذوا يعدون العدة لهذه الحملة الثانية من حملات الصليب ؛ وكان من قوادهم فى هذه المرة ، ملك الألمان ، والفونسو صاحب صقليه ؛ وكان العرب يطلقون على هذا الأخير اسم (ألفنش) . وأقبل هؤلاء الصليبيون فى العدد الجم والجموع التى يهول منظرها « بحيث قيل إن عدتهم بلغت ألف ألف من الرجالة والفرسان ، وقيل أكثر من ذلك . وغلبوا على أعمال قسطنطينية ، واحتاج ملكها إلى الدخول فى مداراتهم ومسالمتهم ، والنزول على أحكامهم . وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم ، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم والأطراف الإسلامية القريبة منهم فى التأهب للمدافعة . . . وواصلوا شن الغارات على أطرافهم ، واستحر القتال فيهم والفتك بهم ، إلى أن هلك منهم العدد الكثير ، وحل بهم من عدم القوت والميرة وغلاء السعر ، ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض . ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدائهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة للهجرة (١١٤٨م) ، بحيث سكنت النفوس بعض السكون » (١) ؛ وهكذا شاء القدر ألا تصل هذه الحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الإسلام كاملة أو كالكاملة . ومن يدرى لو أنها وصلت بقوتها يومئذ ماذا كانت نتيجة الصدام الأول بينها وبين جنود نور الدين ، ذلك الشاب الذى لم يمض على استقراره بحلب إلا بضعة أسابيع . لا شك أن هذه الحملة الصليبية الثانية كان مصيرها الفوز فى إعادة الرها ، وربما فى تجديد إمارات صليبية غيرها . ولكن فلول هذه الحملة ما كادت تصل إلى ساحل الشام، وتنجح فى الاستيلاء على صور،

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٥٢ .

ويلتقى أفرادها بفرنج الساحل ، ويجتمع الجميع بالقدس ، ويعود من عاد منهم إلى بلاده بعد قضاء مناسك الحج ، حتى اجتمع رأيهم ، بإشارة الأمبراطور الألمـــانى ، على قصد دمشق . وكان صاحب الأمر فيها رجلا من مماليك طغتكين، اسمه (معين الدين أنر) فاستعد لمحاربتهم ، واستظهر الفرنج على المسلمين يومئذ بوفرة عددهم ، واستشهد فى ذلك اليوم فقيهان من أكبر فقهاء الشام ؛ وهما الإمام يوسف الفندلاوى المالكى ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول ، إذ ما كاد هذان الفقيهان يعلمـان بقدوم الصليبيين فى جموعهم، حتى تقدما إلى معين الدين، فسلما عليه، واستأذناه فى الجهاد ، فقال لهما معين الدين: أنتما معذوران ونحن نـكفيكما ، وليس بكما على القتال قوة . فقالا له : قد بعنا واشترى إشارة إلى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم — الآية » . ثم قاتلا حتى قتلا فى مكان واحد ، وأحدث استشهادهما فى نفوس المسلمين شجاعة ، وأذكى فى قلوبهم حمية ، فهجموا على الصليبيين هجمة صادقة، وانتصروا عليهم انتصارا باهرا ، وألحوا فى مضايقتهم ، حتى أتت النجدة من سيف الدين غازى، فواصلوا حربهم، واضطروا الفرنج إلى الرحيل عن دمشق .

ولـكن لِمَ لَمْ يستنجد معين الدين يومئذ بنور الدين ؟ إنه لم يفعل ذلك خوفا من نور الدين ، لأن هذا البطل الـكبير كان يترصد لدمشق ، ويتربص الفرصة المواتية له لأخذها ؛ فهو يعلم حق العلم أن من ملك دمشق فقد ملك الشام ، ومن ملك الشام أصبح درا على طرد الفرنج .

من أجل ذلك اشتغل نور الدين يومئذ بأخذ حصون أخرى كانت للفرنج . فأخذ من هذه الحصون حصن فامية ، ثم حصن بصرى ، ثم مدينة آنب . والظاهر أن انتصاره الأخير على الفرنج فى آنب كان رائعا ، لأنه أطلق ألسنة الشعراء فى مدحه ، وأطمعه فى دمشق ، وقوى عنده الأمل فى أخذها ، فطفق يخطب ودها ، فتمنعت عليه مدة من الزمان، ملك فى أثنائها حصونا أخرى، من أهما حصن عزاز ، وأصبح بهذا قريبا كل القرب من إمارة الرها وصاحبها جوسلين (بلدوين) . فخاف هذا على نفسه وملـكه ، وجمع جموعا كثيرة من الفرنج ، ولقى بهم نور الدين ، وهزمه فى بداية الأمر ، ثم احتال نور الدين بعد ذلك حتى أخذ جوسلين أسيرا ، (وكان أسره من أعظم الفتوح

على المسلمين)، وأصيبت النصرانية كلها بهذا الأسر ، وعظمت المصيبة عليهم بهذا الفقد ، وكان ملكا كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ، ولا يفي بعهد . طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر)(١)

ولما تم لنور الدين أسر بلدوين ، تيسر له بعد ذلك فتح كثير من قلاع الفرنج وحصونهم . وعاد إلى التفكير مرة أخرى فى دمشق ، فلم يزل بها وبصاحبها حتى غلبه عليها . وكان الذى حمله على التعجيل بها ، والتلهف الشديد على أخذها ، أن الفرنج تمكنوا يومئذ من أخذ مدينة هامة من مدن فلسطين ، وحصن كبير جدا من حصونه ؛ وهى مدينة عسقلان ، وقد عجز الأسطول المصرى نفسه عن استنقاذها ، وكان فى هذا الثغر من العدد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يمكن حصره . ومن ثم لم يجد نور الدين بدا من الهجوم على دمشق وأخذها قبل أن يأخذها الفرنج . وتم له ذلك عام ٥٤٩ هـ ، وكان فتحا عظيما سجله الشعراء ورجال الأدب .

ومنذ ذلك الوقت اشتد خوف الفرنج من نور الدين ، فوهنوا واستكانوا حين صار جميع الشام فى قبضة يده . ثم غالبوا يأسهم ، وأجمعوا رأيهم على مباغتته وهو مشتغل بفتح حصن منيع يقال له (حصن الأكراد) . فهزموا المسلمين ، ووصلوا إلى خيمة نور الدين ، وكادوا يظفرون به لولا عناية من الله . فحلف الرجل ليحاربنهم فى نفس البقعة التى كادوا يقتلونه بها ، ولامه المسلمون على ذلك ، فأسكتهم ووبخهم ، وحلف لا يستظل بجدار حتى يأخذ بثأر الإسلام . ثم تحرك لأخذ حمص ، وتبعه الفرنج إليها ، ولكنهم لما وجدوه سبقهم إلى هذه المدينة رجعوا خائفين منه .

وأخذ نور الدين بعد ذلك يفكر جديا فى موقفه السياسى الدقيق حيال الصليبيين ، ونظر فإذا الإسلام كله ثلاث قوى يجب أن يقع عليها عبء قتال الفرنج، وطردهم من الأراضى الإسلامية . وهذه القوى الثلاث هى : قوة الخلافة العباسية فى بغداد ، وقوة الخلافة الفاطمية فى مصر ، وقوته هو فى الشام .

فأما الخلافة العباسية فقد أعلنت — كما رأينا — عجزها عن مدافعة القوم .

وأما الخلافة المصرية، وكانت هى الأخرى — كما رأينا — من الضعف بحيث لم

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٧٢ .

تعد قادرة على شىء ، بل إن من الصليبيين من أخذوا يفكرون فى امتلاك الديار المصرية للتقوى بها على الدولة النورية ، أو لتكون خط الدفاع الأقوى لمجموعة الإمارات اللاتينية .

وإذن فعلى نور الدين أولا أن يسقط من حسابه الخلافة العباسية ، وعليه بعد ذلك ألا يعتمد كثيرا على الخلافة الفاطمية . لا ، بل عليه أكثر من ذلك أن يسبق الفرنج أنفسهم إلى امتلاك الديار المصرية ، لأن من ملكها فقد ملك ناصية الأمور فى ميدان الحروب الصليبية .

والعجيب أن مصر هى التى ألحت على هذين الغريمين المترصدين لها للتدخل فى شئونها . ذلك أن مصر تعرضت فى هذه الفترة العصيبة لمحنة الوزراء ، ونعنى بها تلك المحنة التى أخذ فيها هؤلاء ينافس بعضهم بعضا فى الحصول على الوزارة ، يستعين كل واحد منهم تارة بنور الدين وأخرى بالصليبيين . وسرعان ما انتقل الميدان الرئيس للقتال بين المسلمين والصليبيين إلى مصر .

وفى هذا الميدان المصرى التقت جيوش الفريقين ، وكانت الحرب سجالا بين الجيشين ، حتى أذن الله بالنصر لجيش نور الدين ؛ وكانت قيادته إذ ذاك لرجل عرف بإخلاصه وإخلاص أسرته للبيت النورى العظيم ؛ وهذا الرجل هو أسد الدين شيركوه : عم صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وغاظ الفرنج هذا النصر ، فأخذوا ينقضون على مصر ، ووصلوا فى هجومهم إلى بلبيس ، فخاف الوزير المصرى (شاور) من نتائج هذا الفتح ، فأضرم نارا عظيمة فى مدينه الفسطاط ، حتى تكون النار حائلا بينه وبين هذا العدو . وفى ذلك الوقت بعث الخليفة المصرى العاضد بالكتب تلو الكتب إلى نور الدين ، ووضع فى بعضها خصلا من شعور نسائه ، مبالغة منه فى التوسل والضراعة . إذ ذاك لم ير نور الدين بدا من أن يبعث إلى مصر مرة ثانية أو ثالثة بقائده العظيم أسد الدين شيركوه ، ومعه كذلك ابن أخيه الشاب صلاح الدين الأيوبى . فوصلا إلى مصر ، وتمكنا فيها من طرد الفرنج ، ثم بدا لهما بعد ذلك أن يقوما بقتل هذا الوزير المصرى الذى جر على بلاده كل هذا الويل ؛ وهو هنا شاور . فتم لهما ما أراداه ، وما أسرع ما تقدم الخليفة العاضد بعد ذلك إلى أسد الدين شيركوه بخلعة الوزارة ، فلبسها شيركوه ، ولكن الأجل لم يمهله فى

وزارته أكثر من شهرين وبضعة أيام . فمات وخلفه فى الوزارة المصرية ابن أخيه صلاح الدين ، وذلك فى خطوب كثيرة نستطيع أن نقرأها فى غير هذا البحث (١) .

ومهما يكن من شيء فقد نجح نور الدين فى امتلاك مصر قبل أن يملكها الفرنج ، وأصبحت له قوة أزعجتهم ، وأضاعت كثيرا من أملهم فى البقاء بالشرق . وفيما بين الحملات الثلاث لشيركوه على مصر ، كان نور الدين يشغل نفسه بأخذ حصون الفرنج حصنا حصنا ، وكان قصده من ذلك عدا الظفر بهذه الحصون — أن يشغل بال الفرنج ، فلا يتفرغوا لمصر ، ولا يحصروا فيها هممهم . وبالفعل استطاع نور الدين أن يظفر من حصون الفرنج فى هذه الفترة بحصن (بانياس) ، وحصن (منيطرة) ، وحصن (جعبر) ، وحمص والرحبة الخ .

وهكذا دان الشام كله لملك واحد، هو نور الدين ، ودانت مصر كلها لرجل واحد، هو صلاح الدين التابع لنور الدين ، وبينهما منطقة صغيرة ، هى منطقة الكرك بيد رجل من الصليبيين اسمه إرناط Renauld .

غير أنه حدث فى ذلك الوقت أن دبت الجفوة بين هذين البطلين من أبطال الإسلام، وهما صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام . وأخذ كل واحد منهما يخاف صاحبه . ففكر نور الدين من جانبه فى الأمر ، فرأى أنه أخطأ فى إنفاذ أسد الدين شيركوه إلى مصر بعد ما علم من شدة حرصه وحرص أسرته عليها . وفكر صلاح الدين من جانبه كذلك فى الأمر فرأى أن تظل منطقة الكرك فاصلا بينه وبين سيده نور الدين بدمشق. وبالفعل كان نور الدين يرسل إلى صلاح الدين فى طلب العساكر المصرية ، فيعتذر له هذا بعدم قدرته على ذلك ، بسبب الفتن الداخلية ، وذلك منذ موت العاضد الفاطمى وزوال الخلافة المصرية .

ولندع هذا الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين فما بنا سرده أو النظر إليه . ولننظر بم أجاب الفرنج عن هذه الحركات التى انتهت بأخذ مصر ؟

لقد كاتبوا إخوانهم بأوربا وصقلية، وأخبروهم بظفر نورالدين بمصر ، وقالوا لهم

---

(١) اقرأ فى ذلك كتاب (صلاح الدين) للمؤلف ، بالفصل الذى عنوانه (وزارة) ص١٩ والفصل الذى عنوانه (مؤامرة) ص ٢٤ .

إنهم أصبحوا يخافون الخوف كله على القدس ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة. واجتمع رأيهم إذ ذاك على النزول بدمياط ؛ ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا لهم يملكون به الديار المصرية .

هنالك استنجد صلاح الدين بسيده نور الدين الذى كان يشغل بال الفرنج بالإغارة على بلادهم ، واستباحة حصونهم ، حتى لقد وصلت غاراته إلى ما لم تكن تصل إليه من قبل ، لخلو بلاد الفرنج ممن يحميها فى ذلك الوقت . فلما رأى الفرنج ذلك رجعوا سراعا إلى مصر . وقال فيهم المسلمون يومئذ: «ذهبت النعامة تطلب قرنين،فعادت بلا أذنين».

حدث بعد ذلك أن مات العاضد الفاطمى فى مصر ، واستطاع صلاح الدين أن يزيل الخلافة الفاطمية من هذه البلاد . ثم وقعت الجفوة بينه وبين نور الدين ، فحمل ذلك صلاح الدين على العدول عن محاربة إرناط صاحب الكرك ، معتقدا أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ مصر (١) . إذ ذاك فقط عزم نور الدين على قصد الديار المصرية وإخراج صلاح الدين منها، ولكن الأجل المحتوم عاجل هذا البطل العظيم ، فمات وبنفسه من تابعه ما بها .

قال التاريخ : « ولو علم نور الدين ماذا ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه ؛ فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ، رحمهما الله تعالى » (٢) .

* * *

مات نور الدين فانظر إلى هذه الصفحة النقية الرائعة التى كتبها له التاريخ : قال ابن الأثير : وكان أسمر طويل القامة، ليس له لحية إلا فى حنكه، وكان واسع الجبهة والعينين، حسن الصورة . ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمه الله ، مع ما جمع الله له من العقل المتين، والإقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين . وقد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام إلى يومنا هذا ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه، فكان

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٨ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

فكان رحمه الله يصلى كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب . وكان عارفا بالفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، ليس عنده تعصب ، بل الإنصاف سجيته فى كل شىء . وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للملوك سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المآكل والمشرب والملبس وغير ذلك .....

وأما عدله ، فإنه كان أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكما . فمن عدله أنه لم يترك فى بلد من بلاده جزية ولا مكسا ولا عشرا ، بل أطلقها رحمه الله جميعها فى بلاد الشام والجزيرة والموصل وديار مصر وغيرها ... وهذا لم تتسع له نفس غيره . وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوى والضعيف عنده فى الحق سواء . وكان يسمع شكوى المظلوم ، ولا يكل ذلك إلى صاحب أو إلى أمير . ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة ، ويقف عند أحكامها ، ويقول : نحن مسخرون لها ، نمضى أوامرها .

فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة ، فرأى إنسانا يحدث آخر ، ويومىء إليه بيده ، ويقول لصاحبه : أريد أن يحضر القاضى هذا الأمير ليحاكمه على شىء أخذه منى . فلما علم نور الدين ذلك ألقى (الجوكان) من يده ، وخرج من ميدان اللعب ، وسار بنفسه إلى القاضى — وهو يومئذ كمال الدين الشهرزورى — وقال له : قد جئتك محاكما ، فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى ؛ ووقف بين يدى القاضى ، وساوى خصمه به . فلم يثبت عليه حق . فقال نور الدين للقاضى ولمن حضر : هل ثبت له عندى حق ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا أنى قد وهبت له هذا الشىء ، الذى حاكمنى عليه ، وهو له دونى ، وإن كنت أعلم أنه لا حق له عندى ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له .

قال ابن الأثير : وهذه درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية المنقادة إلى الحق .

ثم قال ابن الأثير : وحكى لى من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه ، فقيل له : إن القاضى كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا . فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال فى هذه الجهة شىء . وأمر برده

وإعادته إلى كمال الدين ، ليرده على صاحبه . فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين ،فرده كمال الدين إلى الخزانة ، وقال : إذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عنى إنه له . فدخل نور الخزانة مرة أخرى ، فرآه، فأنكر على النواب ذلك، وقال : ألم أقل لكم : يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين . فرده إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتى دقيقة لا تطيق حمله ، والمخاصمة علنية بين يدى الله تعالى . يعاد قولا واحدا !

ومن عدله أنه أول من بنى دارا للعدل فى دمشق . وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق ، ومقام أمرائه معه ، وفيهم أسد الدين شيركوه ، وهو أكبر أمير معه ، وقد عظم شأنه ، وعلا مكانه ، حتى صار كأنه شريك فى الملك ، واقتنى الأمراء والأملاك ، وكثر تعدى كل واحد منهم على من يجاوره ، كثرت الشكاوى إلى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين . فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل . فلما سمع أسد الدين بذلك ، أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببى وحدى . والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه ؛ فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة فى ملك، فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأى شىء ممكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدى . فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا فى الطلب . فقال : خروج أملاكى من يدى أسهل على من أن يرانى نور الدين بعين ظالم ، أو يساوى بينى وبين أحد العامة فى الحقوق . وبقى الحال على ذلك مدة، فقال نور الدين للقاضى، ما أرى أحدا يشكو من أسد الدين ؟ فعرفه الحال ، فسجد لله شكرا ، وقال : الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

ونقول : تلك درجة فى العدل لم نسمع بها إلا فى تاريخ عمر رضى الله عنه ، ومن أجلها كان نور الدين خليقا بزعامة المسلمين فى عصر سيطر على نفوسهم مثل هذا الروح الدينى العالى .

وقال لنور الدين أصحابه يوما : إن لك فى بلادك إدرارات كثيرة، وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل . فغضب من

هذا وقال : والله إنى لأرجو بأولئك النصر ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ؛ كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لاتخطىء ، وأصرفها إلى من يقاتل عنى إذا رآنى بسهام قد تخطىء وتصيب . ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المـال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ فسكتوا .

ونقول ذلك هو الروح المعنوىّ الذى كانت مسيطرا على حياة الشرق فى العصور الوسطى . وهو الروح الذى صدر الناس عنه ، شعبا وحكومة . ومعنى ذلك أن الناس لم يلقوا بأنفسهم فى أتون هذه الحرب من أجل المال والثراء ، ولا من أجل السيطرة والسلطان . ولـكن من أجل الدين والوطن، وحمايتهما من العدوان الخارجى . بل معنى ذلك أيضا أن الزهد والتصوف وأخذ النفس بهذه الحياة الروحية القوية ، كان من بين آلات الحرب فى ذلك الوقت ، لأنه كان ينشر فى الناس روحا شبيها بالروح الذى نشره القرآن الـكريم فى أول عهد المسلمين بالحروب ، يوم نزل عليهم مثل قوله تعالى :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . الآية » ، فاندفع المسلمون فى هذه الحروب، وكتب لهم النصر بسبب ذلك .

وحين هزم نور الدين الفرنج فى (حصن الأكراد) ، أقسم ليأخذن بثأر الإسلام ، ودعا فى البلاد الإسلامية بالنفير العام. فوصلت الدعوة إلى الأمير (فخر الدين قرأرسلان)، فسأله خواصه : على أى شىء عزمت ؟ فقال : على القعود (فإن نور الدين قد تقشف من كثرة الصوم والصلاة ، فيلقى نفسه والناس معه فى المهالك . فكلهم وافقه على ذلك . فلما كان الغد أمر بالنداء فى العسكر بالتجهز للقتال . فقال له أولئك : ما عدا ممـا بدا ؟ فارقناك بالأمس على حال ، ونرى الآن ضدها .

فقال : إن نور الدين قد سلك معى طريقا إن لم أتخذه خرج أهل بلادى عن طاعتى ، وأخرجوا البلاد عن يدى، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقى المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين الغزاة . فقـد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحـابه ، وهم يقرءون كتب نور الدين ويبـكون ويلعنون ويدعون على ، فلابد من إجابة دعوته [1] .

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ١٣٣ .

وكسر نور الدين أعداءه من الروم والأرمن والفرنج عند (تل حارم) ، وكانت عدتهم ثلاثين ألفا ، ووقع البيمند (بوهمند) صاحب أنطاكية أسير في يده ، وباع نفسه بمال عظيم أنفقه نور الدين في جهاد الصليبيين . وحين التقى الجمعان ، وتحقق النصر للمسلمين ، إذ ذاك رؤى نور الدين تحت تل حارم ساجدا لربه عز وجل ، وقد مرغ وجهه وتضرع ، وقال: يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك . إيش فضول محمود في الوسط ؟ وروى أنه قال إذ ذاك أيضا : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا ، ومن هو محمود الكلب حتى ينصر [١] ؟ !

وحكى أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : اعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة . فقال: يا رسول الله ، ربما لا يصدقني ، فاذكر لي علامة يعرفها . فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت : يارب انصر دينك ولا تنصر محمودا ، ومن هو محمود الكلب حتى ينصر ؟ فانتبه الإمام من نومه ، ونزل إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس ، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح. قال الإمام :فتعرضت له، فسألني عن أمري ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة ، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين : اذكر العلامة كلها ، وألح في ذلك . فقلتها ، فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا . فأرخت تلك الليلة ، وجاء الخبر برحيل الفرنج فيها [٢] .

وبلغ من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أن قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية . فجاء في جملة الحديث حديث مسلسل بالتبسم . فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم، لتتم السلسلة، على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك، وقال: إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج !

وثبت في سيرة نور الدين الشهيد أنه روى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه . وذهب ابن الأثير إلى أن نور الدين هو أول من بنى دارا

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٣ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨١ .

للحديث فى دمشق ، ووقف عليها وعلى من بها وقوفا كثيرة .

تلك أطراف يسيرة من سيرة نور الدين الشهيد ، ذلك القائد الإسلامى الكبير ، بل ذلك الزاهد الربانى العظيم ، الذى كان كثير التوسل بربه فى الحرب ، حتى لكأن هذا التوسل فى ذاته وسيلة من وسائل النصر على العدو ، وطريق من طرق الهجوم عليه ؛ وما أصدق ما قيل فى وصف هذا الرجل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى المحراب !

أجل — ما أجمل البطل المحراب ، وهو يصلى قبل الموقعة وبعدها فى المحراب ! ذلك بأنه إنما يجاهد لغاية دينية خالصة ، وغرض معنوى بحت ، لا يرضيه النصر إلا إذا عاد بالفائدة العظمى على الإسلام والمسلمين ، وأظهرهم على أعدائهم من الصليبيين .

الفصل الرابع

الشعر فى خدمة نور الدين

قيل إن نور الدين كان قليل الابتهاج للشعر ، زيادة فى تواضعه ، على طريقة عمر ابن عبد العزيز . ومصدر ذلك أنه كان لا يبذل أموال المسلمين إلا فى الجهاد . أى أنه كان جوادا حيث يحب الله ، وبخيلا حيث يحب الناس ، وأكثر الناس كما قال تعالى : « فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » ، ومعنى ذلك أن نور الدين كان لا يشغل قلبه إلا بأمر واحد ، هو جهاد الفرنج . وكان لا يرى لإنفاق مال الدولة غير وجه واحد ، هو محاربة الصليب .

وعاش فى زمانه رجل اسمه (الوهرانى) واشتهر بأدبه الساخر ، وتهكمه المرير . وكتب عدة رسائل فى السخرية برجالات الإسلام فى عصره . وذكر نور الدين فى إحدى هذه الرسائل متهكما به على عادته ، فقال : « هو سهم للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك مجاهد ، تساعده الأفلاك ، وتعضده الجيوش والأملاك . غير أنه عرف بالمرعى الوبيل ، لابن السبيل ، وبالمحل الجديب ، للشاعر الأديب ، فما يرزَّى ، ولا يعزى ، ولا الشاعر عنده من نعمة تجزى . وإياه عنى أسامة بن منقذ بقوله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا ... له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ... من المعاصى وفيها الجوع والعطش (١)

وانظر إلى هذا البيت الأخير كيف تضمن نكتة بارعة وصفت أيام نور الدين بل وصفت حياته كلها ، وما لهذه الحياة من طابع الصرامة والجد والعنف على النفس ، ومع هذا فما نظن أن نور الدين كان كما قال الوهرانى أو أسامة إلى هذا الحد من البخل أو الحرص على مال المسلمين ، بحيث لا ينفق منه شىء فى غير الحرب . ولو كان ذلك ما قامت للشعر دولة إلى جانبه ، ولا ازدحم الشعراء على بابه يسجلون انتصاراته كلها احتسابا لله أولا ، وطمعا فى جائزة الأمير بعد ذلك .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٩ . وصدق جوستاف لوبون حيث يقول :
« نحن جميعا نحب العدل ولكن لا نحب العادلين » .

نعم ؛ لم يكن نور الدين بخيلا على الشعراء ، ولكنه كان ، فيما يظهر ، لا يعطيهم إلا بقدر ، ولولا ذلك ما أجمع الشعراء فى عصره على مدحه بالكرم والجود ؛ حتى أسامة بن منقذ نفسه ، فقد قال فى مدح نور الدين :

فى كل عام للبرية ليلة ... فيها تشب النار للإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ... ناران : نار قرى ، ونار جهاد
أبدا يصرفها نداه وبأسه ... فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له فى كل جيد منة ... أبهى من الأطواق فى الأجياد
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى ... وأمدهم كفا ببذل تلاد
يعطى الجزيل من النوال تبرعا ... من غير مسألة ولا ميعاد [1]

وسنرى كيف كان نور الدين محببا من الشعراء ، وإلى أى حد أطلقوا فيه مدائحهم التى شحذوا فيها القرائح ، فجادت عليهم بذلك الشعر [2] .

وقد أحصينا الأشعار التى مدح بها نور الدين ، واقتبسها أبو شامة فى كتابه الروضتين ، وانتقاها من كلام الشعراء المادحين ، فقاربت عدتها نحوا من ألف بيت من الشعر فإذا كان ذلك هو ما اختاره أبو شامة ، وانتقاه من شعر طائفة خاصة من شعراء نور الدين ، فكم يكون عدد الأشعار التى قيلت فى مدحه كلها ؟ وكم يكون عدد القصائد التى قيلت فى مدحه أيضا ، مما ذكره أبو شامة ومما لم يذكره .

أجل ؛ ربما كان الرجل قليل الابتهاج بالشعر تواضعا منه ، وتشبها بسيرة الخلفاء

---

(١) الروضتين : (جـ١ ص ٢٢٩) .

(٢) يحس القارىء للأدب والتاريخ فى ذلك العصر ، أنه كان هناك شعور عام عند الشعراء بأن الأتراك كانوا أقل كرما وجودا على الشعراء ، من الفواطم ؛ يدلنا على ذلك ماوقع لصلاح الدين الأيوبى مع شاعر من الشعراء الذين مدحوا الدولة الفاطمية ؛ وهو المهذب بن أسعد الموصلى . فقد وفد على صلاح الدين وهو يحاصر دمشق ، فمدحه بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى الكرى ... إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

فقال القاضى الفاضل لصلاح الدين : هو الذى يقول من قصيدة مدح بها الصالح بن رزيك :

من أرتجى يا كريم الدهر تنعشنى ... جدواه إن خاب سعيي فى رجائيكا
أأمدح الترك أبغى الفضل بينهم ... والشعر مازال عند الترك متروكا ؟

فعجل جائزته لتكذيب قوله ، وتصديق ظنه . فشرفه السلطان ، وجمع له بين الخلعة والضيعة . (الروضتين جـ ١ ص ٢٤٠) .

الراشدين وسيرة عمر بن عبد العزيز ، وغيرهم ممن لم يأخذهم بهرج القول ، ولم يسرفوا من أجله فى الأخذ من بيت المال . ولكن الشعر كان يتدفق تدفقا من ألسنة الشعراء فى دولة نور الدين ، وكان يتجمع كله حول هذا البطل العظيم ، فيسمع له فى غير زهو ولا خيلاء ، ويتخذ منه وسيلة من وسائل الدعاية التى لابد منها لمحاربة الأعداء .

وأما الشعراء الذين ظهروا فى الدولة النورية ، فكان أشهرهم فى ذلك الوقت خمسة نفر : ثلاثة منهم ورثهم نور الدين عن أبيه عماد الدين زنكى ، وهم :

أبو المجد المسلم بن الخضر بن قسيم الحموى .

وابن القيسرانى أبو عبدالله محمد بن نصر (١) .

وابن منير الطرابلسى أبو الحسن أحمد (٢) .

والشاعران الأخيران هما فارسا هـــذه الحلبة ، وقد بقيا على ذلك حتى هلكا ، وخلفهما الشاعر الرابع ، وهو :

ابن أسعد الموصلى — الذى ظل يعمل فى خدمة نور الدين ، حتى ظهر فى دولته الشاعر الخامس والأخير : عماد الدين الأصفهانى .

وإلى جانب هؤلاء الخمسة ظهر شعراء آخرون ، أسهموا بشعرهم فى جهاد المسلمين ضد الصليبيين ، ومنهم :

شاعر يقال له (الفرقلة) .

وآخر هو الأمير أسامة بن منقذ صاحب حصن شيزر .

وهذا كله فى الشام . أما فى مصر فقد مدح نور الدين . وشجعه على جهاده ضد الصليبيين شعراء ، منهم (المهذب بن الزبير) ، ومنهم وزير الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وقد دارت بينه وبين أسامة بن منقـــذ رسائل شعرية طويلة ، مدح فيها الرجلان نور الدين ، وسنأتى فى هذا الفصل بشىء منها .

ولننظر أولا إلى ابن القيسرانى يقول فى مدح نور الدين محمود :

ذو الجهادين من عدو ونفس ... فهو طول الحياة فى هيجاء
قد هديت الملوك للعدل لما ... سرت فى الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت فى الناس حتى ... لقسمت التقى على الأتقياء

---

(١) ، (٢) الروضتين : (جـ ١ ص ١٨) .

أنت حينا تقاس بالأسد الور د وحينا تعد فى الأولياء
صاغك الله من صميم المعالى حيث لا نسبة سوى اللألاء
أنت إلا تكن نبيا فما فا تك إلا خلائق الأنبياء !!
رأفة فى شهامة فى عفاف فى اقتدار وسطوة فى حياء
وإذا ما الملوك خافت سهام الـذم زرت عليك درع الثناء

تلك صورة البطل نور الدين فى أذهان المسلمين ، الذين كانوا يؤمنون إيمانا صادقا ببطولته ، وعظم حظه من القوى المادية والروحية ، وتلك طبقة عالية من الشعر ، توصف بالجزالة وحسن اختيار الألفاظ ، والملاءمة التامة بينها وبين الممدوح ، بحيث لا يوصف بها غيره . وهكذا وجد الشعراء فى سيرة نور الدين الشهيد مادة غزيرة ، أعانتهم على القول ، ولم يحتاجوا معها إلى الزخرف ، واختراع المعانى البعيدة ، أو اختلاق الصفات المديدة ، فانطلقوا ، كما سنرى ، يقولون ويبدعون ، وتركوا لنا ثروة أدبية خليقة بالإعجاب والتقدير :

راض الخطوب الصم بعد جماحها وألان من قلب الزمان القاسى
وأعاد نور الحق فى مشكاته وأقام وزن العدل بالقسطاس
وأذل سلطان النفاق بعزة خضعت لها الآساد فى الأخياس
ولو ان فيض النيل فائض نيله لم تفتقر مصر إلى مقياس(١)

ذلك مثل آخر من أمثلة الشعر الذى مدح به ابن القيسرانى نور الدين ، وانظر إلى منافسه ابن منير يمدح نور الدين كذلك . فيقول :

محمود المرنى على أسلافه إن زاد فى حسب الحسيب نجار
عفى جهادك رسم كل مخوفة وصفت بصفوة عدلك الأكدار
غضبان للإسلام مال عموده فلنوره مما عراه نوار
كم سيرة أحييتها عمرية رفعت لها فى الخافقين منار
تقفو طريق الصالحين مسابقا لهم وتطلع خلفك الأبرار
لله ما ظفرت به منك المنى وتكنفت من ركنك الأستار

---

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٢٠) .

وسقى الغمام ثرى أبيك فإنه	أزكى ثرى قطرت عليه قطار
شهدت نضارة عودك الغض الجنى	أن الذى استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد	والليل من طول القيام نهار (١)

وانظر إليه كذلك يقول :

عقل الحق ألسن المدعينا	أنت خير الملوك دنيا ودينا
وأسد الأنام قولا وأفعا	لا ونفسا ونيـة ويقينا
بسط الرزق فى البسيطة كفا	ك فكلتا يديك تلفى يمينا
فيد تحسم النوائب عنا	ويد تقسم الرغائب فينا
تتسنى من الفتوح ألوفا	أنت أعلى من أن تعد المئينا
صرف الله عنك صرف زمان	أنت علمت صرفه أن يهونا
يا بن من طبق البسيطة آثا	را وعل المنابذيه الأجونا
كان صنو الرشيد أبقاك للحكـ	ـمة والبأس بعده المأمونا
سمع الله فيك دعوة سكن	أوطنوا من حماك حصنا حصينا
سهرت عينك الكلوء وناموا	تحت أكناف رعيها آمنينا (٢)

قال أبو شامة : فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه ، مع أنهما ماتا سنة ثمان وأربعين وخمسمئة ، قبل أن يفتح نور الدين دمشق . وبقى نور الدين حيا بعدهما إحدى وعشرين سنة ، يترقى كل سنة فى ازدياد ، من جهاد واجتهاد .

ولو كانا أدركا ذلك لأتيا فى وصفه بعجائب المدائح . مع أنه قد تولى ذلك غيرهما ، ممن لم يبلغ شأوهما ، (٣) . وصدق أبو شامة : لو عاش هذان الشاعران لنور الدين ، لتركا لنا من روائع الشعر الصليبي ، ما قد يزرى بشعرنا العربى فى أزهى عصوره . فإن شخصية البطل نور الدين كانت من القوة بحيث توحى إليهما مثل هذا الشعر .

✡ ✡ ✡

والآن لنرجع بأنفسنا إلى فتوح نور الدين ، ثم لننظر إلى الشعور الذى سار معه فيها ،

---

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٢٢) .
(٢) « : (ص ٢٣ ، ٢٤) .
(٣) « : (ص ٢٤) .

ونحن نعلم أنه ما كاد الفرنج يسمعون بموت أبيه زنكى ، حتى هجموا على الرها ، واستولوا عليها . وسمع بذلك نور الدين ، فعاجلهم قبل أن يتمكنوا من هذه البلدة ، واسترجعها منهم ؛ فهنأه بذلك شاعر من شعراء أبيه ، هو أبو المجد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموى إذ يقول :

هذا الذى فى الله صح جهاده   هذا الذى بالله صح يقينه
هذا الذى بخل الزمان بمثله   والمشمخر إلى العلا عرنينه
ملك الورى ملك أغر متوج   لا غدره يخشى ولا تلوينه
إن حل فالشرف التليد أنيسه   أو سار فالظفر الطريف قرينه
والدهر خاذل من أراد عناده   أبدا وجبار السماء معينه
والدين يشهد إنه لمعــزه   والشرك يعلم إنه لمهينه
ما زال يقسم أن يبدد شملهم   والله يكره أن تمين يمينه
فتح الرها بالأمس فانفتحت له   أبواب ملك لا يزال مصونه [1]

وذكر ابن القيسرانى فتح الرها على يد نور الدين فى قصيدة بعث بها إلى وزير الموصل ، منها قوله :

ليهنك ما أفرج النصر عنـ   ـه وما ناله الملك العادل
فقل للحقاق [2] الطريق الطريـ   ـق فقد دلف المقرم البازل
وجاهد فى الله حق الجهـا   د محتسب بالعلا قافل
وهل يُمنع السور من طالع   يشايعه القَدَرُ النازل
فإن يك فتح الرها لجّة   فساحلها القدس والساحل [3]

فانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف يحضُّ فيه الشاعر نور الدين على فتح بيت المقدس ؛ أو على الأقل يطمعه فى ذلك ، ويقويه عليه . وسنرى أن هذه الأمنية من

---

(١) نفس المصدر : (ص ٢٤) .

(٢) الحقاق : جمع حق ، وهو من الأبل : ما دخل فى الرابعة من سنه . ويقال حقة أيضا ، وجمعها حقق . والمقرم كمكرم : البعير الذى لا يحمل عليه ولا يذلل . والبازل والبزول (للذكر والأنثى) : الذى طلع نابه ، بدخوله فى السنة التاسعة .

ومعنى البيت : قل للصغار من الإبل تخل الطريق للفحول المسنة .

(٣) الروضتين : (ج ١ س ٤٩) .

أعز امانى المسلمين يعبر عنها كل شاعر من شعرائهم فى ذلك الوقت ، كلما سنحت الفرصة له .

ولابن منير فى فتح الرها قصيدة ، منها قوله :

ملك ما أذل بالفتح أرضا قط إلا أعزها إغلاقه
والرها فى الرهاء[1] أزجى إليها عارضا شَيَّبَ الدجى إبراقه
تلك بكر الفتوح فالشام منها شامةٌ والعراق بعد عراقه
سنة سنها أبوه بكلب الروم لما أظلّه إرهاقه[2]

وكان نور الدين قد أفلح فى استيلائه بعد ذلك على عدة مدن منها (بصرى) ، و (هاب) ، و (العريمة) بعد أن حاول أهل هذه المدن الاستنجاد بالفرنج . فأشار ابن منير إلى ذلك فى نفس القصيدة التى سقنا أبياتا منها قائلا :

نطق الحاسدون بالعجز عن مَلْـ ـكٍ مُحَلًّى بالنيرات نطاقه
غض أبصارَهم لحاقُ جَوَادٍ ليس إلا إلى المعالى سباقه
سل بصيرا كم أعتقتْ يوم (بصرى) من أسارى الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على (العريمة) شبت ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم هبوة (بهاب) وأختيـ ـها لها صكّت الأسارى رباقه[3]

***

والتقى نور الدين بالفرنج عند حصن يقال له (حصن يغرا) فهزمه الفرنج ، ثم انهزموا بعد ذلك . فأقبل عليه ابن القيسرانى ينشده قصيدة يعتذر فيها عن هزيمته فى أول الموقعة ، ويهنئه بالانتصار فى آخرها . منها قوله :

تفى بضمانها البيضُ الحدادُ وتقضى دَيْنَها السُّمرُ الصِّعاد
وتدرك ثأرها من كل باغ فوارسُ من عزائمها الجلاد
أظنوا أن نار الحرب تخبو ونور الدين فى يده الزناد؟

ومنها :

وجند كالصقور على صقور إذا انقضوا على الأبطال صادوا

---

(١) الموضع الرهاء كالسماء :الواسع .
(٢) « « ص ٥١ أيضا
(٣) بصرى والعريمة وهاب : كلها من حصون الشام التى أخذها نور الدين من الفرنج عام ٥٤٢ هـ

إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا   وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
جرت بالنصر أقلام العوالى   وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أرؤس الأعلاج خصبا   فنادى السيف قد وقع الحصاد
ومنها : فسر واستوعب الدنيا فتوحا   فلا هَضْبٌ هناك ولا وهاد
وأذعنت الممالك واستجابت   ملبية لدعوتك العباد[1]

ويسير عليك أن تلاحظ هنا أن ابن منير أشد من صاحبه ابن القيسرانى كلفا بالطباق والجناس ، وخاصة الجناس بالاشتقاق ، كما فى قوله :

كم عرام على (العريمة) شبت . . . . الخ
وقوله : ولكم هبوة (بهاب) . . . . الخ

وسنرى أن هذا اللون من الجناس كثير فى شعر الشعراء السوريين ، أوحت به أسماء الحصون التى يفتحها الأبطال المسلمون بين حين وحين ، وكان له وقع فى الآذان جميل ، يحسّه من كان قريبا من تلك الحصون ، ويستجيده الأبطال ، الذين قيل فيهم ذلك الشعر الحماسى الجميل .

* * *

والتحم جيش نور الدين فى موقعة حاسمة بجيوش الفرنج ؛ وذلك فى موضع يقال له (آنب) . وفيه انتصر نور الدين انتصارا كبيرا ، وخر صاحب أنطاكية صريعا ، وحزّ رأسه وحمل إلى نور الدين ، فسر به سرورا عظيما . وكان الذى حزّ رأسه ، وقتل جماعة من أصحابه ، وظفر بحامل الصليب ، البطل المعروف أبو المظفر (أسد الدين شيركوه) . فأقبل عليه شاعر من حلب ، وأنشده قصيدة منها :

إن كان آل الفرنج أدركوا فلَجاً   فى يوم (يغرا) ونالوا منية الظفر
ففى (الخطيم) خطمت الكفر منصلتا   أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا (بيغرا) نهابا وانتهبت لنا   على الخطيم نفوس المعشر البتر
واستقودوا الخيل عُريا واستقدت لنا   قوانص الكفر فى ذل وفى صغر[2]

---

(١) نفس المصدر ص ٥٦
(٢) » » ص ٥٨

وأما نور الدين فقد أكثر الشعراء فى مدحه ، وتهنئته بهذا الفتح ؛ وفى مقدمتهم ابن القيسرانى الذى أنشده هذه القصيدة الجليلة :

هذى العزائمُ لا ماتدَّعى القُضُب وذى المكارمُ لا ما قالت الكتب
وهذه الهممُ اللاتى متى خطبَتْ تعثرت خلفَها الأشعار والخطب
لله عزمك ما أمضى وهمَّك ما أقصَى اتساعا بما ضاقت به الحِقَب
أغرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةً فؤاد روميّة الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمةٍ
أودى بها الصّلبُ وانحطّتْ بها الصُّلبُ
ما يوم (آنب) والأيام دائلة من يوم (يغرا) بعيدا لا ولا كَثَب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا وكان دينُ الهدى مرضاتهُ الغضب
طهَّرت أرضَ الأعادى من دمائهم طهارةً كل سيفٍ عندها جُنُبُ
حتى استطار شَرارَ الزند قادحُه فالحرب تُضرم والآجال تحتطب
والسيف هامَ على هامٍ بمعركة لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليَلَبُ
والنبْل كالوبْلِ هطّالٌ وليس له سوى القسيِّ وأيد فوقها سُحب
وللظُّبا ظَفَر حلو مَذَاقَتُه كأنما الضرب فيما بينهم ضرَب
وللأسنة عما فى صدورهم مصادرٌ ، أقلوب تلك أم قلب ؟
حتى الطوارق كانت من طوارقهم ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم فى ثياب من دمائهم مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت فيما مضى نَسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الترك مكتسبا من الملوك فنور الدين محتسب
أفعاله كاسمه فى كل حادثة ووجهه نائب عن وصفه اللقب
فى كل يوم لفكرى فى وقائعه شغل فكل مديحى فيه مقتضب
من باتت الأسد أسرى فى سلاسله هلْ يأسر الغلبَ إلا من له الغلُب
فملَّكوا سلَبَ الإبرنس قاتله وهل له غير أنطاكية سلب ؟
عجبت للصعدة السمراء مثمرةً برأسه إن أثمار القنا عجب
إذا القناة ابتغت فى رأسه نفقا بدا لثعلبها من نحره سرب

ومنها :

كنا نعدُّ حمى أطرافنـا ظفرا   فملـكتكَ الظبا ما ليس نحتسب
عمَّـت فتوحك بالعدوى معاقلها   كأن تسليمَ هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمقٍ   كما التوى بعـد رأس الحية الذنب

ومنها :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجَـب   يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وأذن لموجك فى تطهير ساحـله   فإنمـا أنتَ بحر لجه لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة   من الظبا عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعهـا   حتى أقمتَ وأنطاكيـة حلب [1]
فأسعدْ بمـا نلته من كل صالحة   يأوى إلى جنة المـأوى لهـا حسب

وهى قصيدة طويلة لعلها من أروع ما قيل من الشعر فى ذلك الوقت . فهى تذكرنا ببائية أبى تمام المشهورة ، ولها نفس الوزن والروى . ولعل البيتين الأولين من أبياتهـا ترجمة واهتدام ، لقول أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الـكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

وما نشك فى أن ابن القيسرانى كان يتمثل فى ذهنه هذه القصيدة البائيه لأبى تمام ، وأنه كان يتأثر بهـا إذ ذاك كل التأثر . ولألفاظ هـذه القصيدة جزالة وفخامة تلائم الموضوع الذى قيلت فيه . وبها من الطباق والجناس شيء كثير ، وسنعود إليها بعد حين .

وفرغ ابن القيسرانى من إلقاء قصيدته بين يدى نور الدين وكان مخيما قرب حلب ، فى جهه يقال لها (جسر الحديد) ، فأتى بعده ابن منير ، وأنشد هذه القصيدة :

أقوى الضلالُ وأقفرت عرصاته   وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمـــد محموده   من بعد ماعلت دما عبراته
ردت على الإسـلام عصر شبابه   وثباته من دونه وثبـــاته
أرسى قواعده ومدَّ عمـاده   صعدا وشيد سوره سـوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا   إصلاته وصِلاته وصَـلاته

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٥٩) .

ملك مجالس لهوه شداته ... ومُشوقه بين الصفوف شذاته[١]
ويروقه ثغر العدا قان دما ... لا الثغر يعبق فى لماه لثاته
فتح تعممت السماء بفخره ... وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الإسلام بيض حجوله ... واختال فى أوضاحها جبهاته

منها :

نبذوا السلاح لضيغم عاداته ... فرس الفوارس والقنا غاباته
لمجرب عمرية غضباته ... لله معتصمية غزواته
فليحمد الإسلام ما جدحت له ... شرباته غرس هذه مخباته
وسقى صدى ذاك الحياصوب الحيا ... خير الثرى ما كنت أنت نباته
ما ضر هذا البدر وهو محلق ... أن الكواكب فى الذرا ضراته
فى كل يوم تستطيل قناته ... فوق السماء وتعتلى درجاته
أين الألى ملئوا الطروس زخارفا ... عن نزف بحر هذه قطراته
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه ... سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته

ومنها : صدم الصليب على صلابة عوده ... فتفرقت أيدى سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة ... بالروح ممقر ما جنت غدراته
فانقاد فى خطم المنية أنفه ... يوم (الخطيم) وأقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت (آنب) همة ... أمست زوافر غيها زفراته
تمشى القناة برأسه وهو الذى ... نظمت مدار النيرين قناته
ما انقاد قبلك أنفه بخزامة ... كلا ولا همت لها هدراته
لما بدا مسود رأيك فوقه ... مبيض نصرك نكست راياته
ترك الكنائس والكناس لناهب ... بالبيض ينهب ما حواه عفاته
والآن ملقى بالعرا يقتاته ... ما كان قبل يصيده يقتاته
لا زال هذا الملك يشمخ شأنه ... أبدا ويلقى فى الحضيض وشاته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه ... من شاء فلتسرع إليه هناته[٢]

---

(١) مشوق: جمع مشق، وهو سرعة الطعن والضرب . والشذا : كسر العود الذى يتبخر به ، الواحدة: شذاة . يريد أن سرعة طعنه للأعداء هى طيبه الذى يتطيب به .

(٢) الروضتين : (ج ١ صفحات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢) .

وهى قصيدة طويلة ذكر منها أبو شامة ثلاثة وستين بيتا .

وهى كما ترى مثقلة بأنواع البديع . ومن أهمها الجناس الذى قلنا إن ابن منير أشد كلفا به من صاحبه ابن القيسرانى . وانظر إلى قول ابن منير فى هذه القصيدة :

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا إصلاته وصلاته وصلاته .

وأما الطباق فكثير أيضا فى هذه القصيدة . وقد انتفع به الشاعر فى السخرية من صاحب أنطاكية ، والتشفى فى مقتله ، كما فى قوله :

تمشى القناة برأسه وهو الذى نظمت مدار النيرين قناته

وتسنى لنور الدين بعد ذلك فتح (فامية) ، وهو من أمنع الحصون التى كانت بأيدى الفرنج ، ثم تمكن من فتح (سنجار) و (والرحبة) و (الفرات) ، وحصون أخرى كثيرة . فأنشد ابن منير قصائد طويلة ، منها رائيته التى أولها :

أسنى الممالك ما أطلت منارها وجعلت مرهفة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها رؤف [١] تكنف عدله أقطارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد من بعد ما شمل البلى أصحارها
فى كل يوم من فتوحك سورة للدين يحمل سفره أسفارها
همم تحجلت الملوك وراءها بدم العثار وما اقتضت آثارها [٢]

ومنها رائيته الأخرى ، وفيها قوله :

خنس الثعالب حين زجر مصحر ملأ البلاد هماهما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق جعلت مخافته القصور قبورا
أسد إذا ماعاد من ظفر بغ ترس أحد لمثله أظفورا
يتناذر الأعداء منه سطوة ملأ الزمان تغيظا وزفيرا
عرفوا لنور الدين وقع وقائع وفى بها الإسلام أمس نذورا
أبدا يظافرك القضاء على الذى تبغى فترجع ظافرا منصورا [٣]

وأما ابن القيسرانى فقال يهنىء نور الدين بهذه الفتوح :

---

(١) الرأف ، بفتح الهمزة وسكونها وضمها : بمعنى الرءوف .

(٢) الروضتين : (ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤) .

(٣) الروضتين : (ص ٦٤) .

هذا الذى ولدت له الأفكار   وتمخضت فألا به الأشعار
وجرت له خيل النهى فى حلبة   وردت وصفو ضميرها المضمار

فانظر إلى هذين البيتين السابقين ، لقد جاءا مصداقا لقول أبى شامة : إنه لو عاش لنور الدين شاعراه ابن القيسرانى وابن منير ، لأتيا فيه بالغرائب ؛ لأن شخصية نور الدين كما قلت ، توحى لمثل هذين الشاعرين بتلك الغرائب .

ومنها : يابن السيوف وهل فخرت بنسبة   إلا سما بك للجدود فخار
فارقت دار الملك غير مفارق   لك من علاك بكل أرض دار
فى عسكر يخفى كواكب ليله   نقع فيطلعها القنا الخطار
حتى ملأت الخافقين مهابة   دانت لعظم نظامها الأقطار
وملكت (سنجارا) ومامن بلدة   إلا تمنت أنها (سنجار)
وبسطت بالأموال كفا طالما   طالت بها الآمال وهى قصار
وجرت بأمداد الجياد شعابها   جرى السيول وما سواك قرار
وثنى (الفرات) إلى يديك عنانه   والبحر ما اتصلت به الأنهار
وملكت (رحبة مالك) فتبرجت   منها لعينك كاعب معطار
نثرت عليك هوى القلوب محبة   وتود لو أن النجوم نثار
فأقمت كالشمس المنيرة إن نأت   عن أفقها فلها به أقمار
إن تمس فى (حلب) رياحك غضة   فلها بأنطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة   ولها بأطراف الدروب مغار
ملك له من عدله ووفائه   جيش به تستفتح الأمصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية   وأرادها خفت به الأقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة   قامت مقام جنوده الأخبار(١)

* * *

ومن هاتين القصيدتين اللتين سقناهما فى مدح نور الدين وتهنئته بتلك الفتوح ، يتضح لنا كيف أن (ابن منير) كان حقا أشد من صاحبه (ابن القيسرانى) كلفا بالبديع ، ولكن هذا الأخير ربما كان أكثر اعتمادا من ابن منير على الجزالة اللفظية ،

---

(١) نفس المصدر : (ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩)

وهما بعد يتساويان فى إذكاء العاطفة الدينية فى نفوس المسلمين ، بما يمدحون به البطل نور الدين ، بعد صدق جهاده للفرنج ، وسرعة استيلائه على حصونهم وبلادهم ، لا بقصد الكسب أو الملك ، ولكن لغاية دينية خالصة :

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا　　من الملوك فنور الدين محتسب

وبما يصورون من هيبة هذا الملك الكبير ، وشدة خوف الفرنج منه ، حتى إن عدوى الفتح لتصيب حصونهم ، فتسلم نفسها إليه قبل أن يصل هو إليها :

عمّت فتوحك بالعدوى معاقلها　　كأن تسليم هذا عند ذا جرب

والحق أن معانى ابن القيسرانى كانت أكثر من معانى ابن منير ، على حين أن بديع ابن منير كان أكثر من بديع ابن القيسرانى ، على أن هذا الأخير كان أشد حرصا ، وأكثر دورانا حول المعنى الرئيس ، الذى تدور حوله جميع القصائد الصليبية ، وذلك منذ انبرى أبطال المسلمين لمحاربة الصليبيين ، ووضعوا لأنفسهم خطة تهدف لغرض واحد ، هو استخلاص البيت المقدس ، ورده كما كان منذ أول الأمر بلدا إسلاميا بحتا . وانظر هنا إلى قول ابن القيسرانى فى هذا المعنى :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب　　يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب

وإلى قوله من قبل فى قصيدة سابقة أتى فيها نفس هذا المعنى :

فإنْ يَكُ فتح الرها لجة　　فساحلها القدس والساحل

وإلى قوله كذلك من قصيدة سيأتى ذكرها :

كأنى بهذا العزم لا فلّ حده　　وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر

على حين أننا نرى أن ابن منير — كما قلنا كذلك — أكثر اهتماما بالجناس والطباق وغيرهما من ألوان البديع . وقد أتاح له ذلك الإجادة فى مدح نور الدين ، فأحسن المقابلة بينه وبين الصليبيين ، وقد أصيبوا منه بملك أذلهم ، وخطم أنوفهم ، ونهب ديارهم ، وكسر صليبهم ، وترك أميرهم نهبا للطيور التى كان ينهبها فى حياته بالصيد ؛ فذلك قول ابن منير :

صدم الصليب على صلابة عوده　　فتفرقت أيدى سبا خشباته

وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة　　بالروح ممقر ما جنت غدراته

فانقاد فى خطم المنية أنفه　　يوم (الخطيم) وأقصرت ثرواته

والآن ملقى بالعرا يقتاته ما كان قبل يصيده يقتاته !

وبحسبنا ذلك تعقيبا على هاتين القصيدتين ، اللتين نعجب بهما إعجابا يزداد فى نفوسنا كلما استعدنا قراءتهما ، وأنعمنا النظر فى حظهما من الجمال الفنى ، وسرت إلينا روحهما المعنوية العالية ، وحملتنا ألفاظهما الجزلة حملا سريعا إلى الجو الذى قيلتا فيه .

نقول بحسبنا ذلك تعقيبا سريعا على هاتين القصيدتين الرائعتين ، لننتقل إلى غيرهما من القصائد التى قيلت فى مدح هذا البطل ، الذى نتتبعه وقلوبنا وعقولنا تشارك الشعراء فى عاطفة الإعجاب به ، والثناء على موقفه ، والتقدير لبطولته .

. . .

اتجهت همة نور الدين بعد ذلك إلى دمشق ، فخطب ودها ، وأناخ بخيله فى مكان قريب منها ، أوجس صاحب المدينة منه خوفا ، فبعث إليه نور الدين برسالة يقول فيها :

« إننى ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعانى إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان ، بأن الفلاحين أخذت أموالهم ، وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، لعدم الناصر لهم ، ولا يسعنى مع ما أعطانى الله وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم ، مع معرفتى لعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتى ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ، ظلما لهم ، وتعديا عليهم ، وهذا مالا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين . ولا بد من المعونة من ألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته ، لتخليص ثغر عسقلان وغزة . . . الخ (١)

فما كان جواب (مجير الدين) صاحب دمشق عن هذه الرسالة إلا أن قال :

« ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ، ونزلت إلينا !! » .

فأنكر نور الدين هذا الرد ، وأكثر من التعجب ، وعزم على محاربة دمشق ؛ ولكن الطبيعة نفسها أبت على البطل تنفيذ ما عزم عليه من الأمر ؛ فهطلت أمطار

---

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٧٠) .

كثيرة فى هذا اليوم ، حالت دون تقدم الجيش ، فأضاف نور الدين إلى ذلك السبب الذى أضافه يومئذ، وهو رغبته فى حقن دماء المسلمين . وكم كان هذا الرجل العظيم بقدر ضراوته فى إسالة دم الفرنج والصليبيين ، يشفق الإشفاق كله على دم المسلمين . وبعد قليل وجد صاحب دمشق أن من الخير لنفسه وللمسلمين فى ذلك الوقت أن يعقد الصلح بينه وبين نور الدين ، على أن يخطب له بعد الخليفة والسلطان السلجوقى على منبر دمشق ، فرضى نور الدين بذلك الصلح ، وخلع على صاحب المدينة خلعا كثيرة ، ووزع الأموال على الضعفاء والفقراء وطلبة العلم ، وفرح الناس فرحا كثيرا بذلك اليوم ، واشترك الشعراء فى التعبير عن سرورهم به . وهذا ابن القيسرانى يمدح نور الدين بذلك فى قصيدة منها : (١)

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح ... وإن شئت صلحا عد من حزبك الصلح
وهل أنت إلا السيف فى كل حالة ... فطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها ... ترنح من سكر نخل القنا تصحو
وقد علم الأعداء مذ بت جانحا ... إلى السلم ما تنوى بذاك وما تنحو
إذا ما دمشق ملكتك عنانها ... تيقن من فى (إيليا) (٢) أنه الذبح
إذا سار نور الدين فى الجيش غازيا ... فقولا لليل الإفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها ... فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر خير مغبة ... فسيق إليك الملك يسعى به النجح
كأن القنا تجلو له وجه أمره ... ولو أمهلت بلقيس ما غرها الصرح
سخا بك هذا الدهر جودا على الورى ... على أنه ما زال فى طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة ... ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحو
ولم أختصر ما قلت إلا لأننى ... أعبر عما لا يقوم به الشرح

. . .

وفى هذه الأبيات يحتفظ ابن القيسرانى بجزالته المعروفة ، ويحرص على المعانى حرصه المعروف ، ويأتى بإشارات تاريخية ومن القرآن ، لكى توحى بمعنى خاص ، كما فى قوله « ولو أمهلت بلقيس ما غرها الصرح » وقد نظر الشاعر هنا إلى صلح

---

(١) ص ٧٠ الجزء الأول كتاب الروضتين

(٢) إيليا : اسم من أسماء بيت المقدس .

دمشق على أنه تسليم ورضا منها بأن يملكها نور الدين ، ليستعين بها على الصليبيين ، كما فى قوله :

إذا ما دمشق ملكتك عنانها تيقن من فى (إيليا) أنه الذبح

مع أن نور الدين لم ينته بعد من هذا الأمر ، وهو امتلاك دمشق .

تحرك نور الدين بعد ذلك إلى حصن من أمنع حصون الفرنج ، يقال له (حصن عزاز) فمازال به حتى أخذه ، وكان عسكره قد تمكنوا قبل ذلك من قتل صاحب الحصن، وأتى ابن القيسرانى الشاعر مهنئا نور الدين بقصيدة أولها : [1]

دعا ما ادعى من غره النهى والأمر فما الملك إلا ما حباك به الأمر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
ومن راهن الأقدار فى صهوة العلا فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجد أمسى دون غايته المنى فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر!
ليهن (دمشقا) أن كرسى ملكها حوى[2] منك صدرا ضاق عن همه الصدر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الإقبال حورية السنا عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أ كنت من هواك محبة نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نحلة فأمست ولا أسر تخاف ولا إصر
فإن صافحت يمناك من بعد هجرها فأحلى التلاقى ما تقدمه هجر
وهل هى إلا كالحَصان تمنعت دلالا وإن عز الحبا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصداقها فليس له قدر وليس لها قدر
على أنها لو لم تجبك إنابة لأرهقها من بأسك الخوف الذعر

ومنها فى ذكر أنطاكية وظفر نور الدين بها وبأميرها :

ومن بز أنطاكية من مليكها أطاعته ألحاظ المؤللة[3] الخزر
أخو الليث لولا غدره نزعت به إلى الذئب إن الذئب شيمته الغدر
أتى رأسه ركضا وغودر شلوه وليس سوى عافى النسور له قبر

---

(١) انظر الروضتين حـ ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ . (٢) فى الأصل : حبى .

(٣) ألَّ : نَصَبَ أذنيه وحدّدها . القاموس المحيط .

وقد كان فى استبقائه لك منّة هى الفتك لو لم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره وأسعد قرن من حواه لك الأسر

ثم أتى على ذكر عزاز فقال :

وأمست (عزاز) كاسمها بك عزة تشق على النسرين لو أنها الوكر
فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة فبالأفق الداجى إلى ذى السنا فقر
كأنى بهذا العزم لافل حده وأقصاه (بالأقصى) وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبى صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر
وإن يتيمم ساحل البحر مالكا فلا عجب أن يملك الساحلَ البحر (١)

ومنها :

فيا كعبة ما زال فى عرصاتها مواسمُ حج لا يروعها النفر
خلعتَ على الأيام من حلل العلا ملابس من أعلامها الحمد والشكر
وتوجت ثغر الشام منك جلالة تمنت لها بغداد لو أنها ثغر
فلا تفتخر مصر علينا بنيلها فيمناك نيل كلّ مصر بها مصر
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله ويا طالما أمسى ومسلكه وعر

والقصيدة طويلة ذكر منها أبو شامة أكثر من خمسين بيتا ، أكثرها جيد ، ومعظمها آية فى الجزالة . وفيها هنأ الشاعر ممدوحه - كما رأينا - مرة أخرى بفتح دمشق ، بعد إذ تمنعت عليه أول الأمر ، ثم رضيت بعد أن دفع لها المهر غاليا فى نهايته ، وكسر جيشها كسرة لا جابر لها بعد ذلك :

صدعتهم صدع الزجاجة لايد لجابرها ما كل كسر له جبر

ثم سخر فى قصيدته بأبطال الفرنج ، ورماهم بالغدر ، ووازن بين غدرهم وبين كرم نور الدين، الذى استبقى لهم حياتهم، كرما منه وفضلا ، ولو لم يكونوا سعداء لما وقعوا فى أسره، وبقيت لهم حياتهم على هذا النحو . ثم أتى إلى ذكر عزاز، ولم ينسه كل ذلك

---

(١) الإشارة هنا إلى ممالك الساحل التى بأيدى الصليبيين .

أن يذكر نور الدين تذكيرا توسله بالمسجد الأقصى وبالقدس ، بعد إذ أدت السيوف ما عليها من فروض أو نذور . فقال :

كأنى بهذا العزم لا فلّ حده وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أدت البيض الحداد فروضها فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر

وفى كل هذه الأبيات نوع من البديع يسمى (توجيها) ، وهو هنا توجيه من الفقه ، الذى من ألفاظه الفروض والنذور والشفع والوتر الخ .

ثم أتى ابن منير الشاعر يهنىء نور الدين كذلك بقوله [1] :

فدتك القلوب بألبابها وساح الملوك بأربابها
كتائب ترمى جنود الصليب منها بتقطيع أصلابها
إذا ما انثنت من قراع الكماة كست وفدها وشى أسلابها
تبرنس منها البرنس الثياب وحلته من وقع أحلابها
عشية غصت على (آنب) نفوس النصارى بغصابها
تجلى لها حيدرى المصا [2] ع أغلب مود بغلابها
مورث أركاسها من أبٍ أكول الفوارس شرابها
همامٍ إذا اعصوصبت نبوة دهاها بها شم أعصابها
مضى وجنى لك حلو السُّها د مما تمطقَّ من صابها
وأوصى بها لك من بعدها تجرع ممقر [3] أوصابها
وأقسم جدك ألا يليق بغيرك ملبس أثوابها
صبحت (دمشق) بمشق الجياد زبور الوغى بين أحدابها
وعزت (عزاز) فأذللتها بمجرى مضيق لأسبابها
فلاذت بمعتصم بالكتاب وهوب الممالك سلابها
بمعتصمى الذرا والهدى هموس السرى غير هيابها

(١) نفس المصدر المتقدم ص ٧١ ، ٧٢
(٢) المصاع هو الضرب بالسيف ، وحيدرى نسبه إلى حيدرة من أسماء الأسد أو من أسماء على بن أبى طالب.
(٣) ممقر كمحسن : معناه اللبن الحامض (القاموس المحيط)

محلى المحل بوصف الفتوح ووصف التهانى وأربابها
فأيامه من حبور تكاد يطير بها فرط إعجابها

وهى قصيدة طويلة كذلك، ذكر منها أبو شامة أربعين بيتا، وفيها ذكر لوالد نور الدين، وكيف أنه ورث ابنه جهاد الصليبيين، وأوصاه بهم بعد ما تجرع مرهم، وصبر على حربهم، وكيف وجه نورالدين همه بعدذلك إلى دمشق وعزاز، ففتحهما، وأتى فى سبيل ذلك بالمعجزات، التى حيرت شعراء عصره فى وصفها، ولو تقدم الزمن بها لحار فى وصفها أبو تمام حبيب بن أوس الطائى نفسه :

بدائع لو رد دهر رهين بنات حبيب بأحبابها
وأين ابن أوس وآياته من اللاء أودت بحسابها

وكان من عادة الشعراء إذا أتوا لتهنئة نورالدين بفتح جديد، أنهم يذكرون بقية الفتوح الأخرى، تنويها بها، وتثبيتا لهافى أذهان المسلمين، وتحريضالهم على المضى فى هذه الفتوح، تحت راية البطل الغيور نورالدين. ومن ذلك الشعر ماقاله ابن القيسرانى[1]:

أما وخيال زار ممن أحبه لقد هاج من ذكراه ما لا أغبه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشام رفقا بمهجة يحامى عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده فإن فؤاد الصب مع من يحبه
وفى شُعب الأكوار من هو عالم غداة استطار البرق من طار لبه
نسيم ثغور المزن تهمى كأنها سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
تولد بين الغيث والليث والتقى منافسة أى الثلاثة تربه
حمى قبة الإسلام بالخيل فاغتدت وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها فما انقشعت إلا وللذل جنبه
كيوم (الرها) الورهاء[2] والهام يانع ملىء برعى الهندوانى خصبه
(وشهباء) هاجتها وغى صرخدية[3] ثناها وليل الحرب ينقض شهبه

---

(١) نفس المصدر : س ٧٤
(٢) الورهاء : بمعنى الحمقاء
(٣) نسبة إلى صرخد

ومنها : (بآنب) لما أكسب المال وانثنى بصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه وللرمح حتى توج الرأس قلبه
وقائع محمودية النصر لم تزل غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده وتفعل أفعال الكتائب كتبه
إلى أن دعته ربها كلُّ بلدة فليس من الأمصار مالا يربه [(١)]
فقل للملوك الخافقين نصيحة كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلوا عن الآفاق فالشرق شرقه بحكم الردينيات والغرب غربه

وفى نهاية القصيدة قوله :

أمتخذ الإخلاص لله جنة ومن يعتصم بالله فالله حسبه
أبوك استرد الشام بالسيف عنوة وللروم بأس طالما غال خطبه
إذا اذب عن أضغاث دنياه مالك فأنت الذى عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خير مغبة فأفرجت عن رأى يسرك غبه
وأوضحت ما بين الفريقين سنة بها عرف المربوب من هو ربه
وبينت نور الدين ما كان يبتغى دليلا بأن الله من أنت حزبه

وفى هذه القصيدة نظم ابن القيسرانى أهم المواقع والأيام التى انتصر فيها نور الدين على الفرنج ، ومنها يوم (الرها) ويوم (آنب) ويوم (حلب الشهباء) ويوم (صرخد) ويوم (العريمة) ويوم (العاصى) ، وذلك حيث يقول :

وغارم يوما (بالعريمة) فاغتدت بوادى ثمود إذ رغا فيه سقبه [(٢)]
وعاصى على (العاصى) بأرعن خاطب دم الأفك حتى أنكح النصل خطبه
إلى أن دعته ربها كل بلدة فليس من الأمصار من لا يربه

وبلغ نور الدين أن أهل دمشق مازالوا يستنجدون عليه بالفرنج ، فساءه ذلك ، وعاد يحاصرها ، فكتب إليه ابن منير قصيدة يذم فيها مجير الدين ، صاحب دمشق ، ويعيره باستنجاده بالفرنج ، ومنها قوله [(٣)] :

---

(١) يطلبه ربًّا له .
(٢) السقب : ولد الناقة . والاشارة إلى ناقة ثمود فى القران معروفة .
(٣) نفس المصدر المتقدم ص ٧٨

صدمت ابن ذى اللغدين فانحل عقده ... وكالسلك قد أمسى يحل ويعقد
يقلب خلف السجن عينا سخينة ... ويبكى بأخرى ذات شتر ويسهد
ولا غرو قد أبقى أبوه وجده ... له كل يوم ثوب عجز يجدد
فيا راكبا إما عرضت فبلغن ... بيوتا على جيرون بالذل تعمد
وقل لمبيد الدين وهو مجيره ... بزعم له وجه الحقيقة أربد
حملت الصليب باغيا ونبذته ... وثغرك مطووس النبات وأدرد
تنصرت حينا والبلاء موكل ... ولا بد من يوم به تتهود
تنصرت أما بل تمجست والدا ... وعما فعرق الكفر فيك مردد
إليكم بنى العلات عن متشاوس ... له الشام مرفا والعراق مرفد
وما مصر إلا بعض أمصاره التى ... إلى امره تسعى قماء وتحفد
أنيبوا إليه فهو أرحم قادر ... له الصفح دين واقبلوا النصح ترشدوا

وهى من أروع ما قال ابن منير فى مدح نور الدين ، أو على الأصح فى هجو أعدائه . ففيها سخرية بصاحب دمشق ، وهو مجير الدين ، الذى خلع عليه الشاعر اسم (مبعيد الدين) وناداه (بابن ذى اللغدين) ، وصوره لنا بهذه الصورة المزرية ، وهو يتنصر حينا ، ويتهود حينا ، ويتمجس حينا ، ولا يستحى من الاستنجاد بأعداء الإسلام على الإسلام .

٭ ٭ ٭

وإن نور الدين ليفكر فى دمشق كل هذا التفكير ، وإذا بالأسطول المصرى يصل فى سبعين مركبا إلى يافا وصور ، وينهب أموال الفرنج ، وأرواحهم ، وعتادهم فى تلك الثغور ، ويحاول البطل نور الدين أن يلحق بهذا الأسطول ، وأن يعينه على إبادة الفرنج المقيمين هناك لولا اشتغاله يومئذ بدمشق وبالفرنج الذين استعان بهم صاحبها على نور الدين ، حتى التقى بهؤلاء وهؤلاء فى جهة يقال لها (الجولان) ، بالقرب من دمشق ، وانتصر عليهم ، فاضطر مجير الدين إلى الذهاب بنفسه إلى حلب ، حيث استقبله نور الدين ، وقبل ما بذله له من فروض الطاعة والخضوع . وهكذا تم النصر لنور الدين فى هذه الموقعة على الفرنج وأهل دمشق .

وفى ذلك يقول ابن القيسرانى الشاعر[١] :

وفت لك الدنيا بميعادها ... باذلة أفلاذ أكبادها
وأوفدت غر سلاطينها ... عليك فى همة أنجادها
تبغى سناء أقصدت قصده ... طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتد أعمارها ... يوم التلاقى يوم ميلادها

ومنها :

شامت دمشق بك برقَ العلا ... فأرسلت أصدقَ روّادها
رأتك نور الدين نار الهدى ... قد أشرق الأفق بإيقادها
فيممتْ منك حيا مزنَة ... بيض الأيادى ورد ورّادها
فاسأل مجير الدين عن خبرة ... أوردها محمود إيرادها
تنافس الناس على دولة ... فت بها أعين حسادها

ثم قال :

يا ملكا تزهى بأسمائه ... منابر تسمو بأعوادها
وتأخذ الأسماع أوصافَه ... عن جمع الدنيا وأعيادها
كم للمعالى فيك من رغبة ... تفنى الأمانى دون تعدادها
لك المساعى الغر ياجامعا ... من طرفيها بين أضدادها
يغشى الوغى أفرس فرسانها ... وفى التقى أزهد زهادها
فأنت نسْكاً غيث أبدالها ... وأنت فتكا ليث آسادها
فى أمة أنت حمى دينها ... حينا وحينا شمس عبادها
مآثر لو عَدِمت راويا ... تكفَّلَ النظم بإسنادها

وأما ابن منير فقال يهنىء نور الدين بانتصاره فى وقعة الجولان[٢] :

ما برقت بيضك فى غمامها ... إلا وغيثَ الدين لابتسامها
ملك أزال الروم عن صلبانها ... دفاعه وكبَّ من أصنامها
جال على (الجولان) أمس جولةً ... صفرت الأدحيَّ من نعامها

---

(١) نفس المصدر المتقدم ص ٨٣

(٢) نفس المصدر ص ٨١

وفى (الرها) صابت له سحابة ... صاروا جفاء خف فى التطامها
وهب فى (هاب) له عواصف ... تجهمتها الهف[1] من جهامها
غضبان للإسلام لا يغيظه استسلامها للقسر من إسلامها
أمت بنا الآمال منك كعبة ... سلم الليالى آية استسلامها
وأرشفتنا بك ثغر نعمة ... لا نسأل الله سوى دوامها

وهى قصيدة طويلة ذكرمنها أبو شامة ثلاثين بيتا ، وأتبعها بقصيدة أخرى نونية ، أربت على الأولى فى عدد أبياتها وفنها فى وقت معا .

* * *

وتمكن نور الدين بعد ذلك من فتح حصن عظيم من حصون الفرنج ، هو حصن (أنطرسوس) ، ومن امتلاك عدة حصون أخرى ، منها حصن (يحمور) ، فجاءه ابن منير مهنئا بقوله[2] :

أبدا يباشر وجه غزوك ضاحكا ... وتئوب منه مؤيدا منصورا
غسلَ العواصم أمس من أدرانهم ... واليوم رد به السواحلَ بورا
أخلى ديار الشرك من أوثانها ... حتى غدا ثالوثهن نكيرا
رفع القصور على نضائد هامهم ... من بعد ما جعل القصور قبورا
غادرت (أنطرسوس) كالطرس انمحى ... رسما وحمر ردعها (يحمورا)
وهى الزناد لفتنة كانت على الـْ ... إسلام أحكم كسره إكسيرا
هتمت (طرابلسا) فأصبح ثغرها الـْ ... بَسَّام من عز الثغور ثغيرا
إقليدها كانت وقد أنطيته[3] ... واسألْ بها من دهته خبيرا
ألق العصا فيمن أطاع ومن عصا ... منهم ودمرْ أرضهم تدميرا
لا يلههم أن قد أمنت وشنَّها ... شعواءَ تُصلى الكافرين سعيرا

إلى أن قال :

ضحكت لك الأيام واكتأب العدا ... قلقا فجئتَ مبشرا ونذيرا

---

(١) سحابة هف بالكسر : بلا ماء (القاموس المحيط) .
(٢) الروضتين : ص ٨٦
(٣) أنطى : كاعطى وزنا ومعنى .

لا ملك إلا ملك محمود الذى ... تخذ الكتاب مظاهرا ووزيرا
تمشى وراء حدوده أحكامُه ... تأتمن فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عدله فى دولة ... جاءتْ لمطوى السماح نشورا

وهكذا نرى الشعراء إثر كل فتح من الفتوح يهرعون إلى البطل نور الدين يهنئونه بهذا الفتح ، ولا يكتفون بذلك حتى ينظموا فتوحه الأولى فى سلك واحد من الشعر ، كما نظم هو لنفسه جميع تلك الفتوح فى سلك واحد من النصر . ثم لا يقف الشعراء عند هذا الحد حتى يفتحوا أمام البطل باب الأمل فى فتوح أخرى ، أكبر شأنا وأعم نفعا له وللمسلمين ؛ وهم يعلمون أن كل بلد ينتزعها نور الدين من الصليبيين ، وكل قلعة يأخذها منهم، إنما هى خطوة نحو النصر النهائى الذى يرجونه عليهم ، وهو إخراجهم جميعا من القدس .

* * *

فى ذلك الوقت أعنى سنة ٥٨٤ هـ استطاع الفرنج التغلب على حصن من أكبر حصون الإسلام ، هو (حصن عسقلان) ، بعد أن قاوم أهله ما استطاعوا ، واستغاثوا يومئذ بالخليفة الفاطمى فى مصر ، فجهز لهم أسطولا عظيما وصل إلى الثغر، ولكن بعد أن ملكه القوم ، وكان فى هذا الثغر من العدد الحربية والأموال ، والميرة والغلال ، ما لا يمكن حصره ، فضاقت صدور المسلمين بهذا الخبر، واشتد وقعه عليهم . وإذ ذاك لم يطق نور الدين صبرا على موقفه من دمشق ؛ فإنها وإن دانت له بالطاعة ، إلا أن صاحبها مجير الدين لم يزل بها ، وهو رجل لا يؤمن جانبه ، وليس بعيدا عليه أن يعود فيمالىء الفرنج عليه .

لذلك لم يجد نور الدين بدا من قصد دمشق ، وامتلاكها نهائيا ؛ فملكها يومئذ قبل أن يملكها الفرنج .

فأين الشاعران اللذان كانا ينتظران أياما كثيرة لنور الدين مثل يوم دمشق ؟ . أين هما الآن يقبلان على البطل يهنئانه بشعرهما ، ويعبران فى هذا الشعر عن آمال المسلمين والإسلام .

أين ابن القيسرانى وابن منير يتغنيان بهذا النصر المبين ؟ .

لقد ماتا قبل أن يتم لنور الدين فتح دمشق نهائيا فى عام ٥٤٩ هـ ، مات ابن منير أولا فى جمادى الآخرة من عام ٥٤٨ هـ ، ومات صاحبه ابن القيسرانى بعده بعشرة أيام فقط . قال أبو شامة : رحل شاعرا الشام فى وقتهما ، وقد شبههما العماد الكاتب فى الخريدة، بجرير والفرزدق . وكذلك كانا ، واتفق موتهما فى سنة واحدة، ومات الجرير بعد الفرزدق بقليل(١) .

* * *

وعاد الفرنج إلى مضايقة نور الدين ، وخصوصا بعد إذ علموا أنه مريض ، وأن المرض أصبح يقعد به عن محاربتهم . فأخذوا يشنون الغارات على (حوران) والأقاليم المجاورة لها ، وإذ ذاك وردت الأخبار من مصر بأن عسكرها خرجوا إلى عسقلان ، وأغاروا عليها ، وانتصروا على من كان بها من الفرنج وقتلوهم ، وأسروهم ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وفرح المصريون بهذا النصر فرحا عظيما ، وبعث وزيرهم الملك الصالح طلائع بن زريك إلى الأمير أسامة بن منقذ بقصيدة ، هى من القصائد التى عبرت عن العاطفة الدينية العليا عند المسلمين شيعة وسنيين ضد الصليب ، وكان هذا الوزير المصرى طلائع بن رزيك كثيرا ما يكاتب أسامة بن منقذ بالشعر فى معنى الجهاد ، من ذلك قوله يطلب إلى أسامة أن يعلم نور الدين بالنصر الذى أحرزه المصريون على الصليبيين(٢) :

ألا هكذا فى الله تمضى العزائم ... وتنضَى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم ... وليس سوى سُمر الرماح سلالم
وتُغزى جيوش الكفر فى عقر دارها ... ويُوطا حماها والأنوف رواغم
ويُوفى الكرام الناذرون بنذرهم ... وإن بُذلت فيها النفوس الكرائم
نذرْنا مسيرَ الجيش فى صفر فما انـ ... ـثنى حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا ... مفاوز وَخْدُ العيس فيهن دائم
فما هالَهُ بُعْدُ الديار ولا ثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم
يبارى خيولا ما تزال كأنها ... إذا هى ما انقضت نسورٌ قشاعم

---

(١) الروضتين ص ٩١

(٢) الروضتين ص ١١٥

يسير بها ضرغام فى كل مأزقٍ ... وما يسحب الضرغام إلا الضراغم
وواجههم جمع الفرنج بحملة ... تهون على الشجعان فيها الهزائم
وما زالت الحرب العَوَان أشدَّها ... إذا ما تَلاقى العسكر المتضاجم
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت ... رءوس وحزَّت للفرنج غلاصم
فلم ينجُ منهم يوم ذاك مخبِّر ... ولا قيل هذا وحدَه اليوم سالم

ثم اتجه الوزير الشاعر إلى نور الدين يحرضه على قتال الفرنج ، فقال :

فقولوا لنور الدين لا فلَّ حدُّه ... ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن ... وتظهر فتورا إن مضت منك حارم (١)
فما مثلها تبدى احتفالا به ولا ... يعض عليها للملوك الأباهم
فعندك من ألطاف ربك ما به ... علمنا يقينا أنه بك راحم (٢)
أعادك حيا بعد زعم الورى بأ ... نك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها ... وحلت بها تلك الدواهى العظائم (٣)
وخيم جيش الكفر فى أرض شيزر ... فسيقت سبايا واستحلت محارم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة ... إليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم ... ونحلف جهدا أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم ... وليس ينجى القوم منا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائرا ... إليهم فلا حصن لهم منه عاصم

فانظر إلى لطف الله تعالى بالمسلمين : يصيب المرض زعيمهم الكبير نور الدين ، ويقعده عن قتال الصليبيين ، فينهض المصريون بقتالهم فى ذلك الظرف العصيب ، ويقدر لهم النصر الذى يمسحون به عار السكوت عن هذا العدو ، الذى سلخ منهم فلسطين وغيرها من البلاد الشامية ، التى كانت تمتلكها الخلافة المصرية . ثم انظر كذلك إلى

---

(١) فى سنة ٥٥١ هـ حاصر نور الدين قلعة حارم من حصون الفرنج المنيعة ، وهى غربى حلب ، وضيق الحصار على من بها من الفرنج ، فأخذوا يتشاورون فى الأمر ، فطلبوا الصلح ، فلم يجبهم نور الدين إليه إلا على مناصفة هذه الولاية ، وهى ولاية حارم ، فأجابوه إلى ذلك (ص ١٠١ الروضتين ج ١) .

(٢) نشير بذلك إلى مرض نور الدين كما أشرنا إلى ذلك مرضا كاد ينتهى بموته وصادف ذلك وقوع الزلازل العظيمة بالشام ، وهى الزلازل التى كلفت الناس خسائر كبيرة فى المال والأرواح .

المسلمين كيف ينسون أحقادهم ، ويطرحون الخلافات الدينية وراء ظهورهم ، وذلك في الوقت الذى يدهم الإسلام فيه خطر صليبى . ألا ما أبعد الشقة المذهبية بين الملك الصالح طلائع بن رزيك وبين الملك العادل نور الدين ! ولكن يجمعهما دين واحد هو الإسلام ، وغاية واحدة هى الجهاد . فلينس كل منهما مذهبه فى سبيل هذه الغاية التى هى درء الخطر الصليبى .

والظاهر أن هذا النصر الذى أحرزته مصر قد أسكر وزيرها طلائع بن رزيك أكثر من هذا القدر، فأخذ يتغنى به أمدا طويلا، وكتب فيه لصديقه أسامة مرارا، ومن ذلك قوله (١) :

يا سيدا يسمو بهمـ ـته إلى الرتب العليه
أنت الصديق وإن بعد ت وصاحب الشيم الرضيه
يهنيك أن جيوشنا فعلت فعال الجاهليه
سارت إلى الأعداء من أبطالها مائتا سريه
فتغير هذى بكرة وتعاود الأخرى عشيه
فالويل منها للفرنـ ـج فقد لقوا جهد البليه
جاءت رءوسهم تلو ح على رءوس السمهريه

ومنها :

ألمم بنور الدين أعـ ـلمه بهاتيك القضيه
فهو الذى ما زال يخـ ـلص منه أفعالا ونيه
ويبين جمع الكفر بالـ ـبيض الرقاق المشرفيه
فعساه ينهض نهضة يفنى بها تلك البقيه
إما لنصرة دينه أو ملكه أو للحميه

ومنه أيضا قوله (٢) :

أيها المقتدى لأنت على البعـ ـد صديق لنا ونعم الصديق
وأهم المهم أمر جهاد الـ ـكفر فاسمع فعندنا التحقيق

---

(١) الروضتين ص ١١٦ ج ١
(٢) « ص ١١٦ «

وأصلتهم منا السرايا فأشجا هم بكور منالهم وطروق
وأباحت ديارهم فأباد الـ قوم قتل ملازم وحريق
وانتظرنا بزحفنا برء نور الد ين علما منا بأن سيفيق
وهو الآن فى أمان من اللـه وما يعتريه أمر يعوق
قل له لاعداه رأى ولا زا ل لديه لكل خير طريق
أنت فى حسم داء طاغية الـكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتنم بالجهاد أجرك كى تلـ قى رفيقا له ونعم الرفيق

فأجابه أسامة بن منقذ بقوله (١) :

يا أمير الجيوش ما زال للإسـ لام والدين منك ركن وثيق
أسمعت دعوة الجهاد فلبا ها مليك بالمكرمات خليق
ملك عادل أنار به الديـ ن فعم الإسلام منه الشروق
ماله عن جهاده الكفر والعد ل وفعل الخيرات شغل يعوق
ذو أناة يخالها العز إهما لا وفيها حتف الأعادى المحيق
فاسلما للإسلام كهفين ما طر ز ثوب الظلام برق خفوق

وهنا ملاحظة لا تخفى على الناقد ، وهى هذه الأشعار التى جرى بها خيال الوزير المصرى ، والأشعار التى رد بها أسامة ، فهى كلها بالنثر أشبه ، وبالترسل أشد تعلقا ، فانظر إلى الصالح بن رزيك يقول .

أيها المفتدى لأنت على البعـ د صديق لنا ونعم الصديق
وأهم المهم أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق

فما الفرق بين هذا الشعر وقولك فى رسالة نثرية : أيا صديقى وأنت على البعد نعم الصديق ، اعلم أن أهم شىء أريد أن نهتم به هو أمر جهاد الفرنج الخ . وذلك كله بطريقة تذكرنا حقا بأسلوب الرسائل التى تصدر عن كاتبها فى غير تعمل ولا تكلف ولا تقديم ولا تأخير ، وما إلى ذلك من الأمور التى تضطر الشاعر إليها اضطراراً بحكم الشعر .

وتبادل الرجلان أمير الجيوش طلائع بن رزيك من ناحية ، والأمير أسامة ابن منقذ من ناحية ثانية ، شتى الرسائل الشعرية فى هذا المعنى ، وكلها تصف موقعة

(١) الروضتين ص ١١٧ جـ ١

عسقلان وتنتهي بمدح نور الدين بالشجاعة والإقدام، وتحضه على مواصلة الحرب وعدم التوانى فيه. وانبرى شعراء مصر كذلك يمدحون وزيرهم الملك الصالح بن رزيك، ويشاركونه فى التغنى بما أحرزه الأسطول المصرى من النصر على العدو، وكان من أشهر الشعراء المصريين يومئذ (المهذب بن الزبير) وهو أبو على الحسن بن على بن الزبير أثنى عليه العماد الأصفهانى فى كتابه الخريدة ثناء عطرا، وأعجب بشعره، ومنه نونية رائعة مدح بها الصالح بن رزيك، وهنأه بانتصاره على الفرنج، ولم ينس فيها ذكر نور الدين بالرغم من أنه ملك سنى، والخلفاء المصريون الذين يشتغل بمدحهم المهذب شيعيون، ومطلع القصيدة قوله[1] :

أعلمت حين تجاور الحيَّان ... أن القلوبَ مواقد النيران
يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا ... حتى تصير مكسر الصلبان
فالشامُ ملكك قد ورثت بلاده ... عن قومك الماضين من غسَّان

وحدث فى أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة فى الشام، هدمت من حصون الصليبيين جزءا غير قليل، فانتهز الشاعر هذه الفرصة، واستغلها استغلالا شعريا حيث قال :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما ... بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما ... أوتيت من ملك ومن سلطان
والناس أجدر بالسجود إذا غدا ... لعلاك يسجد شامخ البنيان

والبيت الأخير لا ذكر له فى الروضتين، وإنما ذكره العماد فى الخريدة. وأحسب أن العماد ذكره أيضا وهو كاره له، لأن فيه معنى لا يحبه السنيون، لأنه من مألوف معانى الفاطميين. والشاعر هنا يخاطب الوزير الشيعى بما يحب، وذلك برغم أنه ليس شيعيا مثله، ولكنه سنى. وكذلك كان أخوه (الرشيد أحمد بن على بن الزبير) الذى قتله شاور صبرا فى سنة ٥٦٢ هـ، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه فى قصده[2] .

ولنعد إلى قصيدة المهذب فى مدح الصالح بن رزيك فمنها قوله أيضا :

---

(١) الخريدة جـ ١ ص ٦٢ والروضتين جـ ١ ص ١٤٧

(١) الروضتين جـ ١ ص ١٤٧

عجلت فى (تل العجول) قراهم ... (وهم لك الضيفان) بالذيفان [١]
لما أبوا ما فى الجفان قريتهم ... بصوارم سلت من الأجفان
وثللت فى يوم (العريش) عروشهم ... بشبا ضراب صادق وطعان
ولأنت تخضب كل بحر زاخر ... من تحارب بالنجيع القانى
حتى ترى دمهم وخضرة مائه ... كشقائق نثرت على الريحان
وكأن بحر الروم خلق وجهه ... وطفت عليه منابت المرجان

والشاعر فى هذه الأبيات من القصيدة يصور لنا الأعداء بأنهم ضيوف هذا البطل المصرى ، الذى لم يجد لقراهم غير السيوف التى سلت من إغمادها ، لكى تخضب البحر بدمائهم ، أو تنثر منه على صفحة هذا البحر قطعا حمراء ، كأنها شقائق الريحان أو منابت المرجان ، أو كأنها الخلوق الذى يتطيب به البحر ، كما يتطيب الناس بالطيب الجميل . ثم قال يصف الأسطول المصرى وما فعله يومئذ بالعدو :

ولقد أتى الأسطول حين غزا بما ... لم يأت فى حين من الأحيان
أحبب إلىّ بهاشوان [٢] أصبحت ... من فتكها ولها العداة شوانى
شبهن بالغربان فى ألوانها ... وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها عدد القتال وقد غدت ... فيها القنا عوضا عن الأشطان
فأتتك موقرة بسبيٍ بينه ... أسراهم مغلولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العدا ... فى كل بكر عندهم وعوان

فانظر إلى تلك السفن الحربية المصرية التى يبغضها الأعداء كل البغض لأنها تشبه الغربان فى السواد (وتشبهها كذلك فى الشؤم) . وكيف لا تكون شؤما عليهم وقد حصدتهم وصادتهم كما تصيد العقبان الكواسر صغار الطير ؟ ثم انظر إلى هذه السفن وقد ملأها الوزير المصرى بعدد القتال، التى زادت فيها على عدد الحبال، فعادت إليه هذه السفن وهى مملوءة بالسبى الذين غلت أعناقهم؟و بلغت الأغلال أذقانهم، فهم لا يستطيعون حراكا ولا فكاكا .

---

(١) الذيفان : السم الناقع .

(٢) شوان (الأولى) جمع شينى أو شينية، وهى السفينة الحربية الكبيرة . وشوانى (الثانية) جمع شانئة بمعنى كارهة ومبغضة ، والجناس واضح فى البيت .

ومضى الشاعر فى قصيدته هذه حتى أتى على ذكر الصداقة التى نشأت بين نور الدين ذلك الملك السنى العظيم ، وبين الصالح بن رزيك فقال :

وأعدت رسل (ابن القسيم) إليه فى شعبان كى يتلاءم الشعبان [1]

والفأل يشهد باسمه أن سوف يغـ دو الشام وهو عليكما قسمان

وأراك من بعد الشهيد أبا له وجعلته من أقرب الإخوان

والشاعر حريص فى هذه الأبيات على أن يقرب بين بطل مصر والشام ، وهو يتخذ من اسم نور الدين أو اسم جده (قسيم الدولة) فألا حسنا يشهد بأن البلاد الشامية ستصبح عما قريب قسمة عادلة بينهما ، وبذلك يبشر الشاعر سيده (الصالح بن رزيك) وهو مايغتبط به الصالح أعظم اغتباط ، وآية ذلك عند الشاعر أن ابن رزيك يتخذ من نور الدين أخا له ، بل أقرب الإخوان إليه [2] .

وما دام الشاعر قد وصل إلى نور الدين أو إلى بطل المسلمين الحقيقى فى تلك العصور فقد أتاح لنفسه فرصة مدحه ووصف بطولته فقال بعد ذلك مباشرة :

وهو الذى مازال يفعل فى العدا ما لم يكن ليعد فى الإمكان

قتل البرنس ومن عساه أعانه لما عسا فى البغى والعدوان [3]

وأرى البرية حين عاد برأسه مر الجنى يبدو على المران

وتعجبوا من زرقة فى طرفه فكأن فوق الرمح نصلا ثانى

فهذا هو نور الدين وقد طاح برأس أمير من أمراء الصليبيين ، فأظهر للناس كيف أن رمحه قد أثمر هذا الثمر المر العجيب ، وكيف أن عين هذا الامير الصليبى — وهى زرقاء اللون — ظهرت فوق الرمح كأنها نصل آخر ركب الفصل الأصلى للرمح . ! !

تلك نونية المهذب بن الزبير وهى طويلة ، أثبت العماد الأصفهانى جزءا كبيرا منها فى الخريدة .

---

(١) ابن القسيم : هو نور الدين محمود بن زنـكى بن آق سنقر الذى كان يلقب بقسيم الدولة .

(٢) مرجع الضمير فى قوله (وأراك من بعد الشهيد أبا له) : ربما كان عائدا على الشام . ومرجع الضمير فى قوله (وجعلته من أقرب الإخوان) : عائد لاشك إلى نور الدين .

(٣) مرجع الضمير فى (قتل) يعود على نور الدين بحسب رواية الروضتين — غير أن العماد فى الخريدة يعود بالضمير فى (قتل) على طلائع بن رزيك ، ويقول أنه نقل الأبيات المذكورة عن نسخة للمهذب ابن الزبير بخط يده .

غير أن فى ترتيب هذه القصيدة خلافا عند العماد لما عليه ترتيبها عند أبى شامة .

مهما يكن الخلاف فالذى لا شك فيه أن الشاعر هنا جعل المدح قسمة بين هذين البطلين ، وانتهز هذه الفرصة للتعبير عن العاطفة الدينية العليا ؛ وهى عاطفة المسلمين — شيعة وسنيين — ضد الصليب .

أما عن القصيدة فواضح أنه يعتمد اعتمادا كبيرا على الجناس ، ولكنه جناس مقبول، لا يؤذى المعنى، بل يزيده وضوحا فى النفس ، وعذوبة فى الجرس ، وجمالا فى موقعه من القلب .

. . .

وحسن أن ينهض الصالح بن رزيك الهمم لمحاربة الفرنج ، وحسن أن يجتهد حتى ينتصر عليهم فى عسقلان على هذا الوجه ، ولكن هذه النهضة الأخيرة من جانب هذا الوزير المصرى العظيم، كانت أشبه شىء باليقظة التى تسبق الرقاد الاخير، ذلك أن مصر تعرضت بعدها للمحنة الشديدة، التى اقترنت برجلين من رجالها ؛ وهما : شاور وضرغام ، وانتهت بوقوع الديار المصرية فريسة بين غريمين كانا يقفان لها بالمرصاد ؛ وهذان الغريمان هما نور الدين من ناحية ، والفرنج من ناحية ثانية .

وقبل الحديث عن هذه الفتنة نذكر أنه فى سنة ٥٥٨ هـ ، أعنى قبل أن يفكر نور الدين فى إرسال حملته الأولى على مصر بقيادة أسد الدين — طمع نور الدين فى أن يملك من الفرنج بعض الحصون . وحاول أن يحاصر بنفسه حصنا منيعا منها، يقال له (حصن الأكراد) ، وإنه لمشتغل بهذا الحصار — وإذا بصلبان الفرنج تظهر من وراء الجبل ، وخلفها جموعهم وخيولهم، تغير على المسلمين على حين غفلة ، وتصيبهم بهزيمة شديدة، فرقت جموعهم ، وكادت تودى بحياة زعيمهم ، لولا أن القدر أنقذه منهم ، وادخره لغاية لا يعلمها يومئذ إلا الله ، فغضب لذلك نور الدين وأقسم ليأخذن بثأره وثأر الإسلام منهم ، فجمع فلول جيشه ، وسار بهم نحو حمص ؛ وهى أقرب بلدة إلى الحصن ، وحاول الفرنج أن يذهبوا إليه فى حمص نفسها، ولكنهم لما رأوه بها قالوا فى أنفسهم : (إنه لم يفعل ذلك إلا وعنده ما يقوى به على أن يمنعنا،) فرجعوا من فورهم ، وآثروا العافية ، وبالفعل أذن نور الدين بالنفير العام فى المسلمين ،فلبى دعوته كثير من الملوك ،واجتمعوا

على حصن (حارم) ، حيث التقى بالفرنج بعد ثلاثة أشهر من هزيمته ، فكسرهم ، وانتقم لنفسه وللإسلام منهم شر انتقام ، وأسر من ملوكهم صاحب أنطاكية ، وصاحب طرابلس ، وابن بلدوين (جوسلين) ، ورئيس الروم [1]

وهناك فى حصن الأكراد أتاه شاعر نلتقى به لأول مرة ، هو أبو الفرج عبيد الله ابن أسعد الموصلى فألقى بين يديه قصيدة يمدحه بها ، ويعتذر فى الوقت نفسه عن هزيمته فى هذه الموقعة منها : [2]

ظبا المواضى وأطراف القنا الذبل ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله عز وعزم وبأس غير منتحل
وما يعيبك ما حازوه من سلب بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل
وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع إذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم لينفذ القدر المحتوم فى الأزل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر بما حواليه من عفر ومن وعل
بنى الأصافر ما نلتم بمكركم والمكر فى كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم غير الأراذل والأتباع والسفل

ومنها فى وصف جيش نور الدين :

جيش أصابتهم عين الكمال وما يخلو من العين إلا غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهمُ خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند أهونه البيض كالبيض والأدراع كالحلل
ملك بعيد من الأدناس ذو كلف بالصدق فى القول والإخلاص فى العمل

ثم قال يصف نور الدين نفسه وقد ثبت فى الموقعة فى أقل من عشرة من عسكره :

فقام فرد وقد ولت جحافله فكان من نفسه فى جحفل زجل
فى مشهد لو ليوث الغيل تشهده خرت لأذقانها من شدة الوهل
وسط العدا وحده ثبت الجنان وقد طارت قلوب على بعد من الوجل

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٢٨ .

يعود عنهم رويدا غير مكترث ... بهم وقد كر فيهم غير محتفل
يزداد قدما إليهم من تيقنه ... أن التأخر لا يحمى من الأجل
والله عونك فيما أنت مزمعه ... كما أعانك فى أيامك الأول
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض ... وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالى من طلى ملك ... وكم قرنت العوافى من قرى بطل
لانكبت سهمك الأقدار عن غرض ... ولا ثنت يدك الأيام عن أمل

وهى قصيدة طويلة ذكر منها أبو شامة ستة وثلاثين بيتا ، تمتاز جميعها بالجزالة فى اللفظ ، والفخامة فى المعنى ، وتهوين الهزيمة على نور الدين ، والتقليل من شأن النصر الذى أحرزه الصليبيون . كما تذكر المسلمين الذين شهدوا هذه الموقعة بأسلافهم من المسلمين الذين حاربوا فى جيش النبى عليه الصلاة والسلام . ومع هذا فقد هزموا فى وقعة (حنين) ، ثم نصرهم الله فى الوقائع التالية نصرا مبينا أضاع على الكافرين ثمرة انتصارهم الأول ، وأفقدهم قيمته إلى الأبد .

قال أبو شامه : (١)

حاول ابن أسعد فى هذه القصيدة ماحاول المتنبى فى قوله :

« غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع »

فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ، ومدحهم وهم المنهزمون ، وقد أحسنا معا — عفا الله عنهما — ثم قال :

وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل ، وشاعر مفلق ، كان مدرسا بحمص ، يعرف (بابن الدهان) ، وله ترجمة فى تاريخ دمشق ، وذكره العماد الكاتب فى خريدته ، فأحسن ذكره ، وأكثر الثناء على علمه وشعره .. الخ

* * *

أما أسد الدين شيركوه ، فقد ذهب فى العام التالى لذلك أعنى سنة ٥٥٩ هـ على رأس حملته الأولى إلى مصر ، استجابة منه أولا لطلب شاور إذ استعان عليه غريمه ضرغام بالفرنج ، ولما وصل شيركوه إلى مصر قتل ضرغام ، ووطد قدم شاور فى الوزارة المصرية ، وعاد إلى دمشق .

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ١٢٩ .

ثم أتى فى حملة أخرى إلى الديار المصرية ، يريد فى هذه المرة امتلاكها ، ولكنه لم يفلح فى أخذها ، فعاد إليها فى حملة ثالثة وصلت إلى مصر ، وكان أماليك (عمورى) ملك بيت المقدس سبقه إلى محاصرتها ، حتى أتى شيركوه ، فأزاله عنها ، ودخل القاهرة دخول الظافر المنتصر .

وبلغت هذه الأنباء السارة كلها دمشق ، فطربت لها ، وانتظر الشعراء عودة شيركوه إليها لمدحه وتهنئته ، وكان منهم إذ ذاك الشاعر الكاتب (عماد الدين الأصفهانى) الذى نظم القصائد الكبيرة ، يمدح بها أسد الدين شيركوه وأخاه نجم الدين أيوب ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف .

أما القصيدة التى مدح بها شيركوه فمنها قوله (١) :

بلغتَ بالجد ما لا يبلغ البشر ... ونلت ما عجزت عن نيله القُدَر
من يهتدى للذى أنت اهتديت له ... ومن له مثل ما أثرته أثر
أسِرت أم بسراك الأرض قد طويت ... فأنت إسكندر فى السير أم خضر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها ... إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته ... وزاد فوق الذى جاءت به السير
لو فى زمان رسول الله كنتَ أتت ... فى هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والإقدام منفردا ... فقل لنا أعلىٌّ أنت أم عمر ؟
إسكندر ذكروا أخبار حكمته ... ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته ... وصار فيك عيانا ذلك الخبر
افخر فإن ملوك الأرض أذهلهم ... ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
يستعظمون الذى أدركته عجبا ... وذاك فى جنب ما نرجوه محتقر

ومنها :

يسَّرتَ فتح بلاد كان أيسرها ... لغير رأيك قفلا فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت ... مآرب لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتديا ... فى أمره كيف لا يقوى له المرَر

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٥.

يرى برأيك ما فى الملك يبرمه فأنت منه بحيث السمع والبصر
لقد بغت فئة الإفرنج فانتصفت منها بأقدامك الهندية البتر
غرست فى أرض مصر من جسومهم أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع فى مقام وغى به الحديد غمام والدم المطر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
أفنت سيوفك من لاقت فإن تركت قوما فهم نفر من قبلها نفروا
والساكنون القصور القاهرية قد نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاور شاوروه فى مكايدهم فكاده الكيد لما خانه الحذر
كانوا من الرعب موتى فى جلودهم وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
وإن من شيركوه الشرك منخزل والكفر منخذل والدين منتصر
وكيف يخذل جيش أنت مالكه والقائدان له التأييد والظفر

وأما القصيدة التى ألقاها العماد يومئذ بين يدى نجم الدين أيوب أخى أسد الدين شيركوه فهى (١) :

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب ولا الفراق إلى عيشى بمنسوب
ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى كرها بما ليس يا محبوب محبوبى
أرجو إيابى إليكم ظافرا عجلا فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
موثق الرأى ماضى العزم مرتفع على الأعاجم مجدا والأعاريب
أحبك الله إذا لازمت نجدته على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك صدقا منهما اعتصما بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما هامان فى يومى وغى وقرى تعوّدا ضربَ هام أو عراقيب
غدا يشبان فى الكفار نار وغى بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدًا تحظى النفوس بتأنيس وتطييب
ويستقر بمصر يوسف وبه تقر بعد التنائى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها بإخوته والله يجمعهم من غير تثريب

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٤ .

وأما القصيدة التى مدح بها صلاح الدين إذ ذاك فبدأت بقوله[1] :

كيف قلتم بمقلتيه فتور ... وأراها بلا فتور تجور
مستجير جورى وأنى منه ... بابن أيوب يوسف مستجير
فضله فى يد الزمان سوار ... مثلما رأيه على الملك سور
كـــرم سابغ وجود عميم ... وندى سائغ وفضل غزير
أنت من لم يزل يحن إليـــه ... وهو فى المهد سرجه والسرير
لاذ بالنيل (شاور) مثل فرعو ... ن فذل اللاجى وعز العبور
والذى يدعى الإمامة بالقا ... هرة ارتاع ، إنه مقهور
وغدا الملك خائفا من سطاكم ... ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنوا (الهمفرى) هانوا ففروا ... ومن الأسد كل كلب فرور
إنمـــا كان للكلاب عواء ... حيثما كان للأسود زئير
ذا (فليب) عند الفرار سليب ... فهو بالرعب مطلق مأسور
لم يبقوا سوى الأصاغر للسّـــبى فودوا لو ان الكبير صغير
قد حميت الإسكندرية منهـــم ... ورحى من بها عليهم تدور
حاصروها وما الذى بان من ذبّك عنها وحفظها محصور
كحصار الأحزاب (طيبة) قدما ... ونبى الهدى بها منصور
فاشكر الله حيث أولاك نصرا ... فهو نعم المولى ونعم النصير

ومنها :

ورقبنا كالعبيد عودك فاليو ... مَ به للأنام عيـــد كبير
عاد من مصر يوسف وإلى يعـ ... قوب بالتهنئات جاء البشير
فلأيوب من إياب صلاح الد ... ين يوم به توفى النـــذور

ومنها :

فاســـتردوا حق الإمامة ممن ... خان منهـــا فإنه مستعير
وافترعها بكرا لها بمدى الدهـــر رواح فى مدحكم وبكور

---

[1] الروضتين ج ١ ص ١٤٦ .

أنا سيرت طالع العزم منى   وإلى قصدك انتهى التسيير
وأرى خاطرى لمدحك إلفا   إنما يألف الخطير الخطير!

وهذه القصائد كلها غنية عن التعليق بما عبرت فأحسنت التعبير عن معان إسلامية مأخوذة من التاريخ الإسلامى على عهد النبى ، ومعان سنية يراد بها التشفى من الخلافة الفاطمية التى زالت على يد صلاح الدين .

ومنذ ذلك الوقت — أعنى فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة — اشتدت الصلة بين نور الدين محمود وعماد الدين الأصفهانى الكاتب ، فولاه نور الدين ديوان الإنشاء بالشام ، بدلا من أبى بشر شاكر بن عبدالله ، الذى استعفى من الخدمة يومئذ ولازم منزله .

. . .

واشتغل نور الدين يومئذ بفتح حصون كثيرة منها حصن (منبج) وقلعة (نجم) وقلعة (جعبر) وتولى العماد الأصفهانى تهنئته بجميع هذه الفتوح واحدا بعد الآخر .

فقال فى فتح منبج شعرا منه (١)

بشرى الممالك فتح قلعة منبج   فليهن هذا النصر كل متوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به   فى الملك يفتح كل باب مرتج
أبشر (فبيت القدس) يتلو (منبجا)   ولمنبج لسواه كالأنموذج
قد سرت فى الإسلام أحسن سيرة   مأثورة وسلكت أوضح منهج

وقال فى فتح قلعة نجم شعرا منه : (٢)

أدركت من أمر الزمان المشتهى   وبلغت من نيل الأمانى المنتهى
يامحيي العدل الذى فى ظله   من عدله رعت الأسود مع المها
مولى الورى مولى الندى معلى الهدى   مردى العدا مسدى الجدا معطى اللها
يامن أطاع الله فى خلواته   متأدبا من خوفه متأوها
ماصين عنك الصين لو حاولتها   والمشرقان فكيف منبج والرها
فقت الملوك سماحة وحماسة   حتى عدمنا فيهم لك مشبها

وفى قلعة جعبر قال العماد :

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٥٠ .
(٢) الروضتين ج ١ ص ١٥١ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ١٥٣ ،

أسلم لبكر الفتوح مفترعا ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك غدا بمبء الخطوب مضطلعا
يا محيي العدل بعد ميتته ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذى قمع الشـــرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان فى العفاف وفى الـ ملك وتحكى بزهدك اليسعا

ويسير علينا أن نلاحظ منذ الآن تهالك العماد الأصفهانى على البديع بوجه عام، والجناس منه بوجه خاص، فانظر إلى قوله هنا:

مولى الورى مولى الندى معلى الهدى مردى العدا مسدى الجدا معطى اللها

وإلى قوله: (ماصين عنك الصين)، وقوله (فقت الملوك سماحة وحماسة)، ونحو ذلك، تعلم أن الرجل مفتون بهذا التجنيس، الذى أصبح أول مايمتاز بهأسلوبه الأدبى فى الشعر وفى النثر معا كما سنرى بعد.

ونعود إلى مصر وفيها أسد الدين شيركوه ومعهابن أخيه صلاح الدين، وقد أخذا يفكران جديا فى قتل شاور، للتخلص من مكايده، وتمكنا من تنفيذ ذلك بأمر الخليفة الفاطمى نفسه.

وفرح الناس فى موت (شاور)، وعبر (عرقلة) الشاعر عن ذلك بقوله [١]:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة له شيركوه العـــاضدى وزير
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقـــد قال قائل على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قـــبرة ولا زال فيها منكر ونكير!

ثم تقدم الخليفة الفاطمى بخلعة الوزارة لشيركوه، فقبلها منهشاكرا وأصبح وزيرا لخليفة فاطمى. وتابعا فى نفس الوقت لنور الدين وهو ملك سنى؛ ووصلت أنباء الوزارة الإسلامية إلى دمشق، فقام الناس فيها وقعدوا، وأخذ الشعراء يرسلون قصائدهم إلى شيركوه، تهنئة له بالوزارة حينا، وتحريضا له على إعادة الخطبةلبنى العباس حينا آخر. وكان منهم عماد الدين الأصفهانى الذى بعث إلى شيركوه بقصيدة،منهاقوله: [٢]

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٧.

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٩.

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب
تحل من ملك مصر رتبة قصرت ... عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها ... ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
أنت الذى هو فرد من بسالته ... والدين من عزمه فى جحفل لجب
زارت بنى الأصفر البيض التى لقيت ... حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا ... فى شكرنا مابه الإسلام منك حبى
شكا إليك بنو الإسلام يتمهم ... فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
فى كل دار من الإفرنج نادبة ... بما دهاهم فقد باتوا على ندب
من شر شاور أنقذت العباد فكم ... وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذى أطمع الإفرنج فى بلد الإ ... سلام حتى سعوا للقصد والطلب
وإن ذلك عند الله محتسب ... فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب
وما غضبت لدين الله منتقما ... إلا لنيل رضا الرحمن بالغضب

منذ ذلك التاريخ والعماد الأصفهانى يؤرخ لمصر سياسيا فى شعره ونثره، ولا يدع حادثة من حوادثها تمر دون أن يشير إليها بهذا الشعر أو النثر ، ولا يترك فرصة تمر أيضا إلا ويدعو صلاح الدين إلى المضى فى جهاده ضد الصليبيين ، حتى يمن الله على المسلمين بطردهم من فلسطين .

وانظر إلى العماد الأصفهانى فى نهاية هذه القصيدة البائية ألتى بأول قنبلة دكت عرش الخلافة الفاطمية وأودت بها ؛ إذ يوعز العماد فى هذه النهاية إلى شيركوه بقوله :

رد الخلافة عباسية ودع الد ... عى فيها يصادف شر منقلب!!
لاتقطعن ذنب الأفعى وترسلها ... فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب!

ثم قدم العماد حتى أتى مولاه نور الدين ، فألقى بين يديه هذه القصيدة يهنئه فيها بملك مصر ومنها قوله : (١)

بملك مصر أهنى مالك الأمم ... فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما ... وهل بعدلك شىء غير ملتئم

(١) الروضتين ج ١ ص ١٧٤ .

لله درك نور الدين من ملك … بالعزم مفتتح بالنصر مختتم
بما من العدل والإحسان تنشره … تخاف ربك خوف المذنب الأثم(١)

ومنها فى وصف الجيوش النورية :

لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت … من العدو بحد الصارم الخذم
أعانها الله فى إطفاء جمر أذى … من شر شاور فى الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها … للأمن والعز والإقبال كالحرم
والسنة اتسقت والبدعة امحقت … وعاودت دولة الإحسان والكرم
ملوكها لك صاروا أعبدا وغدا … بها عبيدك أملاكا ذوى حرم
لله درك نور الدين من ملك … عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها … بكشف دولتهم لحما على وضم
فالنيل ملتطم جار على خجل … جارا لبحر نوال منك ملتطم
اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم … واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب … على البغاث وثوب الأجدل القطم
فملكُ مصر وملكُ الشام قد نُظما … فى عقد عز من الإسلام منتظم
محمود الملكُ الغازى يسوسهما … بالفضل والعدل والإفضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبدا … محمود الملكُ محمـــود بكل فم
فأشك (٢) مصر وأظهر عز سنتها … كم تعتفى وإلى كم تشتكى وكم

فقد هنأ العماد مولاه نور الدين أصدق تهنئه بهذا الفتح العظيم ، وهنأ جيشه بما أظهر من شجاعة وكفاية غلبت شاور على أمره ، وأنقذت مصر من شره ، فأمنت بعد خوف ، وعزت بعد ذل ، وانتظم بها وبالشام عقد من عقود العز والمتعة والفخار للإسلام ، وهكذا سمع الملك العادل نور الدين لشكاية مصر من شاور اللعين ، فأزال شكيتها ، وطيب خاطرها ، وأظهر سنتها ، وأزال تشيعها . ولم يبق على هذا العاهل الكبير نور الدين إلا أن يلقى جموع الصليبيين ، وأن يهزمهم ويطهر القدس منهم ومن نجسهم .

---

(١) ص ١٧٥

(٢) أشك مصر أى أزل شكايتها وخذ لها ممن ظلمها ما يرضيها . وتعتفى تطلب منك الفضل .

وقدم إلى نور الدين شاعر آخر هو (علم الدين الشاتانى) ، جاء يهنىء نور الدين بفتح مصر ويقول [١] :

ما نال شأوك فى المعالى سنجر كلا ولا كسرى ولا إسكندر
يا خير من ركب الجياد وخاض فى لجج المنايا والأسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر وصار من أتباعه من جده المستنصر
والمستضى بالله معتمد به وبجده وبجده مستظهر
أو سد بالشام الثغور محاميا للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكى فيروى الأرض بحر دموعه والجو من أنفاسه يتسعر
أو ما أبوك بسيفه فتح (الرها) والأسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كماتها فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
فلكم على كل الملوك مزية لوقائع مشهورة لا تنكر
وإذا عددنا للأنام مناقبا فعليك قبل الكل يثنى الخنصر

وليس فى هذه الأبيات جديد من المعانى غير هذا المعنى الذى يقول فيه الشاعر لنور الدين أنه أصبح حائزاً لمصر ، وأصبح الخلفاء المصريون من أتباعه ، وأصبح الخلفاء العباسيون من المعتدين به والمفاخرين بأعماله ، وأنه ورث المجد عن أبيه العظيم (فاتح الرها) .

منذ ذلك الحين ، أعنى منذ ملك مصر نور الدين ، انتقل مركز الجاذبية الصليبية إلى الديار المصرية ، وتحولت أنظار الفرنج جميعاً إلى مصر ، دون أن يبذلوا فيها جهد المستميت ، فعساهم يظفرون بهذه الديار ، أو عسى أن تأتيهم النجدة من وراء البحار ، فيطردون منها هؤلاء الأتراك الذين استقروا بها ، وبالفعل راسل فرنج الساحل إخوانهم فيما وراء البحار ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، ونزل الفرنج يومئذ دمياط ، وحاصروا أهلها . فأسرع صلاح الدين إليها ، ورفع الحصار عنها ، وأرسل إليه نور الدين فى نفس الوقت إمدادات كثيرة ، ولم يكتف

(١) الروضتين ج ١ ص ١٧٥ .

بذلك حتى شغل الفرنج فى حصونهم التى أخلوها ، وذهبوا إلى دمياط ، فلم يجد الفرنج بدا من العودة إلى بلادهم وترك دمياط .

وأخذ صلاح الدين بعدهذا يفكر جديا فى الطريقة التى يسقط بها الخلافة المصرية ، وتدبر الأمر مع صديقه القاضى الفاضل وأبيه نجم الدين أيوب وفقيه كبير من فقهاء السنة اسمه الخبوشانى . وأحكم الأربعة خطتهم، ونزلوا الجامع فى يوم جمعة، وقطعوا خطبة العاضد الفاطمى، وكان على فراش الموت، وخطبوا للخليفة المستضىء العباسى، وكتبت البشائر بذلك إلى نور الدين بدمشق . وهناك أمر نور الدين كاتبه العماد الأصفهانى بكتابة البشائر إلى ديوان الخلافة العباسية ببغداد ، وفرح الناس فرحا عظيما بالشام والعراق ، وكان لهذا الحادث العظيم صدىً كبير ، وانبرى الشعراء فى مصر والشام ينظمون الشعر فى التهنئة

فأما فى (دمشق) فقد طرب الناس طربا كبيرا لهذه الأنباء ، وهذا هو العماد يرفع عقيرته بقوله : [١] .

قد خطبنا للمستضىء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
وأشعنا بها شعار بنى العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعى يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمى فى أرض مصر
فاغتدى الدين ثابت الركن فى مصر محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الأغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا قبله بين منكر ومقر
هو فتح بكر ودون البرايا خصنا الله بافتراع البكر
ونشرنا أعلامنا السود قهرا للعدا الزرق بالمنايا الحمر
والذى يدعى الأمامة بالقاهرة انحط فى حضيض القهر
خانه الدهر فى مناه ولا يطمع ذو اللب فى وفاء الدهر
مايقام الإمام إلا بحق ماتحاز الحسناء إلا بمهر!

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٩٨ .

خلفاء الهدى سراة بنى العباس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظافر مستقيم ظاهر قوةً قوى الظهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد وبلوغ المراد عقبى الصبر
دام نصر الهدى بملك بنى العباس حتى يقوم يوم الحشر

ذلك هو نشيد الفرح والسرور الذى نظمه العماد الأصفهانى ، مسجلا به تلك الحادثة العظمى ، وهى حادثة زوال الخلافة الفاطمية ، وعودة مصر مرة أخرى إلى حوزة الخلافة العباسية . وذلك كله تمهيد لطرد الفرنج من القدس ، وإعادتها إسلامية عباسية ، يتألف منها ومن غيرها من البلاد الإسلامية كلها ذلك الملك العباسى الذى يتمنى الشاعر على الدهر أن يقوم إلى يوم الحشر . ولقد وفق العماد فى هذه القصيدة أيضا إلى الوزن الشعرى الذى يتفق وهذا المعنى .

وأما فى (مصر) فقد وفد (العرقلة) الشاعر إلى صلاح الدين ، وأنشده قصيدة منها قوله . (١) ص ٢٠٠

أصبح الملك بعد آل على مشرقا بالملوك من آل شاذى (٢)
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو م ومصر تزهو على بغداذ
ما حووها إلا بحزم وعزم وصليل الفولاذ فى الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا ن بها كالخصيب والأستاذ (٣)

(١) وفى هذه السنة وهى سنة ٥٦٧ توفى عرقلة صاحب هذه القصيدة ، وهو حسان بن نمير الكلبى أبو الندى الشاعر المشهور بعرقلة الدمشقى . كان شيخا أعور خليعا مطبوعا لطيفا ظريفا ، اختص بالسلطان صلاح الدين ، وله فيه مدائح ، وله شعر رائق كثير ، منه قوله :

كتم الهوى فوشت عليه دموعه من حر نار تحتويه ضلوعه
صب تشاغل بالربيع وزهره زمنا وفى وجه الحبيب ربيعه
يالائمى فيمن تمنع وصله عن صبه أحلى الهوى ممنوعه
كيف التخلص إن تجنى أو جنا والحسن شىء ما يراد شفيعه
قال العواذل ما الذى استحسنته منه وما يسبيك قلت : جميعه

[النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٤ — ٦٥ طبعة دار الكتب المصرية] .

(٢) يقصد بآل شاذى بنى أيوب ، وبآل على : الفاطميين .

(٣) يعنى بالأستاذ : كافورا الإخشيدى .

وفى هذه الأبيات القليلة تعريض بالدول الزائلة جميعها ، وترحيب بالدولة التى حلت مكانها . وانظر هنا بوجه خاص قوله :

ماحووها إلا بحزم وعزم   وصليل الفولاذ فى الفولاذ

فإنه يشعرك بهول الحرب التى انتهت بسقوط الفاطميين، وانهزامهم لجند نورالدين .

وأما فى (بغداد) فقد كان لهذه الحادثة السياسية الكبرى صدى كبير ، وذلك منذ بعث نور الدين يبشر بها الخليفة العباسى على يد شهاب الدين بن أبى عصرون . فلما وصل هذا إلى الديوان العزيز ، استقبله الشعراء يحتفلون بتهنئة الخلافة، وفيهم شاعر يقال له (ابن الحرستانى) هنأ الخليفة العباسى بقصيدة مطلعها :[1]

جاء البشير فسر الناس وابتهجوا   فما على ذى سرور بعدها حرج

وكان فى بغداد شاعر فحل اسمه (ابن التعاويذى) أنفذ إلى صلاح الدين قصيدتين فى مدحه ومدح المستضىء ، ومطلع الأولى منهما قوله :

قل للسحاب إذا حدته يد الجنائب فارجحن

ومطلع الثانية قوله :

حتام أرضى فى هواك وتغضب   وإلى متى تجنى على وتعتب[2]

ما كان لى لولا ملالك زلة   لما مللت زعمت أنى مذنب

خذ فى أفانين الصدود فإن لى   قلبا على العلات لا يتقلب

وهما قصيدتان رائعتان من قصائد هذا الشاعر ، تستحقان دراسة خاصة لولا أنهما لا تعتبران هنا من الأدب الصليبى الخالص، لاقتصارهما على مدح صلاح الدين دون ذكر وقائعه، على عادة الشعراء الذين مروا بنا .

وهكذا تم لصلاح الدين إزالة الدولة الفاطمية ، فرثاها من رثاها من شعرائها المخلصين لها . وكان من أخلص هؤلاء جميعا شاعر يقال له (عمارة اليمنى) أكثر من بكائه على هذه الدولة فى عدة قصائد ، منها القصيدة المشهورة التى أولها[3] :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حلى الحسن بالعطل

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٤ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٣) ص ٢٢٣ .

جدعت مارنه الأقى فأنفك لا ينفك ما بين نقص الشين والخجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتنا فى أكرم الدول

وليس هنا كذلك موضع الحديث عن هذه القصيدة العظيمة التى لا تمت بصلة متينة لموضوع الآداب الصليبية .

* * *

وفرغ هؤلاء من البكاء وهؤلاء من الغناء ، ورجع نور الدين يطلب إلى تابعه صلاح الدين أن يبعث إليه بالعساكر المصرية لمحاربة الفرنج الذين استوطنوا المنطقة التى تفصل بينهما، وهى منطقة (الكرك)، وكان عليها أمير من أقسى أمراء الفرنج وهو أرناط Renauld غير أن صلاح الدين — وكان يفكر حينئذ فى أن يستقل بملك مصر عن سيده نور الدين — قدر أنه إذا أعانه على طرد الفرنج من هذه المنطقة الفاصلة بينهما ، فقد أخلى الطريق بينه وبين نور الدين ، يأتى إليه بنفسه متى شاء ليسترد ملكه منه . من أجل ذلك اعتذر صلاح الدين لمولاه عن عجزه عن إرسال العساكر المصرية ، وذلك بسبب سوء الأحوال الداخلية فى مصر . ومن هنا بدأت الوحشة بين الرجلين .

ومع ذلك فقد كان على صلاح الدين أن يلقى الرعب فى قلب أرناط ، حتى لا يعترض قوافل التجار والحجاج من المسلمين ، الذين يريدون الوصول إلى مصر ، فكانت أولى غزواته ضد الفرنج غزوة له أغار فيها على حصون (الكرك) التى مر ذكرها .

وكان من عادة نور الدين أنه فى الوقت الذى يغير فيه صلاح الدين على حصون الصليبيين، يأخذ هو من جانبه فى إزعاجهم، لعله يظفر ببعض قلاعهم ، أو يطيح ببعض رءوسهم، أو بشىء من أموالهم وسلاحهم . ومن أجل هذا أغار نور الدين فى ذلك الحين على حصن (مرعش) فأخذه ، ثم على مدينة (عشترا) فانتزعها من صاحبها : وكان العماد الأصفهانى فى ركابه . فأنشد قائلا [١] :

عُقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان
يا سالب التيجان من أربابها حزت الفخار على ذوى التيجان

---

(١) ص ٢٠٧

يا واحدا فى الفضل غير مشارك ... أقسمت ما لك فى البسيطة ثان
أحلى أمانيك الجهـــاد وإنه ... لك مؤذن أبداً بـكل أمان
كم وقعـة لك بالفرنج حديثها ... قد سار فى الآذان والبلدان
قمَّصت قومصهم رداء من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملـكت رق ملوكهم وتركتهم ... بالذل فى الأقيـاد والأشجان
وجعلت فى أعنـاقهم أغلالهم ... وسَحبتهم هونا على الأذقان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا ... طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا ... فى حيرة وأتوا إلى حوران
فهزمتهم بالرأى قبـل لقائهم ... والرأى قبل شجاعة الشجعان
لم تلقهم ثقـة بقوة شوكة ... لـكن وثقت بنصرة الرحمن
دانت لك الدنيـا فقاصيها إذا ... حققتـه لنفـاذ أمرك دان
فمن العراق إلى الشآم إلى ذرا ... مصر إلى قوص إلى أسوان

قال أبو شامة : وهى قصيدة طويلة وصف فيها أمراء نور الدين الذين حضروا معه الجهاد ومدحهم ، وفى نهايتها يقول العماد :

أنت الذى دون الملوك وجدته ... ملآن من عرف ومن عرفان
فى بأس عمرو فى بسالة حيدر ... فى نطق قس فى تقى سلمان
سير لو ان الوحى ينزل أنزلت ... فى شأنها سور من القرآن

وهذه القصيدة من قصائد العماد فى شبابه تدل على أنه كان شديد الكلف بأبى تمام ، يحب أن يحاكيه فى أشعاره محاكاة لا تصرف فيها أحيانا ، كما فى قوله :

فى بأس عمرو فى بسالة حيدر ... فى نطق قس فى تقى سلمان

فهو تقليد دقيق لبيت مشهور من أبيات أبى تمام فيه قوله :

« فى حلم أحنف فى ذكاء إياس »

رأى صلاح الدين بعد ذلك أن يحصن ملكه ضد الفاطميين ، بل ضد نور الدين، فعهد إلى إخوته فى فتح بلاد النوبة واليمن والمغرب . أما النوبة فعلى يد أخيه شمس الدولة، وأما اليمن فعلى يد أخيه تورانشاه . وأما المغرب فعلى يد خادمه بهاء الدين قراقوش .

وبينما كان صلاح الدين يفكر فى هذه الفتوح ر الدين يكرر عليه الطلب فى ضرورة إنفاذ العساكر المصرية ، فيكرر عليه صلاح الدين الإعتذار عن ذلك لفساد الأمور الداخلية ، وما زال الرجلان على هذه الحال، حتى ضاق نور الدين ذرعا بصلاح الدين ، وفكر جديا فى غزو مصر من أجله .

وإنه لعلى هذا القصد ، وإذا بالمنية تقطع عليه هذا العزم . فمات هذا الرجل العظيم ، ورحل عن هذه الدنيا كما قال العماد الأصفهانى :

يا ملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلة فاخرة (١)
ملكت دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة !

* * *

وهكذا انتهت تلك الفترة الثانية من فترات الحروب الصليبية ، وهى فترة اقترنت — كما رأينا — بنهضة عظيمة فى الشعر ، وتنافس كبير بين شعراء الأقاليم الإسلامية التى كان يعنيها هذا الأمر . فلمعت فى سماء الأدب الصليبى أسماء عدد ضخم من شعراء مصر والشام والعراق . وكان لمصر نصيب لا بأس به من البلاء الحسن فى ميدان الحرب ، ونصيب لا ننكر ان له من البلاء الحسن فى ميدان الشعر . وحسبنا فى ختام هذا الفصل أن نشيد بهمة الملك الصالح طلائع بن رزيك ؛ وهو ذلك الوزير المصرى الشهم ، الذى لو طال به العمر ، وواتته الظروف السياسية فى مصر ، لأظهر من الهمة فى محاربة الصليبيين ما كان خليقا أن يسطر له فى كتاب الحروب الصليبية أروع الصفحات . ومن يدرى لو أن الأمور استقامت لطلائع بن رزيك فى مصر ، لنهض وحده بالعبء ، واستقل يومئذ بطرد الصليبيين من القدس ، ولما احتاج الأمر يومئذ إلى نور الدين وأسد الدين وصلاح الدين ، ولسيطرت الخلافه الفاطمية على الشرق الإسلامى كله ، وغيرت بذلك وجه التاريخ السياسى والأدبى والاجتماعى والدينى فى هذا الشرق .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٨٢ .

الفصل الخامس

المرحلة الثالثة

من قصة الحروب الصليبية

والقدس هى مركز الجاذبية الصليبية فى هـذا الشوط . ذلك أن طرد الفرنج من هذا الجزء من فلسطين كان الهدف الأول لصلاح الدين . لأنه متى طردهم من البلاد التى أتو من وراء البحار لامتلاكها ، فقد هانت عليهم بقية الإمارات اللاتينية التى حصلوا عليها .

أجل ، أخذ صلاح الدين يفكر فى هذا الوضع الجديد ، فقد وجد أنه أصبح أكبر أمراء الإسلام سناً ، وأنه لا ينبغى له بحكم سنه من جهة ، وبحكم علاقته بنور الدين ، وهى علاقة التلميذ بأستاذه — من جهة ثانية ، وبحكم تقديره للهدف الأسمى من أهداف الجهاد ضد الصليبيين — وهو طردهم من الشرق كله من جهة ثالثة — نقول أن صلاح الدين وجد أنه لا يصح له بحكم هذه الأمور كلها أن يترك الشام فى يد غلام صغير ، وهو ابن الملك الصالح نور الدين يلتف حوله أمراء أبيه ، ويعمل كل منهم لمصلحته لا لمصلحة الغلام ، ولا لمصلحة الشام ، ولا لمصلحة الهدف الأسمى للمسلمين ، وهو طرد الفرنج .

من أجل ذلك صح عزم صلاح الدين على أخذ دمشق ، فخاف الغلام والأمراء هناك خوفا عظيما لهذا العزم ، وتأهبوا له . وإنهم لفى هـذا الخوف ، وإذا بالفرنج يغيرون على مدينة (بانياس) ، وإذا بالأمراء يتفقون معهم على جزية سنوية يحملونها إليهم . فذلك فى رأيهم أسلم عاقبة لهم من الاستغاثة بصلاح الدين !

إذ ذاك استشاط السلطان صلاح الدين غضبا من هذه الإهانة التى لحقت الشرف الإسلامى ، واتخذ منها ذريعة إلى سرعة الإغارة على دمشق ، وفتح حصون بزاعة ومنبج وعزاز فى طريقه إليها . ولما علم الأمراء فى دمشق بمسير السلطان إليهم هربوا بالغلام إلى حلب ، وهناك فكروا جميعا فى أن يستعينوا على السلطان بجميع أعدائه

بالشام ، وهم الإسماعيلية فى الجبل ، والمواصلة الذين خافوا على أنفسهم كما خاف من قبل أهل حلب . ومع هذا وذاك لم يقدر واحد من هؤلاء الأعداء أن يصيب منه مغنما برغم أنهم استعدوا عليه كذلك الفرنج .

وأخيرا استقر رأيهم على ملاينة السلطان ، والحصول منه من طريق هذه الملاينة على أضعاف ما يحصلون عليه من طريق الأخذ والرد والمخاشنة ، فتضرعوا إليه أن يترك لهم حلب ، ثم سألوه فى ضراعة كذلك أن يترك لهم عزاز ، فأجابهم إلى طلبهم ورجع عن بلادهم قاصدا مصر .

ولما علم الفرنج بمغيب السلطان عن الشام — وكانت بينه وبينهم هدنة — غدر به من أمرائهم ارناط ، وهجم على بعض المدن التى للإسلام ، فاضطر صلاح الدين إلى محاربته فى جهة يقال لها (الرملة) ، انتصر فيها أرناط على السلطان ، وعاد السلطان بعدها إلى مصر ، كى يستعد فيها للحرب من جديد . وما هو إلا أن يلتقى السلطان بالفرنج فى موقعة (مرج عيون) حتى يمن الله بنصره على المسلمين ، ويأسر السلطان فى هذه الموقعة رءوس الصليبيين ، وفيهم ريموند صاحب طرابلس .

ثم يترك السلطان مرج عيون ويتجه بجنده إلى حصن من أمنع حصون الصليبيين ، كانت تقيم به فرقة من أشد الفرق الصليبية إلقاء للرعب فى قلوب المسلمين ، وكان يطلق على هذا الحصن اسم (بيت الأحزان) أو (بيت يعقوب) أو (حصن المخاض) .

وإذ ذاك لا يرى الفرنج بدا من طلب الهدنة ، فيجيبهم السلطان إليها ، ويعقد معهم الصلح الذى كان فى ذلك الوقت صلحا عاما دخل فيه الفرنج والمشارقة والروم وأهل حلب والموصل وديار بكر . كل ذلك والشعراء من وراء السلطان يسجلون انتصاراته ، ويشيدون بذكر وقائعه ومعاهداته كما سنرى بعد .

* * *

ثم حدث فى السياسة الشامية حادث هام ، هو موت الغلام ، وهو هنا الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وتنازع الأمراء النورية على ملكه ، ففكر السلطان صلاح الدين فى قصد دمشق ، وخرج فى موكبه من مصر إلى الشام حيث قضى المدة الباقية من حياته فى

جهاد مرير ضد المسلمين والصليبيين ، إذ وضع لنفسه من ذلك الحين سياسة تقوم على أمرين :
أولهما — توحيد كلمة الإسلام . وثانيهما — محاربة الفرنج .

فأما الأمر الأول ، فقد صبر صلاح الدين حتى انقضت الهدنة التى بينه وبين الفرنج وأهل حلب ، ثم بدأ بالإغارة على حلب فأخذها ، وكان سروره عظيما بها ، إذ علا يومئذ قلعة من قلاعها ، وسمعه الناس يقول : « والله ما سرنى فتح مدينة كما سرنى فتح هذه المدينة . الآن تبينت أنى ملك البلاد وأتغلب بإذن الله على الفرنج » .

وكما سقطت حلب فى يد السلطان ، فكذلك سقطت (الموصل) فى يده ، فاطمأن بذلك على الجزء الشمالى من الممالك الإسلامية .

ثم حدث أيضا أن مات فى ذلك الحين صاحب إرمينية ، ولم يترك وارثا لملكه ، فأرسل أهل هذه المملكة إلى السلطان فى أن يكون مالكا لها ، فقبل ذلك . ثم أغار السلطان بعدئذ على (الكرك) ، وأخذها من يد صاحبها أرناط ، وفرح المسلمون فرحا عظيما بهذا الفتح الجليل ، وبه كذلك اطمأن صلاح الدين على الجزء الجنوبى من الممالك الإسلامية .

وهكذا أصبح ملك صلاح الدين عظيما ، يحد ببرقة وما حولها غربا ، واليمن وبلاد النوبة جنوبا ، وديار بكر والجزيرة وأرمينية شرقا وشمالا .

فلم يبق له منذ يومئذ إلا أن يتفرغ للأمر الثانى ، وهو محاربة الفرنج . وحين اتصلت كل هذه الأنباء بمسامع الفرنج ملك الغيظ عليهم نفوسهم ، وحصرت صدورهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وعقدوا فيما بينهم اجتماعا صليبيا كبيرا برياسة ملك القدس ، وكان من أعضاء الاجتماع ذلك الأمير الصليبى المحنق (أرناط) الذى كان أثقل أمراء الصليب وطأة على المسلمين ، والذى كان قد هزم صلاح الدين . ثم عاد السلطان فهزمه وحرمه ولايته .

استعرض أمير البيت المقدس مع إخوانه هذا الموقف ، وكان من رأيه ألا يحاربوا السلطان إلا بعد انقضاء الهدنة ، وكان من رأى أرناط ومعه أكثر الأمراء أنهم لابد لهم من فسخ الهدنة ، ثم ارفضّ اجتماعهم هذا دون أن يستقروا على رأى .

وحدث بعد ذلك أن مرت قافلة من قوافل الحجاج المسلمين بالكرك فى طريقها إلى مصر ، فتصدى لها أرناط ، وأغار على رجالها وأموالها ، وأثار سخطها وسخط العالم الإسلامى ، وسب محمدا صلوات الله وسلامه عليه وعلى أهله !

وبلغ ذلك السلطان ، فثارت حميته لغدر أرناط ، وبلغ الغيظ فى صدره مبلغه ، لهذه الإهانة التى وجهها الأمير السفيه إلى نبى المسلمين ، ونذر أنه متى أظفره الله به ليقتلنه بيده .

ثم انتهى أجل الهدنة ، فنادى السلطان بالنفير العام ، والتقى بالفرنج فى حطين، وكان ذلك عام ٥٨٣ وقد رفعوا بينهم (صليب الصلبوت) وهو خشبة صلب المسيح عليها بزعمهم ، فهجم عليهم السلطان بعسكره ، ووصل إلى خيمة ملكهم ، وأسره ، وأسقط الصليب من يده ، وكان أخذ هذا الصليب أشق على نفوس الفرنج من أسر الملك نفسه !

وحكى بعض من شهدوا الموقعة أن الرجل من المسلمين كان يستطيع بحبل خيمة أن يجر وراءه من أسرى الصليبيين نيفا وثلاثين . وانتهت الموقعة وإذا فى أيدى المسلمين من أسرى الفرنج رئيس الداويه ، ورئيس الاسبتارية ، وصاحب الرملة ، وصاحب حصن جبيل ، وابن صاحب طبرية ، وملك بيت المقدس ، وأخوه أرناط Renauld . وبر السلطان بقسمه ، ووفى بنذره ، فقتل أرناط بيده ، انتقاما منه للإهانات التى ألحقها بالمسلمين ، والكلمات التى نال بها محمدا صلى الله عليه وسلم .

ثم بدا لصلاح الدين بعد ذلك أن يجهز على بقية القلاع والحصون ، فسقط منها فى يده حصن (برزيه) فحصن(عكا) . كل ذلك وفرنج الساحل ينتظرون المدد الذى يأتيهم من أوربا ، فقد بعثوا يستصرخون بإخوانهم هناك ، ويستحلفونهم أن يأتوا إليهم بإمدادهم ورجالهم ، فجمع الأوربيون جموعهم ، وتجهزوا للحملة الصليبية الثالثة، التى أتت إلى الشرق وعلى رأسها فردريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا ، وفليب الثانى ملك فرنسا، وريشارد الأول (قلب الأسد) .

وسارت هذه الحملة من أوربا ، ولكن حدث أن غرق جيش الإمبراطور فى الطريق ، ووصل الباقون مع إخوانهم إلى عكا ، وهناك اصطف الجميع قلبا وميمنة وميسرة ، ووقف فى القلب ريشارد وبين يديه الإنجيل محمولا ومكسوا بثوب من الأطلس ، يمسكه من أطرافه أربعة نفر ، ثم هجموا هجمة رجل واحد على جيش السلطان ، فهزموه عند أرسوف ، ودخلوا عكا ، وقتلوا منها ثلاثة آلاف من المسلمين.

وتحمل المسلمون فى عكا يومئذ من آلام الصبر على الحصار ما أحبوا معه الموت

الذى ينقذهم من هذا الضيق . ومما زاد الطين بلة على المسلمين أن الوباء تفشى فيهم وهم محاصرون ، وأن الجوع أهلكهم ، والصليبيون يمنعون وصول الأقوات إليهم .

هكذا هزم الصليبيون مجتمعين صلاح الدين ، ولكنهم عرفوا قوته من هذه الكسرة ، ولذلك قلنا إن هذه الحملة الثالثة من حملات الصليب عجزت عن أن تغير شيئا مما وصل إليه صلاح الدين ، كما عجزت عن أن تعيد إلى الفرنج ما فقدوه من تلك الإمارات التى سقطت فى يد البطل الإسلامى العظيم .

* * *

ولا تسل بعد عن مقدار الحزن الذى شعر به صلاح الدين لهذه الهزيمة ، وكان حزنه أشد لما قاساه المسلمون المحصورون فى عكا . واستسلم السلطان للحزن ، وكاد الحزن يتلفه ، لولا مواساة صديقه القاضى الفاضل له فى هذه المحنة . وسنأتى عند الكلام على الرسائل الديوانية بطائفة من الكتب التى بعث بها القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين يواسيه فيها أجمل مواساة ، ويقويه فيها على المضى فى الجهاد .

* * *

نعم انكسر السلطان أمام ملوك الصليب ، ولكن هؤلاء الملوك عرفوا يومئذ صلابة عوده وقوة إيمانه ، فلم يخدعهم النصر الذى أحرزوه بجموعهم عليه مفردا ، وأرادوا أن يكسبوا منه بطريق السياسة ولين الكلام ما لم يكسبوه بطريق الحرب والطعان . ومن أجل هذا كان من خطة الإنكتار — كما كان العرب يسمون بهذا الاسم (الملك رتشارد) منذ وطئت أقدامه المشرق — أن ينشىء صداقة بينه وبين السلطان ، فتقرب أولا من أخيه الملك العادل . وسعى هذا زمانا بين أخيه وبين الإنكتار وطالت المفاوضات بينهما على شروط الصلح التى تروق السلطان ، فعاد الإنكتار إليه بالهدايا يستلين بها قلبه ، ويتخذها وسيلة للتقريب بين وجهتى النظر الإسلامية والصليبية ، ثم بعث الإنكتار إلى السلطان بهذه الرسالة (١) .

« أيها السلطان العظيم ، تعلم أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد . وقد أخذ الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس ، والصليب ، والبلاد .

(١) كتاب صلاح الدين للمؤلف : (ص ١٠٢) .

والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا رجل واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع (الأردن) . وأما الصليب فهو خشية عندكم لا مقدار لها ، وهو عندنا عظيم . فيمن به السلطان علينا ونصطلح ، ونستريح من هذا التعب » .

فلما قرأ السلطان الكتاب ، أمر بأن يكتب له الجواب وفيه قوله :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا تتصوروا أننا ننزل عنه . وأما البلاد فهى لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت . وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، لا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام ، هى أوفى منها » .

وأخيرا استقر الرأى على صلح الرملة المشهور وهو بمثابة هدنة أمدها ثلاث سنين بشروط أهمها :

أولا — أن يكون بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج .

ثانياً — أن يحمى الصليبيون ساحل الشام من صور إلى يافا .

ثالثاً — أن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين .

وعلى إثر هذا الصلح عاد رتشارد إلى بلاده ، فاصطدمت سفينته فى بحر الإدرياتيك ووقع أسيرا فى يد دوق النمسا ، فسلمه هذا إلى الإمبراطور هنرى السادس ، وكان معاديا لإنجلترا ـ فسجنه ولم يطلقه إلا بعد أن دفع له مبلغا كبيرا .

أما صلاح الدين فقد رجع بعد ذلك من القدس الى دمشق . وفيها مات فى السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة .

الفصل السادس

الشعر فى خدمة صلاح الدين

استقرت أمور السلطان بمصر ، ومنذ فكر فى أخذ دمشق كانت تأتيه كتب الشعراء تحرضه على سرعة البت فى هذا الأمر ، ومن ذلك ما كتب به أسامة بن منقذ حيث قال : (١)

تهنَّ يا أطول الملوك يدا ... فى بسط عدل وسطوة وندى
لا تستقلَّ الذى صنعت فقد ... قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدو وأفنيت من ... أبطالهم ما يجاوز العددا
فسر إلى الشام فالملائكة الـ ... أبرار تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقير إليك يأمل أن ... تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النصر ... كما فى كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك العد ... ل وأعطاك ما ملكت سُدى

ولما تم للسلطان أخذ دمشق ، قدم إليه شاعر يقال له (وحيش الأسدى) مهنئا إياه بقوله (١):

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا ... فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلّق(٢) ثغرا لانظير له ... فجئتها عامراً منها الذى خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها ... وأزمع الخلقُ من أوطانها هربا
هذا الذى نصرا لإسلام فاتضحت ... سبيله وأهان الكفرَ والصلبا
يستكثر المدح يتلى فى مكارمه ... زهدا ويستصغر الدنيا إذا وهبا

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) دمشق .

وفتح السلطان بعد ذلك مدينة (حمص) فأقبل المهذب بن أسعد الموصلى يهنئه بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى الكرى ... إلا ليطرقه الخيال إذا سرى
كلفٌ بقربكم فلما عاقه ... بُعد المدى سلك الطريق الأخصرا

وكان القاضى الفاضل جالسا مع السلطان فى ذلك الوقت فقال لصلاح الدين : هذا الذى يقول فى مدح الصالح بن رزيك :

من أرتجى يا كريم الدهر تنعشنى ... جدواه إن خاب سعيى فى رجائيكا
أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم ... والشعر ما زال عند الترك متروكا(١)

فعجل جائزته لتكذيب قوله . فجمع له السلطان بين الخلعة والضيعة .

وأتى العماد فنظم قصيدة فى مدح السلطان ، بدأها بغزل طويل جميل .

وهنأه فيها بهذا الفتح العظيم وبما سبقه من الفتوح ، ومن ذلك قوله (٢) :

ملكتَ فأسجح فما للبلا ... دسواكَ مُجيرٌ ومولى نصيرُ
وفى معصم الملك للعز منك ... سوارٌ ومنك على الدينُ سورُ
أما المفسدون بمصر عصوْ ... ك وهذى ديارهم اليومَ قورُ
ويومُ الفرنج إذا ما لقوك ... عبوس برغمهم قمطرير
نهوضاً إلى القدس يشفى العليل ... بفتح الفتوح — وماذا عسير
سل الله تسهيلَ صعب الخطو ... ب فهو على كل شىء قدير
إليك هجرتْ ملوكَ الزما ... ن فمالك — والله — فيهم نظير
وجرك فيه القرى والقرا ... ن جميعا وجر الجميع الفجور
وأنت تريق دماءَ الفرنـ ... ج وعندهم لا تُراق الخمور

وهى قصيدة طويلة ذكر أبو شامة منها نحو من ستين بيتا . بدأها العماد بذكر مدن الشام واحدة بعد أخرى ، يتشوق إليها ، ويذكر أماكنها ، ويتغنى بأنهارها ومروجها ومفاتنها ، وذلك فى نحو أربعين بيتا من أبيات هذه القصيدة التى بدأها بقوله :

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ . وقد سبقت الاشارة إلى هذه الأبيات

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤٦ .

أجيرانَ (جيرون) مالى مجيرٌ سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا
ومَالىِ سـوى طيفكم زائر فلا تمنعوه إذا لم تزوروا

ثم فتح السلطان مدينة (بعلبك) فقال العماد مهنئا (١) :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام وبنور نصرك تشرق الأيام
وبفتح قلعة (بعلبك) تهذبت هذى الممالك واستقام الشام
وبكى الحسودُ دما وثغر الثغر من فرح بنصرك للهدى بسام
فتح تسنى فى الصيام كأننا شكرا لما منح الإله صيام
من ذا رأى فى الصوم عيد سعادة حلت لنا والفطر فيه حرام
فتمل فتحكَ واقصد الفتح الذى بحصوله لفتوحك الإتمام
دم للعلا حتى يدوم نظامها واسلمْ يعز بنصرك الإسلام

هكذا وجدنا العماد، وسنجده دائما أحرص الناس على تسجيل الوقائع الصلاحية فى شعره، كما كان أحرص الناس على تسجيلها فى نثره، وهو من هذه الناحية أشبه ما يكون فى زماننا هذا (بالمراسل الحربى) يغذى صحف العالم كله ووكالات الأنباء كلها بهذه الأخبار الحربية، التى ينتظرها الناس فى كل مكان بلهفة شديدة.

وبات العماد ليلة فى مخيم السلطان، فوجده يقرأ فى ديوان الأمير أسامة بن منقذ، ويجد لذة فى هذه القراءة، ثم أعرب السلطان عن إعجابه بقصيدة طائيه فى ديوان أسامة، فنظم العماد قصيدة على رويها فى مدح السلطان منها قوله (٢) :

عفا الله عنكم مالكم أيها الرهط قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتمو خيانتكم ما هكذا الود والشرط
ملكتم فأنكرتم قديم مودتى كأن لم يكن فى البين معرفة قط
وما كنت أدرى قبل سطوة طرفه بأن ضعيفا فاترا مثله يسطو
يلازم قلبى فى الهوى القبضُ مثلما يلازم كفَّ الناصر الملك البسطُ
مليكٌ حوى الملك العقيم بضبطه كريم وما للمال فى يده ضبط

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٤٧ . (٢) الروضتين : ج ١ ص ٢٤٧ .

عنَا لَكَ طوعا نيل مصر ودجلة العـراق ودان العُرب والعُجم والقبط
عدوك مثل الشمع فى نار حقده له عنقٌ ، إصلاح فاسده القطّ

وهى ثمانية وثمانون بيتا اختار منها أبو شامة ثلاثة عشر .

وانتصر السلطان على أعدائه من أهل (حلب) فقال العماد أيضا يهنئه[١] :

يا جارةً للقلب جائرةً دَعى ظلمى وإلا قلت : جار الجار
قلبى كطرفى ما يفيق إفاقة سكران ما دارت عليه عُقار

ومنها :

قد حاز ملك الشام يوسفُ الذى فى مصر تَغبطُ عصرَه الأعصارُ
نصر الهدى فتوطد الإسلامُ فى أيامه وتضعضعَ الكفار
لما لقيتَ جموعَهم منظومةً صيَّرتَ ذاك النظم وهو نِثار
فى حالتى جود وبأس لم يزل للتبر والأعداء منك تبارُ
تهب الألوفَ ولا تهاب ألوفهم هان العدوُّ عليك والدينار
لما جرى (العاصى)[٢] هنالك طائعا بدمائهم فجرت به الأنهار
وتحطمت عند (القرون)[٣] قرونهم بل كلّتْ الأنيابُ والأظفار
عبروا (المعرة) مالكين معرة والعار يُملك تارة ويُعار
أو ما كفاهم يوم (حمص) وكفّهم فى (بعلبك) بمثلها الإنذار

والجناس بالاشتقاق فى هذه القصيدة كثير كما فى قوله (جار الجار) ، (وتبر وتبار) ، (القرون وقرونهم) ، (المعرة ومعرة) الخ . ومن الطباق قوله : (صيرت ذاك النظم وهو نثار) وقوله (لما جرى العاصى هنالك طائعا) الخ . ومع ذلك فأنت تحس دائما أن التجنيس فى شعر العماد أدنى إلى النفس ، وأخف على القلب ، من التجنيس فى نثره ، وسيأتى ذكر ذلك بعد .

ثم انتصر السلطان على أعدائه من أهل الموصل ، . فهنأه العماد كذلك بقوله[٤] :

عاد العدو بظُلمةٍ من ظُلمه فى ليل ويْلٍ قد خبا مصباحه

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٨
(٢) اسم نهر معروف
(٣) اسم بلدة معروفة
(٤) الروضتين ج ١ ص ٢٥٥

وجنى عليـــه جهلُـه بوقوعه ... فى قبضة البازى فهيضَ جناحُـه
حمل السلاح إلى القتال وما درى ... أن الذى يجنى عليـه سلاحه

ومنهـا :

وكأننى بالساحل الأقصى وقد ... ساحتْ بنحر دم الفرنجة ساحه
فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا الـــموتَ الأجاج فقد طما طفاحه
نجوا البلاد من البلاء بعـد لكم ... فالظلم بادٍ فى الجميع صراحه

وكان (لعز الدين فروخشاه) من آل أيوب يد بيضاء فى هذه الحروب ، فمدحه العماد بقوله[(١)] :

نصر أنار لملككم برهانه ... وعلا لذلة شانئيكم شـــانه
ما أسعد الإسلامَ وهو مظفر ... وأبو المظفر يوسفٌ سلطانه
المُـلك مرفوع لكم مقدارُه ... والعـدل موضوع بكم ميزانه
وكأنما للهِ فى أحكامه ... فلكٌ على إيثاركم دورانه
فخراً بنى أيوب إن فخاركم ... بذَّ الملوكَ السابقين رِهانه
يكفى حسودكم اعتقالا همُّـه ... فـكأنما أشـــجانه أَسجانه

ومنها : فضلَ الملوكً الأكرمين فضله ... فعـــلا زمانهم البهيجَ زمانه
فى فضله فى عدله فى حلمه ... صدِّيقُـه فاروقُـه عثمانُـه
هو فى السماح وفى اللقاء عليُّـه ... هو فى العفاف وفى التقى سلمانه
من آل شاذى الشائدين لمجده ... ببنيه بيتا عاليـــا بنيانه
بيت من العلياء سامٍ شاهق ... يبنى على كيوانها[(٢)] إيوانه
يا سالب التيجان من أربابها ... ومن الثنـاء مصوغةٌ تيجانه
والحمـد مالٌ أنتم بـذَّالُـه ... والمـالُ حمد أنتم خزَّانه

وما زال التجنيس والتقسيم وغيرهما من ألوان البديع شائعا فى أبيات العماد ؛ حتى لكأن هذا الشاعر تأبى عليه نفسه كل الإباء أن يقرأ الناس له بيتا ليس فيه بديع من نوع ما ، أو زينة على نحو ما . فإذا مرَّ بيت من أبياته مغسولا من هذه الزينة

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٥٦ ... (٢) كيوان زحل = القاموس المحيط

أحسست أن الشاعر غير راض عن نفسه ولا عن شعره هذا .

ثم فتح السلطان حصن (منبج) وحصن (عزاز) . وفى الأول نظم العماد هذا الشعر المرقص ومنه قوله(١) :

نزولك فى (منبج) … على الظفر المبهج
ونجحك فى المرتجى … وفتحك للمرتج
دليل على نجح ما … تحاول أو ترتجى
أمورك فيما ترو … م واضحة المنهج
وشانيك دامى الشؤو … ن منك شق شجى
ومن كان فى حصنه … ومن قبل لم يخرج
يقال له : ليس ذا … بعشك قم فادرج
فرأيك يستنزل النجو … م من الأبرج
فعجل عبور الفرا … ت وأسر وسر وأدلج
وعج نحو تلك البلا … د وعن غيرها عرج
لحران والرقتا … ن تاليتا منبج

وفى عزاز قال العماد(٢) :

أعطاه رب العالمين دولة … عزة أهل الدين فى إعزازها
حاز العلا ببأسه وجوده … وهو أحق الخلق باحتيازها
مهلك أهل الشرك طرا رومها … أرمنها إفرنجها أنجازها
تفاخر الإسلام من سلطانه … تفاخر الفرس بأبرا وازها
تهن من فتح عزاز نصرة … أوقعت العداة فى اهتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها … كانت تنال العز من عزازها

وفى نهاية قوله :

ارفع حظوظى من حضيض نقصها … وعد عن همازها لمازها
والشعر لابد له من باعث … كحاجة الخيل إلى مهمازها !

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) الروضتين : ج ١ ص ٢٥٧ .

وفى هذه القصيدة نوع عجيب من التكلف لعل مصدره اختيار الشاعر لهذه القافية التى اضطرته الى الأتيان بألفاظ غريبة مثل قوله (انجازها[١]) فى البيت الثالث ، كما اضطرته إلى العبث ببعض الأعلام كما فى قوله (أبراوازها) تحريفاً لأبرويز . وهكذا .

وقلنا إن أعداء السلطان من أهل حلب والموصل ضاقت حيلهم ، ولم يبق أمامهم إلا خطة واحدة يسلكونها معه ، وهى أنهم يترضونه ويتذللون إليه ، عسى أن يهب لهم أملاكهم ويعود إلى مصر . ففعل السلطان ذلك واستعد للرجوع إلى القاهرة ، وفى ركابه العماد الأصفهانى الذى أنشد فى الطريق [٢] :

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر ... ولكن لمقدور أتيح من الأمر
وأعلم أنى مخطئ فى فراقكم ... وعذرى فى ذنبى وذنبى فى عذرى
أرى نوبا للدهر تمضى ولا أرى ... أشد من الهجران فى نوب الدهر
وقلبى وصبرى فارقانى لبعدكم ... فلا صبر فى قلبى ولا قلب فى صدرى
وإنى على العهد الذى تعهدونه ... وسرى لكم سرى وجهرى لكم جهرى
وأقسم لو لم يقسم البين بيننا ... جَوَى الهم ما أمسيتُ مقتسم الفكر
أسير إلى مصر وقلبى أسيركم ... ومن عجب أسرى وقلبى فى أسر
تذكرت أحبابى بجلق بعد ما ... ترحَّلت والمشتاق يأنس بالذكر
وناديت صبرى مستغيثا فلم يجب ... فأسبلت دمعى للبكاء على صبرى

الى أن قال : —

ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتى ... بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
بكت أم عمرو من وشيك ترحلى ... فياخجلى من أم عمرو ومن عمرو
تقول إلى مصر تصير تعجبا ... وماذا الذى تبغى ومن لك فى مصر ؟
وقالت : أقم لا تعدم الخير عندنا ... فقلت : وهل تغنى السواقى عن البحر ؟
ثقى برجوع يضمن الله نجحه ... ولا يقتضى أن نبدل العسر باليسر

ثم مضى فى مدح الملك الناصر صلاح الدين على عادته وطريقته . غير أن العماد كان فى هذا الجزء الذى ذكرناه أخيراً من القصيدة شبيها بأبى نواس فى قصيدته التى مدح بها (الخصيب) فى مصر ، ومقلدا له فيها كما لا يخفى على قراء الأدب .

---

(١) لم نهتد إلى معنى هذه الكلمة . ولعلها تكون تحريفا من الشاعر نفسه لكلمة (انجليز) ، وهم شعب من الشعوب التى اشتركت فى الحروب الصليبية .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٥ .

واستقر المقام بمصر للسلطان زمانا توفر فيه على نشر العدل وسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعض الإصلاحات الداخلية، وكان الشعراء يفدون إليه حينا بعد حين، يمدحونه ويقوونه على الجهاد وكان فيهم العماد، فمما قاله للسلطان يوما (١):

فديتك من ظالم منصف ... وناهيك من باخل مسرف
أيبلغ دهرى قصدى وقد ... قصدت بمصر ذرى يوسف
ويوسف مصر بغير التقى ... وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس وآسفك به ... دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى الاسبتار البتار ... وهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلاد ... يخلصك الله فى الموقف !

وأنظر الى قوله هنا :

وخلص من الكفر تلك البلاد ... يخلصك الله فى الموقف !

الى أى حد يؤثر هذا القول فى نفس تقية مؤمنة كنفس صلاح الدين ، وكم من المعانى الدينية العظيمة يوحى بها هذا البيت إلى قلبه الكبير !

وكان من الشعراء الذين وفدوا إلى الملك الناصر ، أو الذين بعثوا بقصائدهم إليه ذلك الكاتب المصرى المشهور (بالأسعد بن مماتى) حيث قال :

يا كريم الخيم فى الخيم ... أهيف كالريم ذو شمم (٢)
عجبى للشمس إذ طلعت ... منه فى داج من الظلم
كيف لاتصمى لواحظه ... ورماة الطرف فى العجم
لاتصد قلب المحب لكم ... لا يحل الصيد فى الحرم

ومنها قوله :

ياصلاح الدين يامنكا ... مذ براه الله للأمم
أضحت الكفار فى نقم ... وغدا الإسلام فى نعم
فابق للأقدار ترفعها ... وأمر الأقدام كالخدم

---

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) الروضتين : ج ١ ص

وقد آثر الشاعر هنا أن يبعث بقصيدته تلك إلى السلطان ، عن طريق العماد . وأحسب أن العماد ضاق بالبيت الأخير من أبيات هذه القصيدة الجميلة ، وهو قوله . (ومر الأقدار كالخدم) لأنه يذكر بقول الشاعر الشيعي : ما شئت لا ما شاءت الأقدار الخ .

ومن الشعراء الوافدين كذلك الشاعر علم الدين الشاتاني. وهو أبو على الحسن بن سعيد وقد مدح السلطان بقصيدة أولها [١] :

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا [٢] فسروا فتح الدنيا فأنت بها أحرى
يمينك فيها اليمن واليسر فى اليسرى فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

وخفر (أرناط) بذمة المسلمين ، ونقض هدنتهم ، وأغار على بلادهم ، فذهب إليه السلطان ، ولقيه فى وقعة (الرملة) ، وهى الوقعة التى انتصر فيها الصليب على الإسلام ، فغضب السلطان لذلك كل الغضب ، ولم ينس الشعراء إذ ذاك أن عليهم واجبا عظيما ، هو تهدئة خاطره ، والاعتذار عن هزيمته ، ومن ذلك ما قاله ابن سعدون الحلبى [١] .

قل للفرنجية الخذلى رويدكم بالثأر أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من (الفوار) طالعة خوارق الأرض تمحو رونق الأصل
حسب العدا ياصلاح الدين حسبهم أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس مرت على أصبعيه لذة العسل ؟

ونحن نقول : ما أحسن ما اعتذر الشاعر هنا عن هزيمة السلطان ، وما أجمل ما هون أمرها على نفسه ! . وكان للملك المظفر (تقى الدين عمرو) ابن أخى السلطان صلاح الدين بلاء حسن فى هذه الغزوة فأنشده العماد قوله : [٣]

سقى الله العراق وساكنيه وحياه حيا الغيث الهتون
وجيرانا أمنت الجور منهم وما فيهم سوى واف أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدما وفوا بالعهد فى الزمن الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك فيهم بحلية سؤدد وتقى ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا لخير رعية فى خير دين
بنو أيوب مثل قريش مجدا وأنت لها كأنزعها البطين [٣]

---

(١) ص ٢٧٤ (٢) كانت الأعلام الأيوبية صفراء والفاطمية بيضاء والعباسية سوداء .
(٣) يقصد على بن أبى طالب

ويوم الرملة المرهوب بأسا ... تركت الشرك منزعج القطين
وكنت لعسكر الإسلام كهفا ... أوى منه إلى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سطاك لما ... رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمى ... حماه أوان ولى كل دين

يريد (أوان ولى كل ذى دين) . وهكذا يأبى الشعر إلا أن يتخذ حتى من الهزيمة التى يمنى بها المسلمون فرصة لتقويتهم ، وموضعاً للثناء عليهم . وكيف لا يفعل والرجاء كله معقود على أولئك الأبطال ، والحرب بينهم وبين الصليب حرب سجال ، والأمور بخواتيمها والعبرة بمن يكون له النصر فى نهاية الموقعة .

واستعد صلاح الدين بعد ذلك للخروج من مصر ، وأوصى أخاه الملك العادل نائبه بها أن يجهز له من عساكر المصريين ألفاً وخمسمائة . وخرج إلى الشام ، وأخذ يغير فى طريقه على حصون الفرنج حصناً حصناً ، والفرنج من جانبهم يزعجون أمراء المسلمين ، ويغيرون عليهم جملة واحدة . ثم التقى الفريقان (بمرج عيون) فمن الله بنصره على المسلمين : وكان من جملة الأسرى من الفرنج : مقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وصاحب طبرية ، وصاحب الرملة وعدة كبيرة من أمرائهم وفرسانهم ، وأبطالهم . وأراد بعض هؤلاء أن يفدوا أنفسهم بالمال فقبل السلطان منهم ذلك ، واشترط عليهم فكاك الفقيه (عيسى الهكارى) [١] من أيديهم ، وكانوا أسروه يوم الرملة . وتكاثر الشعراء على صلاح الدين يهنئونه بهذا النصر الجليل ، وفيهم شاعر يقال له (أبو على الحسن بن على العراقى الجوينى) ، وقد اكتفى بأن بعث إلى السلطان بقصيدة له منها [٢] :

لك رب السماء خير معين ... وكفاه بما تحب ضمين
فله الحمد أى نصر عزيز ... قد حبانا به وفتح مبين
يا مليكا أضحى الزمان يناجيه ... بلفظ المذلل المسكين
قذفت أهلها الحصون إلى بأ ... سك حتى عوضتهم بالسجون
يا مليكا يلقى الحروب بحول الله ... مستعصما وصدق اليقين

---

(١) كان الفقيه عيسى الهكارى من كبار الفقهاء الذين لهم فضل على صلاح الدين، فهو الذى مهد له الأمور فى مصر بعد وفاه العاضد الفاطمى حتى ولى الوزارة .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٩ .

إن هذا الفتح المبين شفاء لصـدور وقرة لعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين سهل الله نصره فى الحزون

وكان من الشعراء الذين هنئوا السلطان بانتصاره العظيم فى (مرج عيون) الشاعر الذى التقينا به من قبل ،وهو المعروف (بابن التعاويذى)، وقدمدح السلطان بقصيدة رائعة من قصائده منها [1] :

إن كان دينك فى الصبابة دينى فقف المطى برملتى يبرين

ثم قال بعد تمـام الغزل :

ليت الضنين على المحب بوصله لقن السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بزمامه علقت بحبل فى الحفاظ متين
قاد الجيـاد معاقلا وإن اكتفى بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهزبر سطاه لم يلجأ إلى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوها مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفة فى قدرة ، وتواضع فى عزة ، وشراسة فى لين
وأريتنا بجميل صنعك ماروى الـــراوون عن أمم خلت وقرون
وضمنت أن تحيي لنا أيامهم بالمكرمات فكنت خير ضمين

ومنها فى وصف الموقعة :

كاد الأعادى أن يصيبك كيدها لو لم تكدك برأيها المـأفون
تخفى عـداوتها وراء بشاشـة فتشف عن نظر لهـا مشفون [2]
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم أفضت إليك بسرها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعـادة فى الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم بالنحس طائرهم بمرج عيون . الخ

وابن التعاويذى شاعر مجيد ، فوق أنه قريب من دار الخلافة ، وهو بشعره الرصين

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١٠ .

(٢) شفنه كضربة وعلمه شفونا نظر اليه بمؤخر عينه ،أو نظر فى إعراض ،أو رفع طرفه ناظرا اليه كالمتعجب أو كالكاره = القاموس المحيط .

وأسلوبه الجزل المتين يعطينا صورة من الشعر العراقى لذلك الوقت ، وهو شعر يبدو أنه أمتن نسجا ، وأسمح طبعا من الشعرين المصرى والشامى ، وهما اللذان غلب عليهما إذ ذاك البديع ، وسارا بتأثير العماد الأصفهانى والقاضى الفاضل أشواطا بعيدة فى هذه السبيل .

* * *

وقصد السلطان بعد ذلك إلى حصن (الداوية) أو حصن (المخاض) أو (بيت الأحزان) أو (بيت يعقوب) ،فخربه ،وأراح المسلمين من شره ، وكان الفرنج قد جمعوا وراء الحصن حطبا ،فلما وقع الجدار ،دخلت الرياح فردت النار عليهم،وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم ، فاجتمعوا إلى الباب البعيد من النار ، وطلبوا الأمان ، وأسر المسلمون يومئذ أكثر من سبعمائة . واطمأن السلطان إلى هدم هذا الحصن ، وكان قد بذل للفرنج فيه قبل ذلك مائة ألف دينار ليهدموه فأبوا ،وتركوا الأمر لسيفه يقضى فيه بهذا الحكم الذى رأوه .

وانهال الشعراء على السلطان لتهنئته . ومنهم رجل دمشقى يقال له (نشو الدولة أحمد بن نقاده) :

نظم قصيدة جاء فيها بقوله : (١)

هلاك الفرنج أتى عاجلا وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمّرت بيت أحزانها

ثم أتى الشاعر الخراسانى السورى المصرى أبو الحسن على بن محمد ابن رستم الساعاتى مهنئا السلطان بهذه القصيدة : (٢)

بجدك أعطاف القنا تتعطف وطرف الأعادى دون مجدك يطرف
شهاب هدى فى ظلمة الشك ثاقب وسيف هدى فى طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه رجال كآساد الشرى وهى تزحف

---

(١) الروضتين : (ج ٢ ص ١١) .
(٢) الروضتين : (ج ٢ ص ١١) .

وما رجعت أعلامك الصفر ساعة . إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ وشاد به دين حنيف ومصحف
صليبة عباد الصليب ومنزل النـــزال لقد غادرته وهو صفصف
أيسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى أيمانها وهى تحلف ؟!
نصحتكم والنصح فى الدين واجبٌ ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وانظر إلى هذه التورية اللطيفة فى هـذا البيت الأخير (ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف) ؛ فبيت يعقوب هو حصن الداوية ،ويوسف هو صلاح الدين الأيوبى ، وقد أبدع الشاعر فى توريته إبداعا يستحق الشكر .

ثم من الشعراء الذين مدحوا السلطان إذ ذاك شاعر اسمه (سعادة الضرير الحمصى) حيث قال : (١)

حللتَ فكنتَ الألمعىَّ المسددا وسرت فكنت السمهرىَّ المؤيدا
وقمت بأعباء الممالك ناهضا فاقعدت أعداء ولم تخش مقعدا
تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا وكل امرىء مغرى بما قد تعودا
نصرت الهدى لما تخاذلَ حزبه فناداك حزب الله يا ناصر الهدى
غضبت لدين أنت حقا صلاحه فأرضيت ـ لما أن غضبت ـ محمدا
وصلت لدى سلم وصلت لدى وغى ففقت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت إلى الأعداء جيشا عرمرما إذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطغيان شملا مجمعا ولم تبق للإيمان شملا مبددا
فناهيك من جيش نهضت بعبئه فأقعدت لما أن نهضت به العدا
وزرت به الحصن الذى لو تحصنت فوارسه بالنجم أوردته الردى
قصمت به صلب الصليب ورعته وسهدته لما غفا فتسهدا
هبيت إليه هبة يوسفية تعيد هباء كل ما كان جلمدا

وفى هذه القصيدة الحماسية معنى دينى عبرت عنه أكثر القصائد الصليبية ؛ وهو قوله مستغلا فى ذلك اسم صلاح الدين :

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١٢ .

غضبت لدين أنت حقا صلاحه ... فأرضيت لما أن غضبت محمدا

وكان من الشعراء المهنئين يومئذ الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقى، من أهل (الحلة) ، وقد شهد بنفسه الموقعة ، فقال : (١)

هنيئا صلاح الدين بالفتح والنصر ... ونيل الأمانى الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا ... وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا ... سمو أبى لا ينام على وتر
وصلت بها حبل المفاخر مثلما ... قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم ... وخضت سواد الليل وهو دم يجرى
وقد عرف الإفرنج بأسك فى الوغى ... وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا بناء الحصن صونا لملكهم ... فأصبح بالشعواء منهتك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر (قطعت ... أناملها) إلا على صفقة الخسر
هى الفتكة الغراء لا زلت قائما ... بأمثالها للدين فى السر والجهر
وأصبح فى أقصى خراسان ذكرها ... وفى كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة ... فما خلقوا إلا على شيمة الغدر
فسر واملك الأرض التى لو تركتها ... لأغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقبا ... بأخمصها تعلو على الأنجم الزهر
إذا عد أرباب الفخار فانتم ... ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر

ثم طلب الفرنج الصلح ، فمنحهم السلطان إياه ، وكان صلحا عاما ، دخل فيه الحلبيون والمواصلة ، فضلا عن الفرنج والروم وأهل ديار بكر . ثم ذهب السلطان بعدها إلى بلاد الأرمن ، وقمع ملكهم (ابن لاون) لأنه غدر بذمة المسلمين فى بلادهم ، وأسرهم وأذلهم ، فدخل السلطان بلاده ، وأذل أعوانه وأجناده وأحرق المسلمون يومئذ قلعة من أشد قلاعه ، تعرف (بالمناقير) ، فتقوى بها المسلمون ، وأذعن الأرمن ، وأطلق من فى يده من الأسارى ، ورجع السلطان مؤيدا منصورا فقدم عليه شاعر اسمه (الجمال الواسطى)

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١٢ .

وهو أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرى ، قال إنه شهد هذه الغزوة ،ونظم فيهاقصيدته التى منها : (١)

لقد جمل الله منك الورى ... بأوفى مليك وفى هجان
تهش إلى نغمات السيوف ... فى الهام لا نغمات القيان
أزرت ابن لاون لأواءه ... فأضحى به خبرا عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى ... حذارا من الراعفات اللدان
فلا قدم عنده للثبات ... وليس له بسطاكم يدان
وأخلى إليكم مناقيره ... وغادر للهدم تلك المبانى
رتقت بعزمك والمكرمات ... فتوقا من الأرتق الهجان
ورعت ابن سلجوق فى ملكه ... فقعقع من رعبه بالشنان (٢)

وليس فى هذه الأبيات من الجناس إلا قوله (رتقت ... فتوقا من الأرتق) .
وربما قصد الشاعر أيضا إلى التجنيس فى قوله (أزرت ابن لاون لأواءه) .
ثم أتى إلى السلطان عند نهر العاصى شاعر مر ذكره ، هو الفقيه مهذب الدين بن عبيد الله بن أسعد الموصلى ،وأنشد السلطان قوله : (٣)

أما وجفونك المرضى الصحاح ... وسكرة مقلتيك وأنت صاحى
لقد أصبحت فى العشاق فرداً ... كما أصبحت فردا فى الملاح
يهز الغصن فوق نقى ويرنو ... بجد ظبا ويبسم عن أقاح
وقد غرس القضيب على كثيب ... فأثمر بالظلام وبالصباح
ومال مع الوشاة ولا عجيب ... لغصن أن يميل مع الرياح
قطعنا الليل فى عتب وشكوى ... إلى أن قيل : حى على الفلاح
ولاح الصبح يحكى فى سناه ... صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حد عن مداه ... لقيناه بآمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدى ... رعاء الشاء والنعم المراح؟

---

(١) الروضتين : ج ٢ص ١٦ .
(٢) كناية عن أنه جبان .
(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٦ .

جواد بالبلاد وما حوته إذا جادوا بألبان اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه إذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم ومشغول بلهو أو مزاح

ومنها :

وما خضع الفرنج لديك حتى رأوا مالا يطاق من الكفاح
وما سألوك عقد الصلح ودا ولكن خوف معلمة رداح[١]
ملأت بلادهم سهلا وحزنا أسوداً تحت غابات الرماح

واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى بلاد الشرق مرة ثانية ، ومهد أموره بها وبحمص وبعلبك ، وهما المدينتان اللتان فتحهما من قبل . وهناك أتاه شاعر يقال له (المهذب عبيد الله بن أسعد ابن الدهان) ، [٢] فمدحه بقصيدة منها :

هل يعلم المتحملون لنجعة أن المنازل أخصبت من أدمعى
دعنى وما شاء التلذذ والأسى واقصد بلومك من يطيعك أو يعى
لا قلب لى فأعى الملام فإننى أودعته بالأمس عند مودعى
قل للبخيلة بالسلام تورعا كيف استبحت دمى ولم تتورعى
وبديعة الحسن التى فى وجهها دون الوجوه عناية للمبدع
ما بال معتمر بربعك دائبا يقضى زيارته بغير تمتع
ووعدتنى إن عدت عود وصالنا هيهات ما أبقى إلى أن ترجعى
هل تسمحين ببذل أيسر نائل أن أشتكى وجدى إليك وتسمعى
عفى الربيعُ الجونُ ربعا طالما أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سَقيتهُ سيل الغنى من كف يوسف بالأدر الأنفع
بيدى فتى لو أن جود يمينه للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فإذا تبسم قال ياجودُ اندفق فيضا ويا سحب الندى لا تقلعى
وإذ تنمر قال يا أرض ارجفى بالصاهلات ويا جبال تزعزعى
وإذا علا فى المجد أعلى غاية قالت له الهمم الجسام ترفع

---

(١) أعلم الفرسى علق عليه صوفا ملونا فى الحرب ؛ وأعلم نفسه : وسمها بسيمى الحرب . والرداح كسحاب الثقيلة الأوراك والكتيبة الثقيلة الجرارة

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ .

كم وقفة لك فى الوغى محمودة | أبدا وكم جود حميد الموقع
والناس بعدك فى المكارم والندى | رجلان إما سارق أو مدَّعى

والقصيدة التى ألقاها هذا الشاعر ذات غزل جميل ، يظهر أنه هو ماأغرى أبا شامة بنقلها فى كتابه ، وهو ما أغرانى كذلك بنقلها فى هذا الفصل . ولو أنها من الناحية الحماسية الصرفة ليس فيها غير هذه الأبيات الأربعة الأخيرة، التى تصور صلاح الدين فى كرمه وفى شجاعته رجلا لا نظير له .

والناس بعدك فى المكارم والندى | رجلان إما سارق أو مدعى

* * *

بعدذلك استأذن السلطان الخليفة فى فتح (آمد) ، وعليها رجل يقال له (ابن تيسان) ، فأذن له ، فنصب السلطان عليها المنجنيقات ، وأخذها فى مستهل سنة ٥٧٩ هـ وبها من الأموال والغلال والسلاح والذخائر وآلات الحصار شىء قل أن يوجد مثله فى بلد آخر . ووجد بها خزانة كتب حوت ألف ألف وأربعين ألف كتاب ، فوهبها كلها للقاضى الفاضل ، ووهب المدينة نفسها لنور الدين محمدبن قرا آرسلان ، وكان أبوه حاول فتحها من قبل وتمناها لنفسه ، فلم يقدر ، وفى فتح آمد يقول سعيد الحلبى الشاعر مهنئا (١) :

رمى (آمدا) بالصافنات فأذعنتْ | له طاعة آكامُها ووعورها
فما عز ناديها ولا اعتاصَ ثغرها | ولا جاش طاميها ولا رد سورها
وأنزلت بالكره ابن تيسان محرجا | كما أنزل الزباء كرها قصيرها
نهضتَ لها حتى إذا انقاد صعبها | تقضى على طول الشماس ثغورها
سمحت بها جودا لمن ظل برهة | يغاورها طورا وطورا يغيرها
وملكت ما ملكت منها تحولا | وكان قليلا فى نداك كثيرها

وأتى شاعر حلبى آخر يقال له (ابن سعدان) ، فنظم قصيدة فى تهنئة السلطان ، منها قوله (٢) .

---

(١) الروضتين : (ج ٢ ص ٣٩) .
(٢) الروضتين : (ج ٢ ص ٣٩) .

فيا ساكنى الرعناء من سفح آمدٍ أرى عارضا ينهلُّ بالموت هاطلهْ
لئن غضبت يوما عليكم عروشها فهذا ابن أيوب وهذى معاقله
ولو رامها يوما سواه لقطعت أباهرهُ من دونها وأباجله (١)

* * *

وفكر السلطان بعد ذلك فى الاستيلاء على (حلب) وكان من الذين حضوه على فتحها ، وهونوا له أمرها (أبو الحسن بن الساعاتى) حيث قال (٢) :

مابعد لقياك للعافين من أمل ملك الملوك وهذى دولة الدول
فانهض إلى حلب فى كل سابقة سروجها قبل تغنى عن القلل
ما فتحها غير إقليد الممالك والد اعى إليه جميع الخلق والملل
وما عصت منعة لكنه غضب علام أهملتها إهمال مبتذل ؟

وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح هذه المدينة العظيمة ، ومن هؤلاء الذين حرضوه على ذلك (ابن سعدان الحلبى) حيث قال (٣) :

دونك والحسناء أمّ القرى ونارها الشهباء (٤) والطودَ الأشم
واركب إلى العلياء كل صعبة أبيتَ لعنا وخلاك كل ذم
وارم فكل الصيد فى جوف الفرا لا صارمُ السهم ولا نابى الحكم
ُمدّ إلى أخت السماء زورة لا فرَق يعقبها ولا ندم
فيالها شماء مشمخرةً تطارح البرق وساحات الديم
إيه صلاح الدين شد أزرها واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المنعة من قبابها وبابها المغلق فى وجه الأمم

وكان شاعر حلبى آخر يقال له (أبو الفضل بن حميد) قد سبق كذلك أن أغرى صلاح الدين بحلب وبفتحها فى قوله (٤) :

يابن أيوب لا برحت مدى الدهـر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مرآك ولهى وله الصب ريع بالهجران !

---

(١) أباهره جمع أبهر ، وهو الظهر أو عرق فيه ، ووريد العنق ، والأباجل : جمع أبجل وهو عرق غليظ فى الرجل . (٢) الروضتين : ج ٢ ص ٤٣ . (٣) الروضتين : ج ٢ ص ٤٤

(٤) فى الأصل : ونارها الأشهب والنار مؤنثة .

ودخل السلطان مسجد حلب ، فصلى ركعتين ، وأطال السجود ، ثم خرج وأطلق المكوس والضرائب ، ووزع فى الناس أموالا كثيرة ، كل ذلك شكراً لله تعالى على هذا الفتح ، ثم جلس السلطان للهناء فأنشده الشاعر المصرى ابن سناء الملك هذه القصيدة: (١)

بدولة الترك عزت دولة العرب ... وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
جليسة النجم فى أعلى مراتبه ... وطالما غاب عنها وهى لم تغب
ومانعته كمعشوق تمنعه ... أحلى من الشهد أو أشهى من الضرب
فمر عنها بلا غيظ ولا حنق ... وسار عنها بلا حقد ولا غضب
تطوى البلاد وأهليها كتائبه ... طيا كما طوت الكتاب للكتب
أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها ... بمالك فطن أو سائس درب
ممالك لم يدبرها مدبرها ... إلا برأى خصى أو بعقل صبى
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت ... من الفساد كما صحت من الوصب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة ... فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب
ومذ رأت صده عن ربعها حلب ... ووصله لبلاد الغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر ... منها اليه وأبدت وجه مكتئب
واستعطفته فوافتها عواطفه ... وأكثب الصلح إذ نادته عن كثب
وحل منها بأفق غير منخفض ... للصاعدين وبرج غير منقلب
فتح الفتوح بلا مين وصاحبه ... ملك الملوك ومولاها بلا كذب

أحسنت أيها الشاعر المصرى ، ووفقت الى تهنئة السلطان بهذا الفتح الذى أثلج صدره ، وطمأن نفسه ، ونفذت عينك فى حجب الغيب ، فرأيته ملكا على جميع تلك البلاد ، التى (لم يدبرها مدبرها إلا برأى خصى أو بعقل صبى) ، ورأيته صاحب الكلمة النافذة فى بلاد الإسلام التى آلت على نفسها أن توحد كلمتها تحت راية هذا السلطان ، إذ هو وحده القادر على طرد الفرنج .

وممن هنئوا السلطان بفتح حلب رجل أديب يقال له (أبو طى النجار) وهو والد المؤرخ الشيعى المشهور بابن أبى طى ، وهو أحد المصادر الهامة التى أخذ عنها أبو شامة فى كتابه الروضتين — قال من قصيدة له (٢) .

(١) الروضتين : ج٢ ص ٤٣ .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٤٥ .

حلب شامة الشآ م وقد زيـ　　ـدت جلالا بيوسف وجمالا
هى أس الفخار من نال أعلا　　ها تعالى فخامة وتغالى
ومحل العلاء من حل فيها　　تاه كبرا وعزة وجلالا
من حواها عملكا ملك الأر　　ض اقتسارا سهولة وجبالا
فافترشها مهنأ بمحل　　سمك الأنجم الوضاء وطالا

وبينما السلطان جالس فى مجلسه يستمع إلى كبار الشعراء فى دولته، اذا بالشيخ محي الدين ابن زكى الدين قاضي دمشق يقبل وبيده قصيدة يريد أن ينشدها السلطان، وفيها قوله :

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر　　قضى لكم بافتتاح القدس فى رجب

فلما سمع السلطان ذلك تعجب من هذا التنبؤ ؛ والعجب أن فتح القدس بعد ذلك وافق الموعد الذى تنبأ به قاضى دمشق ، فكافأ السلطان هذا القاضى مكافأة جليلة — كما سنرى بعد — وهى أنه شرفه بإلقاء خطبة الجمعة فى أول صلاة للمسلمين بالمسجد الأقصى ، عقب خروج الفرنج منه . وكان المتنافسون على إلقاء الخطبة كثيرين من علماء المسلمين وأعيانهم وجلة فقهائهم . (١)

(٢) كثرت مثل هذا التنبؤ فى المعسكرين الإسلامى والصليبى معا. أما التنبؤ الاسلامى الذى أتى به محي الدين بن زكى الدين فقيل أنه اعتمد فيه على شيخ من أهل حلب يقال له الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعى الذى وقع فى يده تفسير للقرآن لأبى الحكم المغربى ،فوجد فيه ابن جهبل هذا عند قوله تعالى : « الم غلبت الروم فى أدنى الأرض ... الآية » إن أبا الحكم قال إن الروم يغلبون فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ويفتح البيت المقدس وتصير دارا للاسلام إلى آخر الآية ، فأخبر ابن جهبل بذلك الشيخ محي الدين فنظم هذا الأخير قصيدته التى مر ذكرها ، فكافأه السلطان كما روينا وكافأ ابن جهبل نفسه بأن جعله يلقى اول درس فى الفقه بالصخرة المقدسة بعد خروج الفرنج منها مباشرة

اما التنبؤ الذى ذاع فى المعسكر الصليبى فقد أمدتنا المذكرات المعروفة باسم Gesta Framcorum بمثال منه خلاصته :

ان قائدا إسلاميا اسمه كربوغا استنجد به الحاكم الأرمنى بأنطاكية ، وذلك فى الحصار الذى ضربه الصليبيون حول هذه المدينة العظيمة فى يونيه سنة ١٠٩٨ م. فأتى كربوغا لمساعدته فى جيش ضخم فسمعت والدته بما عزم عليه ، فأتت إليه واستغرقت فى البكاء بين يديه وكان مما قالت له يومئذ .

« يابنى العزيز ، لقد تبين بعضهم منذ اكثر من مائة عام أنه جاء فى كتابات الوثنيين... ان الأمة المسيحية ستهاجمنا ، وسيعقد لها النصر علينا فى كل ناحية، وانها ستسود الوثنية، وسأتبعك والأسى يقتلنى — من حلب — تلك المدينة العظيمة التى استطعت فيها عن طريق التدقيق والبحوث الحاذقة فى مطالعة النجوم ومسالة الكواكب والبروج الاثنى عشر والتنبوءات العديدة ان اعرف ان الشعب المسيحى سيقهرنا انى كنا . وانى اضطرب فزعا وحزنا مخافة أن أحرم منك الخ « كتاب الحرب الصليبية الأولى للاستاذ حسن حبشى ص ١٤٦» .

وإذ تم للسلطان ما أراد بعد ذلك من توحيد كلمة الإسلام ، واطمأن إلى ذلك كل الاطمئنان ، لم يجد أمامه إلا أن يستعد لملاقاة الفرنج فى عقر دارهم ، فإما هزمهم وكسحهم كسحا تاما من البلاد ، وإما هزموه وتوطدت أقدامهم هناك .

فرتب السلطان أمراءه على البلاد ، ثم جمع جموعه ، وأغار بهم على طبرية ، فأخذها ، والتقى بالفرنج على سطح الجبل . ودام القتال يومين ، وفى اليوم الثالث اعتصمت طائفة من الفرنج بتل حطين ، وهى قرية عندها قبر النبى شعيب عليه السلام ، وقتلهم الحر والظمأ ، حتى أحبوا الأسر فرارا من الموت ، وضايقهم المسلمون على التل ، وأسروا منهم يومئذ ملك بيت المقدس ، وأمير الكرك ، وأخا الملك جودفرى وصاحب جبيل ، وابن صاحب اسكندرونه ، ومقدم الداوية ، ومقدم الإسبتارية .

قال العماد : « ولقد رأيت فى الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفى بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس . ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت[1] ، فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم ووهنت أصلابهم . وبلغ من تعصب المسلمين أنهم داسوه بأقدامهم وأهانوه إهانة بالغة .

وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى ، وهم يتهادون فى القيود تهادى السكارى ، وكان فيهم أرناط الذى نذر السلطان ليقتلنه بيده إن ظفر به ، وكان ملك بيت المقدس يلهث من الظمأ ، فأمر له السلطان بماء مثلوج ، فشرب ثم ناول القدح لأرناط ليشرب منه ، فقال السلطان للملك لا تسقه من القدح ، حتى لا يكون له عهد عندى . أراد السلطان بذلك الجرى على كريم عادة العرب من أنهم إذا سقوا أحدا أصبح آمنا ، ثم باعد السلطان بين الملك وأرناط ، واستدعى هذا الأخير فى سرادقه فأتى إليه ، فذكره السلطان بالإهانة التى ألحقها بالمسلمين ، ثم ضربه بالسيف ضربة فصلت كتفه عن عنقه ، وقال : ها أنذا أنتقم لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلما رأى ملك القدس ذلك تملكه الفزع ، وساوره الهلع ، فاستدعاه السلطان واستدناه ، وقال له : ماجرت عادة الملوك أن تقتل الملوك أما هذا فقد بغى وطغى وتعدى طوره ، فكان جزاؤه مارأيت .

ثم جلس السلطان للهناء ، فلا تسل عن مقدار الشعر الذى أعده له الشعراء ،

---

(١) الروضتين : (ج ٢ ص ١٣٩) .

وسنكتفى من هؤلاء بعشرة ، ثم نكتفى من قصائد كل شاعر من هؤلاء العشرة بواحدة ، ونختار من كل قصيدة أبياتا قليلة .

ولقد نظمت فى ذلك اليوم قصائد كثيرة عرفت فيما بعد (بالقدسيات) نسبة إلى يوم القدس ، وكان من أوائل الذين وصلوا إلى مخيم السلطان ، أو الذين بعثوا إليه بقصائدهم لمدحه وتهنئته ، شعراء مصر ، ومنهم شاعر شريف ، هو محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبى المعروف (بالجوانى المصرى) ، وكان نقيب الأشراف بالديار المصرية ، فأنشد السلطان يومئذ قصيدة منها : (١)

أترى مناما ما بعين أبصر   القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذى   بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم   ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى   وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد   ماذا يقال له ، وماذا يذكر ؟
يا يوسف الصديق أنت لفتحها   فاروقها عمر الإمام الأطهر
ملك غدا الإسلام من عجب به   يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه   فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو   ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فإن خطبت له   فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلى بسنابك   تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار أن تطأ الثرى   فيصدها عنه طلى وسنور
تمشى على جثث العدا عرجا ولا   عَرَجٌ بها لكنها تتعثر

فانظر إلى مطلع هذه القصيدة كيف يعبر عن فرحة المسلمين جميعا بالنصر فى الموقعة ، وانظر إلى أبيات هذه القصيدة كيف تصور لنا آثار النصر فى تلك الموقعة . إن من آثاره أن تطهرت كنيسة القيامة بالقدس من رجس هؤلاء القوم ، وإن من آثاره كذلك أن غدا ملك الصليبيين فى القيد ، وإن من آثاره هذا العدد الذى لا حصر له من القتلى ، تمشى على جثثهم جياد المسلمين عرجا وما بها من عرج .

(١) مفرج الكروب ص ٣٠٠ والروضتين : ج ٢ ص ١٠٥ .

وأتى إلى مخيم السلطان شاعر مصرى هو القاضى السعيد أبو القاسم هبه الله بن سناء الملك الذى مر ذكره قبل ذلك فى فتح حلب ، وهنأ السلطان بقوله : (١)

لست أدرى بأى فتح تهنا يا منيل الإسلام ما قد تمنى
أنهنيك إذ تملكت شاما أم نهنيك إذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قطراً فقطرا إذ فتحت الشآم حصنا فحصنا
إن دين الإسلام منّ على الخلــق وأنت الذى على الدين منا
لك مدح على السماوات ينشا ومحل فوق الأسنة يبنى
شاق جبريل بيت جبرين فوا فى اليه شوقا وحنا (٢)
تخرج الساكنين منه ورب الــبيت فى بيته أحق بسكنى
كم تأنى النصر العزيز على الشا م ولما نهضت لم يتأنى (٣)
قمت فى ظلمة الكريهة كالبدر سـ ـناء والبدر يطلع وهنا
لم تقف قط فى المعارك إلا كنت يا يوسف كيوسف حسنا
يجتنى النصر من ظباك كأن الـ ـعضب قد صحفوه فصار غصنا
قصدت نحوك الأعادى فرد اللــه ما أملوه عنك وعنا
حملوا كالجبال عظما ولكن جعلتها حملات خيلك عهنا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركا نا فمن هد فارسا هد ركنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنــك لاقيتهم جبالا ومدنا
كل من يجعل الحديد له ثو با وتاجا وطيلسانا وردنا
خانهم ذلك السلاح فلا الرمح يغنى ولا المهند طنا
وتولت تلك الخيول ولم يثــن عليها بأنها ليس تثنى
وتصيدهم بحلقة صــيد تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بحاراً فجرت فوقها الجزائر سفنا

---

(١) الديوان ص ١٣٣ ومفرج الكروب ص ٣٠١ « على خلاف فى النسختين » .

(٢) جبريل لغة فى جبريل (القاموس المحيط مادة جبر) وجبرين اسم بلدة فى فلسطين . والمعنى الأخير هو المقصود .

(٣) هكذا بثبوت حرف العلة لحاجة الوزن إلى المد .

صنعت فيهم وليمة عرس   رقص المشرفى فيها وغنى
ظل معبودهم (١) لديك أسيرا   مستضاما فاجعل له النار سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم   من يُرى بعد صلبه قط أغنى؟
وحوى الأسر كل ملك يظن   الدهر يفنى وملكه ليس يفنى
ظن ظنا وكنت أصدق فى الله   يقينا وكان أكذب ظنا
كم تمنى اللقاء حتى رآه   فتمنى لو أنه ما تمنى
رق من رحمة له القيد والغل   عليـــه فـكلما أنّ أنا
واللعين الابرنس أصبح مذبوحا   بيمين — لم يعدم الدين يمنا (٢)
أنت ذكيته فوفيت نذرا   كنت قدمته فجوزيت حسنا
وتهادت عرائس المدن تجلى   وثمار الآمال فيهن تجنى
لاتخص الشام منك التهانى   كل صقع وكل قطر يُهنا
قد ملكت البلاد شرقا وغربا   وحويت الآفاق سهلا وحزنا
واغتدى الوصف فى علاك حسيرا   أى لفظ يقال أو أى معنى؟

أجل كما وفقت أيها الشاعر المصرى فى تهنئة السلطان بفتح حلب ، فكذلك وفقت فى تهنئته بفتح بيت المقدس . بل أن توفيقك فى الأخيرة كان أعظم وأظهر .

والعجيب أن مطالع القصائد التى قيلت فى التهنئة بهذا اليوم كانت كلها مطالع رائعة . . فانظر إلى الأبيات الأولى من هذه القصيدة ، وهى قول ابن سناء الملك :

لست أدرى بأى فتح تهنا   يا منيل الإسلام ما قد تمنى
أنهنيك إذ تملكت شاما   أم نهنيك إذ تملكت عدنا؟
قد ملكت الجنان قطرا قطرا   إذ فتحت الشآم حصنا فحصنا

إنها تدل على حيرة جميلة عند الشاعر الذى أتى يهنىء صلاح الدين الأيوبى . وأنها لتهنئة مزدوجة ؛ تهنئة بالفوز فى الدنيا بسبب هذه الفتوح ، وتهنئة بالفوز فى الآخرة أيضا . وأن هذا المعنى من المعانى فى تهنئة السلطان صلاح الدين ليذكر بمعنى أتى به العماد الأصفهانى فى رثاء نور الدين ؛ وذلك حيث يقول : —

---

(١) يريد صليب الصلبوت .   (٢) الإبرنس هنا هو ارناط .

ملكت دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة !

وانظر إلى تقدير الشاعر هنا لما للسلطان صلاح الدين من الفضل على الإسلام وعلى المسلمين وعلى جبريل أيضا: فأما فضله على الإسلام فعبر الشاعر عنه فى قوله :

إن دين الإسلام من على الخلـــق وأنت الذى على الدين منا

وأما فضله على المسلمين فعبر عنه الشاعر بقوله :

تخرج الساكنين منه ورب الـــبيت فى بيته أحق بسكنى

وإما فضله على جبريل فلأن السلطان أتاح له زيارة بيت المقدس :

شاق جبريل بيت جبرين فوا فى إليـــه شوقا وحنا

ومضى الشاعر بعد هـذا يصف الموقعة كما تخيلها ، ويصف بلاء المسلمين فى مقاتلة الصليبيين ، ويسخر فى أثناء ذلك من هؤلاء الصليبيين ، ومن بعض معتقداتهم فى صليب الصلبوت . ثم انتهى به خياله الشعرى إلى تلك الصورة التى رأينا فيها الموقعة قد استحالت إلى وليمة عرس يرقص فيها السيف ويغنى فيها الرمح . وأخيرا أتى إلى قصة البرنس أرناط الذى قتله السلطان بيده برا بيمين حلفها من قبل ، فسجل هذه الحادثة تسجيلا حسنا . وانتهى من القصيدة بنفس الحيرة التى بدأها ، كما فى قوله :

واغتدى الوصف فى علاك حسيرا أى لفظ يقال أو أى معنى ؟

وأما الشاعر المعروف (بأبى الحسن على ابن محمد الساعاتى) شاعر مصر والشام فى زمانه فقد نظم فى يوم القدس قصيدة منها(١) .

أعيـا وقد عاينتم الآية العظمى لأية حال ندخر النثر والنظما ؟
وقد شاع فتح القدس فى كل منطق وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب وأطرب ذياك الضريح وما ضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أعيـا دواؤه وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما وألسنة الأغماد توسعه لثما
سلو االساحل المخشى عن سطواته فما كان إلا ساحلا صادف اليما

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١٠٦ .

وكان ابن الساعاتى قد هنأ السلطان قبل ذلك بفتح طبرية ، وهو الفتح الذى سبق فتح القدس مباشرة ، وذلك فى قصيدة منها [١] .

جلت عزماتك الفتح المبينا   فقد قرت عيـــون المؤمنينا
رددت أخيذة الإسلام لما   غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما   يعز على العوالى أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء   وأنت تقاتل الأعداء دينا
وما طبرية إلا هدىّ   ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء   وسل عنها الليالى والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا   يصد الليث أن يلج العرينا
قست حتى رأت كفؤا فلانت   وغاية كل قاس أن يلينا
قضيت فريضة الإسلام منها   وصدقت الأمانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا   وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهات تطيق نطقا   لنادتك : أدخلوها آمنينا
فلا عدم الشآم وسا كنوه   ظبا تشفى بها الداء الدفينا
سهاد جفونها فى كل فج   سهاد يمنح الغمض الجفونا
وألمم بالسواحل فهى صور   إليك وألحق الهام المتونا
فقلب القدس مسرور ولولا   سطاك لكان مكتئبا حزينا
لقد جردت عزما ناصريا   يحدث عن سناه طور سينينا
فكنت كيوسف الصديق حقا   له هوت الكواكب ساجدينا
وإن تك آخرا وخلاك ذم   فإن محمدا فى الآخرينا

وقدم على السلطان شاعرا يقال له) الرشيد بن بدر النابلسى) فهنأه بيوم القدس فى قصيدة منها قوله : [٢] .

هذا الذى كانت الآمال تنتظر   فليوف لله أقوام بما نذروا

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ٨٤
(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١١٨

بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت — فى سالف الدهر أخبارٌ ولا سِيَر
حَيْنٌ به حان هلك المشركين فيا — لله طيب العشايا منـــه والبكر
الآن قرتْ جنوب فى مضاجعها — ونامَ من لم يزل حلفا له السهر
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم ال — إسلام من بعد طى وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت — بعد الصليب به الآيات والسور
شتان ما بين ناقوسٍ يدان به — وبين ذى منطق يصغى له الحجر
« الله أكبر » صوت تقشعر له — شُمُّ الذرا وتكاد الأرض تنفطر
يا مالك الأرض مهدْها فما أحدٌ — سواك من قائم للمهـــد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز[١] الساحلى ثمرا — إلا لتعلو به أعلامك الصفُر
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظة — فيها لأعدائك الآيات والنذر
سلبتهم دولة الدنيـــا وعيشتها — حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر
هذا الذى سلب الإفرنج دولتهم — وملكهم يا ملوك الأرض فاعتبروا

والقصيدة طويلة برغم أن الشاعر ختمها بقوله :

يغنيك إجمال قولى عن مفصله — فى لفظة البحر معنى تحته الدُّرَر

ومن شعر هذا الشاعر نفسه فى مدح السلطان وتهنئته بيوم الفتح ، قوله من قصيدة أخرى[٢] :

فإذا مررت بملكه وفتوحه — فاسخر بما يروى عن الأسكندر !
وإذا بصرت بجأشه وبجيشه — فاحث التراب على ذؤابة سنجر !

وكان من شعراء مصر الذين هنئوا السلطان بيوم الفتح ، شاعر يقال له (أبو على الحسن بن على الجوينى فخر الكتاب) ؛ وهو نزيل مصر ، ولكنه من أهل بغداد فى الأصل ، فقال من قصيدة أولها[٣] :

جند السماء لهذا الملك أعوان — من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه فى زمن — وقد مضت قبل أزمان وأزمان

---

(١) تقدم أن الطراز الأخضر : كناية عن مدن الساحل .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١١٨ أيضا .

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٠٤ .

هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما ... له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ... صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـ ... إسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذى الفتوح وما ... سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما ... فطهرت منـــه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنهـا وإخوته ... بل أين والدهم بل أين مروان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد ... تنزلت فيـــه آيات وقرآن
يا قبح أوجه عباد الصليب وقد ... غـدا يبرقعهـا شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما ... ملـكته وملوك الأرض خزان!
فالله يبقيـك للإسـلام تحرسـه ... من أن يضام ويلفى وهو حيران
إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وأتى من مصر أيضا شاعر يقال له (نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير العزيزى) . ومعه قصيدة فى تهنئة السلطان ، عرضها العماد عليه وهو بالقدس ، ومنها[1] :

الوقت أضيق من سماع قصـيدة ... موسومة لصفات أغيـد أهيف
بالناصر المهـدى والهادى إلى ... سبل الجهاد أبى المظفر يوسف
شـدت قوى أركان ملة أحمد ... وتجملت بجهـاده فى الموقف
ملك إذا أم الملوك جنـابه ... لاذوا بأكرم من يؤم وأشرف
وإذا أتوا أسرى إلى أبوابه ... وقفوا بأعظم من يصول وأرأف
مولى غدا للدين أكرم والد ... حدب على أبنـــائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشـه ... أعظم به من صارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم ... وأقام فى الإنجيل حد المصحف
مغرًى بتجريح الرجال لأنه ... يروى أحاديث العوالى الرعف
ملك له فى الحرب بحر تفقه ... وله غداة السلم زهد تصوف

(١) الروضتين : جـ ٢ ص ١٠٣

وعليه أنزل فى الجهاد مفصل فلذاك يقرؤه بسبعة أحرف
يأيها الملك الذى لطباعه وسيوفه خلقا رضا وتعسف
لله يوم عروبة [١] إذ أعربت ساعاته عن نصرك المتعرف
أو ما رأى الأعلاج حين دعوتها بلسان سيف فى الكريهة ملحف
لم تستطع عصيان أمرك بل أتت منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها [٢] وشن بأختها وكذاك حتى الأربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظ بشبا سنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الأخضر استفتحته فزها بثوب من علاك مسجف [٣]
أحييت دين محمد وأقمته وسترته من بعد طول تكشف
لخذ الخراج من البسيطة كلها واستأد فرضى جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثأرها وصدورها بك عن قريب تشتفى
فانهض بها وتقاض حقك موقنا أن الإله بما تؤمله حفى
هم فتية الأتراك كل مجفجف يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة لا ينظرون إليه من طرف خفى
إن صبّحوا الأعداء فى أوطانهم تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا لله در المصطفى والمصطفى

وتبدو فى روح هذه القصيدة وفى أسلوبها الثقافة الدينية ، فالشاعر يستشعر بعض ألفاظ القرآن الكريم، من مثل «ينظرون من طرف خفى» و«قاع صفصف» ، وفيها مايدل أو يشير إلى معرفته بالقراءات ، أو على الأقل هو يشير إلى الحديث : « نزل القرآن على سبعة أحرف » . ومع أن الشاعر - على مايبدو - فقيه ، فشعره مقبول ، وليس فيه التكلف الشديد الذى يصدر عن الفقهاء فى شعرهم أغلب الأحيان .

وأتى شاعر آخر هو (شهاب الدين فتيان الشاغورى) فهنأ السلطان بقوله [٤] :

---

(١) يوم عروبة، بفتح العين : هو يوم الجمعة . وهواليوم الذى انتصر فيه صلاح الدين فى موقعة حطين .
(٢) يريد جارة يافا ، لأنها ذكرت قبل ذلك فى القصيدة .
(٣) الطراز الأخضر : يريد به بلاد الساحل — كما قلنا — من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وبيروت الخ .
(٤) الروضتين . ج ٢ ص ١١٩

رب الملاحم لم يؤرخْ مثلها ال علماء قدما فى قديم الأعصر
خلعت عليه خلعة الملك التى زيدت بهاراً [١] بالطراز الأخضر
راياته صفر تثود وتنثنى حمرا تمج نجيع آل الأصفر
لم لمْ تدن شوسُ الملوك له وقد ملك السواحل فى ثلاثة اشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة من كل ذى نجس بكل مطهر
وأريتهم يوم التقى الجمعان بالبيـــت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه بالمسجد الأقصى بوجه مسفر
وأعدت ما أبداه قبلك فاتحا عمر فأنت شريكه فى المتجر
حتى جمعت لمعشر الإسلام بيـ ن الصخرة العظمى وبين المشعر

وهذه الأبيات الأخيرة زاخرة بالمعانى الدينية العزيزة على نفوس المسلمين وأما « الطراز الأخضر » الذى كثر ذكره فى أشعار الشعراء ، فإشارة إلى تنبؤ أو حلم من أحلام المسلمين التى أشرنا إليها . وفيه أن شيخا من شيوخهم رأى قبل يوم الفتح بعشر سنين على رواية ، واثنتين وخمسين سنة على رواية أخرى ، كأن إنسانا ذا جهامة وقف على حائط بجامع دمشق وهو يقول :

ملك الصياصى والصواصى ناصرٌ للدين بعد إياسه أن ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعدما يطوى الطراز له ويقتل قيصرا [٢]

وأما العماد الأصفهانى ، وكان يصاحب السلطان فى هذه الغزوة ، فقد أكثر من نظم الشعر فى يوم القدس . ومما هنأ به السلطان قصيدة له بدأها بالغزل ، ثم قال [٣] :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا فى الأرض سبعة أبحر ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا ينير بما يولى ليالينا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم عداتك جن الأرض فى الفتك لا الإنسا
فلا يستحق القدس غيرك فى الورى فأنت الذى من دونهم فتح القدسا

(١) بهر القمر بهارا : غلب ضوءه ضوء الكواكب .
(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١٠٤
(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٠١ .

ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا   فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها   وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه   فلا بطركا أبقيت فيه ولا قسا
وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة   بأن أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت   ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

وأما الغزل الذى قدمه العماد بين يدى هذه القصيدة — وذلك على غير مألوف الشعراء الذى رأيناهم لا يبدءون بالغزل فى تهنئة صلاح الدين بفتح المقدس، فمنه قوله :

حسبت حبيبى قاسى القلب وحده   وقلب الذى يهوى بحمل الهوى أقسى
أما لكم يا مالكى الرق رقة   يطيب بها مملوككم منكم نفسا
وإن سرورى كنت أسمع حسه   فمذ سرتُ عنكم ما سمعت له حسا
وإن نهارى صار ليلا لبعدكم   فما أبصرت عينى صباحا ولا شمسا
بكيت على مستودعات قلوبكم   كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا
فلا تحبسوا عنى الجميل فإننى   جعلت على حبى لكم مهجتى حبسا

* * *

وأتى العماد الأصفهانى فى كتابه « البرق الشامى » على ذكر شاعر يقال له « الحكيم أبو الفضل الجليانى» قال إن له قدسيات طوالا، وقف العماد على بعضها، ونقل إلينا جزءا منها. قال الجليانى : « لم أزل من أول ما ولى الناصر الأمر فى مصر، أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه وتعالى، فامتدحته سنة خمس وستين وخمسمائة بقصيدة نيفت على مائة بيت — ثم ذكر بعض أبياتها. ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة، نيفت أيضا على مائة بيت، منها فى التباشير[(١)] .

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها   بنى أصفر بالراعفات اللهاذم
فتسبى فلسطينا وتجبى جزائرا   وتملك من يونان أرض الأساحم
وتعنو لها الأملاك شرقا ومغربا   بذا حكمت حذاق أهل الملاحم

وأخذ الشاعر يعد قصائده فى مدح السلطان، ثم قال: وأما القصيدة الفتحية الناصرية

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١١٦ .

(يريد التى هنأ بها السلطان بفتح القدس فأولها)[١] :

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر فذو البصيرة فى الأحداث يعتبر
مالى أرى ملك الإفرنج فى قفص أين القواضب والعسالة السمر
والإسبتار إلى الداوية التأموا كأنهم سد يأجوج إذا اشتجروا [٢]
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب[٣] جحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت[٤] ماللقوم قد سبتوا تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا كمدين أم لقوا رجفا بما كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا فى ساعة زال ذاك الملك والقدر !
أهوى إليهم صلاح الدين مفترسا وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
وأنجز الله للسلطان موعده ونذره فى كفور دينه البطر
وعاين الملك الأبرنس فى دمه فمات حيا وحياً وهو يعتذر
رأى مليكا ملوك الأرض تتبعه والنجم يخدمه والشمس والقمر
هذا المليك الذى بشرى النبى به فى فتنة البغى للإسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذى القرنين واعترفت له الرواة بما لم ينمه أثر
أعين إسكندر بالخضر وهو له عون من الله يستغنى به الخضر
وصنع ذى العرش إبداع بلا سبب فلا تقل: كيف هذا الحادث الخطر؟
بينا سباياه تجلى فى دمشق إذا ملك الفرنج مع الأتراك محتجر
إزاءه زعماء الساحلين معا مصفدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا وحوله كل قسيس له زبر
يسبى فرنجة من أقطارها وله مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعض أبنائه بالقدس منتدب وبعضهم رومة الكبرى له وطر
براية تخرق الأرض الكبيرة فى جمع تقول له الأجسام : لا وزر

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ١١٦ .
(٢) أسرعوا وتراصوا .
(٣) التل : يقصد به تل حطين .
(٤) وهو اليوم التالى لليوم الذى انتصر فيه صلاح الدين فى موقعة حطين .

وهذه القدسية العظيمة لا تقل في نظرنا عن القصائد التي قيلت في يوم الفتح ، بل إنها تنهل من معينها ، وتنسج على نسجها ، وتصدر عن نفس الروح المعنوى القوى الذى أحسه المسلمون منذ انتصروا هذا الانتصار الحاسم على الصليبيين .

* * *

وكان الرحالة المعروف « بأبى الحسين بن جبير الأندلسى » من أشد المعجبين بالسلطان صلاح الدين، وكان كثيرا ما يمدحه ، فانتهز فرصة انتصاره بالقدس ، ووجه إليه هذه القصيدة[١] .

أطلت على أفقك الزاهر ... سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا ... تمد إلى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم ... حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة ... فلله درك من كاسر
وأمضيت جدك فى غزوهم ... فتعسا لجدهم العاثر
وأدبر ملكهم بالشآم ... وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصورة ... فناجز متى شئت أو صابر
ثأرت لدين الهدى فى العدا ... فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى ... فسماك بالملك الناصر
تبيت الملوك على فرشهم ... وترفل فى الزَّرَد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجهاد ... على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك فى حق من ... سيرضيك فى جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضه ... فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى ... فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى ... وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذا الفتوح ... من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد فاروقه ... بها لاصطناعك فى الآخر

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١٠٥

هكذا اشترك العالم الإسلامى كله فى التهنئة بهذا اليوم ، وشارك فى السرور به ، والاحتفاء بصاحبه السلطان صلاح الدين الأيوبى . والواقع أن الشعراء مهما جودوا، وأن الكتاب والخطباء مهما أبدعوا ، فإن الفضل كل الفضل فى تجويدهم — كما قلنا — لسيف هذا الرجل، ولبطولته وبطولة الجند الذين حاربوا معه .. وهكذا يبين الانتصار عما فى نفوس المسلمين من فضائل ، كما يبين عما فى شعرائهم خاصة من نبوغ .

وندع الشعراء يتغنون هذا الغناء ، ونعود إلى السلطان، فنرى أنه أخذ يفكر فى إتمام عمله ، ولم يبق أمامه يومئذ إلا فتح بقية الحصون ، ففتح منها كما قدمنا حصون : أنطرسوس واللاذقية وصهيون ، وهذه الأخيرة هى باب أنطاكية ، وحصن بكاس على نهر العاصى ، وحصن برزيه الذى يضرب به المثل فى بلاد المسلمين والفرنج معا ، وحصن بفراس ، والكرك ، وكوكب ، وشقيف أرنون . وكان الشعراء يتبعونه فى كل هذه الفتوح ، ويزدحمون على بابه طمعا فى العطاء ، حتى قال فى ذلك شاعر بغداد سبط ابن التعاويذى من قصيدة له [1]

فلا يضجرنك ازدحام الوفود ... عليك وكثرة ما تبذل

فإنك فى زمن ليس فيه ... جواد سواك ولا مفضل

وقد قل فى أهله المنعمون ... وقد كثر البائس المرمل

وما فيه غيرك من يستماح ... وما فيه إلاك من يسأل

ولا ننسى أن نقول بعد هذا كله إن القاضى الفاضل كان راعيا أمينا لجماعة الشعراء والأدباء ، والعلماء والفضلاء ، يقربهم إلى السلطان . ويقترح عليه أرزاقهم ، فلا يقطعها عنهم مدة حياتهم ، ولا يشين دولة السلطان أو يعيب تاريخها بمثل هذا القطع .

نضر الله ثرى عبد الرحيم البيسانى ، لقد كانت حياته نعمة من نعم الله على السلطان صلاح الدين ، وكانت آراؤه أثمن ما تملكه دولته من كنوز .

* * *

ثم أتت الحملة الصليبية الثالثة نجدة للفرنج الذين أزاحهم السلطان عن البلاد ، فلم تستطع هذه الحملة كما قلنا ، أن تغير شيئا من موقف السلطان ، لأنها عجزت عن استنقاذ

---

(١) الروضتين . ج ٢ ص ١٣٨ .

بيت المقدس من يده ، وفى ذلك يقول الشاعر الذى تقدم ذكره ، وهو الحكيم أبو الفضل الجلياتى [١] .

يامنقذ القدس من أيدى جبابرة قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فأكذبوا كذبهم فى وصف ربهم وصدق الوعد مأمونا محوله
أما رأيت ابن أيوب استقل بما يعي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد حاروا لفتكته واستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبي القدس قالوا كيف نتركها والرب فى حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى لينصروا القبر والأقدار تخذله
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم واستكثروا المال والهيجا تنفله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه وكلما لج صدما حلّ مقتله
سيف أمام فلسطين يرى أمما خلف البحار لقد أمهاه صيقله
كم قد أعدوا وكم قد فل جمعهم من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر فى جيش العدا فيسبيهم تخيله

ويخيل إلى الإنسان كأنما تحول الشعراء فى عهد صلاح الدين فى جميع بقاع الشام ومصر إلى أبواق تصيح باسم صلاح الدين وحملاته وانتصاراته على الصليبيين ، وكيف أنهم لا يستطيعون أن يثبتوا لحروبه وجيوشه .

غير أن اجتماع ملوك الفرنج ، ومن ورائهم ملوك الغرب ، قوى شوكتهم فى ذلك الوقت — وقد رأينا كيف أنهم عزموا على حصار عكا ، وأن المسلمين فى هذه المدينة قد اصطلحت عليهم مصائب شتى : فالعدو فى الخارج ، والوباء والجوع والغلاء فى الداخل ، والموت يسعى فيهم حثيثا ، وهذه الأخبار السيئة كلها تصل إلى السلطان فى مخيمه ، فيصيح صيحة يأس كاد ينخلع لها قلبه قائلا :

« اقتلانى ومالكا واقتلا مالكا معي ! »

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١٥١ .

ويستغرق السلطان فى أحزانه . فلا يجد غير القاضى الفاضل مواسيا له فى هذه الأحزان. وسنأتى على بعض الرسائل الفاضلية فى هذا المعنى ، عند الكلام على النثر فى خدمة الحروب الصليبية .

* * *

ثم تبدأ المفاوضات بين السلطان وبين ريشارد ، وتنتهى بعد عناء إلى صلح الرملة ، الذى قبله السلطان على خوف مما بقى فى يد العدو من بلاد ، قائلا يومذاك :

« أخاف أن أصالح وما أدرى إيش يكون منى، فسيقوى هذا العدو ، وقد بقى لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة « يريد المسلمين » قد قعد فى رأس قلة « يريد حصن » ، وقال : لا أنزل ويهلك المسلمون .

قال أبو شامة : فهذا كلامه .

وكان كما قال رحمه الله ، لكنه رأى المصلحة فى الصلح ، لسأم العسكر، ومجاهرتهم بالمخالفة ، وكان ذلك لمصلحة علمها الله تعالى ، فقد اتفقت وفاته بعد الصلح بقليل [١].

نعم « مات صلاح الدين وخلت الأرض من جبلها الذى كان يمنعها أن تميد ، وأصبح الإسلام — وقد فقد ناصره — ثاكلا لوحيد ، فهذا أعظم فاقد لأعظم فقيد [٢] »

فرثاه كثير من الشعراء ، وأهمهم العماد الذى ختم كتابه « البرق الشامى » بقصيدة طويلة عدتها مئتان واثنان وثلاثون بيتا أولها [٣] :

شملُ الهدى والملك عم شتاته	والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية	مرجوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنا	مبذولة ولربه طاعاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه	ذلا ومنها أدركت تاراته
فى نصرة الإسلام يسهر دائما	لتطول فى روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد	فممات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محاميا	أبدا إذا ما أسلمته حماته

---

(١) الروضتين : ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٢١٥

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ٢١٥

الدين بعد أبى المظفر يوسف   أقوت قواه ، وأقفرت ساحاته
ما كنت أعلم أن طودا شامخا   يهوى ولا تهوى بنا مهواته
من لليتامى والأرامل راحم   متعطف مفضوضة صدقاته
من للثغور وقد عداها حفظه   من للجهاد ولم تعد عاداته
يا وحشة الإسلام حين تمكنت   فى كل قلب مؤمن روعاته
ما كان أسرع عصره لما انقضى   فكأنما سنواته ساعاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه   لهم ففيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه   واليوم هم حول السرير مشاته

ومن رثوا السلطان كذلك شاعر يقال له : « شمس الخلافة » قال (١)

هو الدهر فاعلم ما على الدهر من عتب   يشوب الرضا بالسخط والسلم بالحرب
وإن هو أعطى أو كسا متكلفا   فلا بد من أخذ ولا بد من سلب
فلا تأمنن الموت شيخا ويافعا   فللموت من رَبَّى وللموت من رُبِّى
ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا   ومد يدا منه إلى دافع الخطب
إلى الناصر الملك الذى ملئت به   قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن   لينزله إلا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل   لخاب وليس البخل من شيم السحب

* * *

أجل مات صلاح الدين ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ،ودينارا واحدا ذهبا صوريا ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة .

ودفن بقلعة دمشق ، ورأى القاضى الفاضل أن يدفن معه سيفه الذى كان معه فى الجهاد قائلا :

« هذا يتوكأ عليه إلى الجنة » (٢) !

---

(١) شفاء القلوب « مخطوط » : ص ٥٠ ب

(٢) الروضتين : جـ ٢ ص ٢١٥ .

الفصل السابع

المرحلة الرابعة من مراحل الحروب الصليبية

ومصر هي مركز الجاذبية الصليبية فى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل هذه الحروب الدينية ، ما دامت هى البلد الذى منح بنى أيوب فترة طويلة ، وفرصة نادرة فى الانتصار على الفرنج ، وقد استقر رأى هؤلاء الفرنج على إضعاف المسلمين فى هـذا الحصن الحصين، الذى هو قلب العالم الإسلامى فى ذلك الحين ، ألا وهو مصر . ومن ثم رأينا أنهم وجهوا إليها ثلاث حملات صليبية .

أولاها : الحملة التى قادها چان دى بريين Jean de Berienne فى عهد الملك العادل أبى بكر سيف الدين أخى صلاح الدين .

والثانية : الحملة التى قادها الإمبراطور فردريك الثانى ، فى عهد الملك الكامل ابن الملك العادل أبى بكر سيف الدين بن أيوب .

والثالثة : الحملة التى كانت بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وذلك فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولقد كان النصر فى هذه المواقع كلها حليف المصريين ، الذين كلفوا الصليبيين خسائر فادحة ، وأعجزوهم عن الاحتفاظ بالأماكن المقدسة ، كما أعجزوهم عن الاحتفاظ بإماراتهم اللاتينية ، التى أسسوها من أجل هذه الأماكن المقدسة ، وأهم من ذلك كله أنهم لم يمكنوهم من الاستيلاء على مصر .

ثم أتى دور سلاطين الأتراك الذين لم يبق لهم من عبء الحروب الصليبية كلها إلا الجزء اليسير ، فتمكن بيبرس من أخـذ يافا وأنطاكية وأرسوف . ثم أفلح قلاوون من بعده فى أخذ اللاذقية ، وعكا ، وطرابلس . وبذلك تم لسلاطين الأتراك طرد آخر صليبى من البلاد الساحلية بل بذلك ختمت قصة هـذه الحروب الدينية ، وحالت الأحوال السياسية إلى ما كانت عليه قبل أن يلقى البابا أربان الثانى خطبته التى أشعلت نار هذه الحرب . .

مات السلطان صلاح الدين ، واختص كل واحد من أولاده بجزء من دولته ، فكان لولده الأفضل « دمشق » وكان لولده الظاهر « حلب » . وكان لولده العزيز عثمان « مصر » ، ثم كان لعمهم العادل أبي بكر « البلاد الشرقية » ، وتشمل الجزيرة ، والرها ، وميَّافارقين ، وديار بكر . ولم يكتف العادل بذلك حتى ضم إليه ملك الكرك والشوبك .

وأما المدن الشامية الباقية ، فقسمت على أبناء عمومة العزيز ، فكان للمنصور محمد ابن تقى الدين عمر « حماة » وللمجاهد شيركوه — حفيد أسد الدين شيركوه — « حمص » ، ولأبناء طغتكين سيف الإسلام أخى صلاح الدين « اليمن » الخ .

ولم يكد السلطان يفرغ من أمر هذه الدنيا حتى دب الخلاف بين أبنائه من بعده ، وأخذ بعضهم يحارب بعضا ، وكاد هذا النزاع أن يؤثر فى ملكهم ، ويضعف سلطانهم ، ويقلل من هيبتهم أمام عدوهم ، لولا أن الله كان يمن عليهم بنسيان هذه الأحقاد حال ظهور الخطر الصليبى على البلاد[1] .

أما هذا الخطر الصليبى ، فقد عاد إلى الظهور منذ خرق الفرنج الهدنة التى عقدوها مع الملك العادل سنة ستمائة ،وفكروا فى نفس هذه السنة فى استرداد بيت المقدس ، ومهدوا لذلك بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها ، ثم تجمعوا فى عكا من كل جهة ، « فخرج العادل من دمشق ، وكتب إلى سائر الممالك يطلب النجدات ، فنزل قريبا من جبل الطور ، على مسافة يسيرة من عكا ، وعسكر الفرنج ببرج عكا ، وأسروا من كان هناك ، وسبوا ونهبوا ، وانقضت هذه السنة والأمر على ذلك »[2] .

ومضى أربعة عشر عاما على هذه الحال ، وغارات الفرنج لا تقف ، ودفاع العادل وأتباعه من الملوك لا يني ، حتى أيقن الفرنج فى أنفسهم أنه لا أمل فى نجاحهم إلا بالاستيلاء على مصر نفسها ؛ فاجتمع رأيهم على الرحيل من عكا إلى دمياط « وكان إذ ذاك على النيل برج منيع فى غاية القوة والامتناع ، فيه سلاسل من حديد ، عظام القدر والغلظ ، تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر ، وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله ، وكانا مشحونين بالمقاتلة . ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط « بين البرجين »[2] .

---

(١) السلوك : الجزء الأول — القسم الأول ص ١٦٣ ط زيادة .

(٢) السلوك : قسم أول ص ١٨٨ ط زيادة .

وألح الفرنج فى مقاتلة أهل البرج ، فلم يظفروا بشىء ، وتمادى الأمر على ذلك أربعة أشهر ، والملك العادل فى أثناء ذلك يشتغل بتجهيز عسكر الشام إلى دمياط ، حتى صار عند الكامل من الجند ما لا يحصى عدده .

وبينما العادل مهتم بالفرنج على هذا النحو ، إذ ورد عليه الخبر بأن جنود الچرمان بقيادة چان دى بريين من الچرمان أخذوا برج السلسلة . فتأوه العادل تأوها شديدا ، ودق بيده على صدره أسفا وحزنا ، ومرض من ساعته ، واشتد به المرض حتى مات فى سابع جمادى الآخرة ، فكتم أصحابه موته ، وقالوا قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى ، فحمل فى محفة وعنده خادم ، والطبيب راكب بجانب المحفة يصلح الأشربة ، ويحملها الى الخادم ليشربها السلطان ، ويوهم الناس بذلك أنه حى .

واستقل الملك الكامل بعد أبيه العادل بأمر الفرنج ، وكانت المنافسة على أشدها بينه وبين أقاربه على الملك ، فلم يستطع فى أول الأمر أن يتفرغ للجهاد ، وفكر فى أن يعرض على أعدائه من الفرنج أن يرد إليهم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية ، فى مقابل جلائهم الناجز عن دمياط .

ولكن نكد الطالع الذى لازم الفرنج فى ذلك الوقت ، قضى عليهم أن يرفضوا مثل هذا العرض ، وكان رسول البابا بلاجيوس Belagius عاملا مهما فى هذا الرفض ، ومن ثم عاد الفريقان إلى القتال ، وحاصر الفرنج دمياط عاما ونصف عام ، وأهلها صابرون صبر الأبطال ، على المرض وقلة الأقوات وغلاء الأسعار ، وقد حيل بينهم وبين سلطانهم الملك الكامل ، فلا تصل إليه أخبارهم إلا بحيلة رجل من رجاله يسمى (شمايل) ، «كان يخاطر بنفسه ، ويسبح فى النيل ، فيدخل إلى مدينة دمياط ، ويأتى السلطان بأخبار أهلها ، فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها ، ووعدهم بقرب وصول النجدات »[١] .

وهكذا جرى القضاء بأخذ دمياط ، ووضع الفرنج السيف فى أهلها ، فلم يعرف عدد من قتل منهم لكثرتهم ، وطمع الفرنج بعد ذلك فى أخذ القاهرة ، وزينوا لأنفسهم أن يملكوا الديار المصرية ، ولكن غاب عن قائدهم چان دى بريين وجنوده الچرمان ، أنهم

---

(١) السلوك : قسم أول ص ١٩٨

ارتكبوا يومئذ خطأ حربيا كبيرا ، باختيارهم طريق دمياط ، وتركهم الطريق الطبيعى لفتح مصر ، وهو الطريق الذى سلكه الفاتحون من قبل ، من لدن قمبيز والإسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص .

وسرعان ما أتت النجدات إلى الملك الكامل ، وكان أولها قدوما نجدة الملك الأشرف موسى أخى السلطان ، وآخرها وصولا نجدة الملك المعظم عيسى ، وفيما بينهما نجدات الملوك الآخرين . وتقدم الصليبيون إلى الجنوب ، فلقيتهم جيوش الإسلام عند المنصورة ، وحالت دون تقدمهم بعد ذلك ، وكان الوقت وقت فيضان النيل ، فقطع المسلمون السدود ، فأحاط ماء النيل بالعدو من كل جهة ، وحاولوا العودة إلى دمياط ، فما استطاعوا ، وأيقن الجميع بالهلكة عن آخرهم ، وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة ، وأن المسلمين فكروا فى أن يفنوهم ، ويقضوا عليهم قضاء تاما ، لولا أن منعهم من ذلك السلطان الملك الكامل ، الذى رأى بحكمته و بعد نظره أن يمنحهم حياتهم ، على أن يغادروا دمياط من فورهم ، فذلك خير لهم وللملك الكامل نفسه ، من أن يؤدى قتلهم بأيدى المسلمين إلى قيام حملة صليبية أخرى ، ربما كانت أشد وأنكى .

وهكذا تمت خيبة هذه الحملة الصليبية ، وضاعت من أصحابها أثمن فرصة ذهبية ، وهى الفرصة التى عرض عليهم فيها الملك الكامل أخذ القدس ، والجلاء عن دمياط .

ثم قدمت قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط ليسلموها إلى المسلمين . فلما تسلمها المسلمون ، قدم فى ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة — يقال إنها ألف مركب — فعد تأخرهم إلى ما بعد تسلمها صنعا جميلا من الله سبحانه وتعالى[١] .

وكان الذى أعد هذه الحملة التى وصلت إلى دمياط بعد إمضاء شروط الصلح ، هو الإمبراطور فردريك الثانى ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

وكان أجل الهدنة التى بين المسلمين والصليبيين ثمانى سنوات ، وما كاد هذا الأجل ينتهى ، حتى رجع الفرنج يلحون على الملك الكامل أن يبذل لهم ما كان قد وعدهم به من قبل ، وهو بلاد الساحل كلها بما فى ذلك القدس . ووصل الإمبراطور فردريك الثانى إلى عكا عام ٦٢٥ هـ و بعث إلى الملك الكامل يقول له : « كنتم بذلتم لنائبى — فى زمن

---

(١) السلوك : قسم أول ، جزء أول ، ص ٣٠٩

حصار دمياط — الساحل كله وإطلاق الحقوق بالأسكندرية . وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها إليكم . ومنْ ناثبي ؟ . إن هو إلا أقل غلمانى ، فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتموه له »(١) .

فتعجب الملك الكامل من ذلك ، وآثر أن يراسله ويلاطفه ، وذلك لما كان بينه وبين هذا الامبراطور من الود ، الذى أحاطه المؤرخون بالأخبار الكثيرة ، والقصص العجيبة .

والحق أنه كان بين الرجلين تشابه عظيم ، من حيث العقل والخلق معا ، إذ كان الملك الكامل أوسع ملوك بنى أيوب حرية فى الفكر ، وأكبرهم حظا من مرونة الخلق ، وكان الإمبراطور فردريك مشهورا بآرائه الدينية الحرة ، وذلك منذ طعن على البابا والكنيسة ، وعاب على رجال الدين انغماسهم فى ملاذ الدنيا ، وانحرافهم عن الحياة الخشنة التى كان يحياها المسيح .

وكان فردريك قد وعد البابا أنه يقوم له بحملة صليبية ، ولكنه لم يتيسر له أن يبر بوعده فى أول الأمر ، فلما عاد البابا يحرك فيه هذا العزم ، خرج من بلاده متظاهرا بالتوجه إلى فلسطين ، غير أنه عاد بعد أيام قليلة بحجة أنه مريض ، فغضب عليه البابا ، وطرده من رحمة الكنيسة ، وصب عليه اللعنة ، ووصفه باللصوصية والقرصنة .

ثم حدث أن تزوج الإمبراطور فردريك من ابنة چان دى بريين وهو الوارث الاسمى لمملكة بيت المقدس ، وكان أمراء الصليبيين يتوارثون هذا اللقب ، حتى بعد أن استرد المسلمون بيت المقدس .

وخرج الإمبراطور فعلا إلى فلسطين فى عشرة آلاف من المقاتلين . وكان الملك الكامل إذ ذاك مشغولا بالخلاف بينه وبين أخيه المعظم عيسى ، فرأى أن يعقد هدنة بينه وبين فردريك ، أمدها عشر سنين ، ومن شروطها أن ينزل السلطان لفردريك عن مدينة بيت المقدس ، على أن تظل الأماكن الإسلامية المقدسة ملكا للمسلمين ، وفى مقابل ذلك يتعهد الإمبراطور بأنه يذود عن السلطان كل صليبى يحاول الاعتداء على بلاده ، ولا يمكن الحكام الصليبيين فى أنطاكية وطرابلس وطرسوس من أن يتلقوا مددا من الجند من ذلك اليوم .

---

(١) السلوك : قسم أول ، جزء أول ، ص ٢٢٨ .

والحق أن هذه المعاهدة كانت كسبا عظيما للملك الكامل ، ولكنها كانت مع ذلك موضع سخط من المسلمين والصليبيين على السواء ؛ فأما المسلمون فقد اعتبروا تسليم القدس ولو بعد تخريبه عجزا من الملك الكامل ، فقال لهم الملك :

إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وآدر[١] خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع[٢] .

وأما أمراء الصليبيين فرأوا فى هذا الصلح أنه قطع الصلة بينهم وبين إخوانهم الذين لن يمدوهم بشىء يحتاجون اليه .

ودخل الأمبراطور القدس ، وأبى بطريق المدينة أن يلبسه تاج أورشليم ، فلم يعبأ الأمبراطور الساخر بهذا التقليد . وزعمت الرواية الإسلامية ، أنه زار المسجد الأقصى وفيه الصخرة المقدسة ، وصعد درج المنبر ، فرأى قسيسا بيده الإنجيل ، فزجره وأنكر مجيئه ، « وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ، ليأخذن ما فيه عيناه » وقال : « إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس ، على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره » . فأنصت القس وهو يرعد خوفا منه .

ثم نزل الملك — يريد فردريك — ، وأمر قاضى نابلس المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة ، فلم يؤذنوا البتة ، فلما أصبح قال الملك للقاضى : « لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر » ؟ فقال له القاضى : « منعهم المملوك إعظاما للملك ، واحتراما له » . فقال الأمبراطور : « أخطأت فيما فعلت ، والله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل » .

وفى رواية أخرى قوله : « تغيرون شرعكم وذمتكم من أجلى ؟ فلو كنتم عندى فى بلادى ، هل كنت أبطل الناقوس من أجلكم ؟ الله الله لا تفعلوا ؛ هذا أول ما تنقصون عندنا »[٣] .

* * *

(١) آدر جمع قلة ، ودور جمع كثرة

(٢) السلوك جزء أول قسم أول ص ٤٣ .

(٣) عقد الجمان للعينى : ج ٢ قسم أول ص ٨٢ — ٨٣ . نقلا عن مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى .

على أنه منذ ذلك اليوم ، والفرنج فى القدس يأخذون فى عمارة أسواره ، ولا يستحيون من أنهم إنما يخالفون بهذا العمل نصا هاما من نصوص المعاهدة التى بينهم وبين الملك الكامل ، فلما بلغ ذلك أحد ملوك بنى أيوب ؛ وهو الملك الناصر داوود بن أخي الملك الكامل ، ذهب بنفسه إلى القدس ، ورماه بالمجانيق ، وهدم البرج الذى بناه الفرنج .

ثم فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صح عزم الصليبيين على أن يبذلوا آخر جهد لهم ، وأن يضحوا بآخر سهم من سهامهم ، أو أن يلعبوا بآخر ورقة فى أيديهم ، محاولين أن يستولوا فى هذه المرة على مصر ، ولهذه الغاية قاموا بتنظيم الحملة الصليبية السابعة ، بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو رجل معروف عندهم بالورع والتقوى ، حتى لقد أطلقوا عليه اسم « القديس لويس » . وكان سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضا وقت مجىء لويس ، فلم يقدر على الحركة ، فأتى الملك لويس دمياط ، وأخذها بغير عناء ، وتقهقر المصريون أمامه إلى المنصورة ، ولكن لويس وقع يومئذ فى الخطأ الذى وقع فيه چان دى بريين ، وذلك باختياره طريق النيل ، وإن كان قد وصل قبل وقت فيضانه ، فقدر له النصر أول الأمر ، ولكنه باء بالخيبة والإخفاق حين أتى وقت الفيضان . وفى الساعة التى ملك فيها لويس دمياط كتب إلى السلطان كتابا هذا نصه :

أما بعد ، فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية ؛ وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء والبنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ؛ وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الإيمان ، وأدخلت علىّ [مع][1] القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ماردنى ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك فى أعز البقاع عليك ؛ فإن كانت البلاد لى ، فيا هدية حصلت فى يدى ؛ وإن كانت البلاد لك والغلبة علىّ ، فيدك العليا ممتدة إلى . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك » .

---

(١) زيادة تستقيم بها الجملة .

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرىء عليه ، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع ، فكتب الجواب بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد ، كاتب الإنشاء ، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين :

« أما بعد فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ؛ فنحن أرباب السيوف ، وما قتل مِنَّا قرن إلا جدَّدناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأت عيناك — أيها المغرور — حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء[1] بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

فاذا قرأت كتابى هذا ، فكن فيه على أول سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ؛ وكن على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد حين » . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين »[2] .

وقد انزعج الناس بدمياط ، وأخلوا هذه المدينة ، وهربوا بأموالهم ونسائهم وأطفالهم إلى القاهرة ، فلما علم السلطان بما فعله أهل دمياط ، أمر بشنق شجعانهم الذين خرجوا من المدينة بغير إذن منه ، وعنف الباقين تعنيفا شديدا ، وقال لهم : « أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج » ! ثم أمر السلطان فحملوه فى محفة إلى المنصورة ، والسل والناصور يأكلان جسده ، ويهدان قوته ، حتى مات ، فأخفت زوجته « شجرة الدر » موته ، إلى أن قدم إليها ابنه تورانشاه .

ومع ذلك فقد علم الفرنج بموت السلطان ، فخرجوا من دمياط ونزلوا « بفارسكور » ، ومراكبهم فى النيل سائرة فى محاذاتهم ، فعلم أهل القاهرة بوصولهم ، فقرىء عليهم من فوق منبر الجامع بها كتاب بليغ ، بقلم البهاء زهير كذلك ، فيه قوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » فحصل عند قراءته من النحيب والبكاء ، وارتفاع الأصوات بالضجيج ، مالا يوصف .

---

(١) فى الأصل : تسىء .

(٢) السلوك : ج أول قسم ثان ص ٣٤٧ .

وارتجت القاهرة ومصر ، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم ، واشتد كربهم من تمكن الفرنج وقوتهم ، مع موت السلطان(١) .

واشتد حصار الفرنج للمنصورة ، ووصل أخو الملك لويس – واسمه كونت أوف أرتوا connt of artois ومعه جنده – إلى خيمة السلطان تورانشاه « إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التى تعرف بالبحرية « يريد المماليك البحرية » ، وفيهم ركن الدين بيبرس البنداقدرى ، فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها ، وأزاحوهم عن باب القصر ، وقتلوا منهم عددا عظيما ، وفيهم أخو الملك لويس ، الذى قلنا أنه اقتحم خيمة السلطان ، » ولولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعدية الجسر . وكانت المعركة بين أزقة المنصورة ، فانهزموا ، وحال النيل بين الفريقين . كل ذلك كان فى سنة ٦٤٦ هـ » .

ثم طلب الملك لويس الأمان ، فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ، وأخذوا إلى المنصورة ، فقُيد الملك لويس نفسه بقيد من حديد ، واعتقل فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ، ووكل بحفظه الطواشى « صبيح المعظمى » ، وأجرى عليه راتبا فى كل يوم .

ورحل السلطان تورانشاه بن الصالح نجم الدين من المنصورة إلى فارسكور ، ومن هناك كتب بخطه كتابا إلى نائبه بدمشق يقول له : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . وما النصر إلا من عند الله . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . وأما بنعمة ربك فحدث . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما منَّ الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله . . . الخ (١) .

* * *

وانتهت الدولة الأيوبية ، بعد ما أبلت هذا البلاء كله فى ميدان الحروب الصليبية ، وأعقبها سلاطين الأتراك ، فقضوا على البقية الباقية من أمراء الصليب .

---

(١) السلوك : قسم ثان جزء أول ص ٣٥٦

هكذا أسدل الستار على هذه الحروب التى أريقت فيها دماء المسلمين والمسيحيين باسم الدين، والتى شغلت بال الجميع فى غضون العصور الوسطى، فلم يكن حديث للقوم إلا هذه الحروب، ولا قامت حكومة هنا وهناك إلا لهذه الغاية التى وضعوها نصب أعينهم؛ وهى استخلاص البيت المقدس من أيدى الصليبيين، ورده الى المسلمين. واستمرت هذه البقعة من أرض الله يتجاذبها الفريقان حينا بعد حين، إلى أن استقرت فى اليد التى كانت تملكها أصلا. وعاد الصليبيون إلى بلادهم، واستقر المسلمون فى أوطانهم، ولكن بعد أن صهرت نار المحنة هؤلاء وهؤلاء على السواء.

الفصل الثامن

الشعر فى خدمة خلفاء صلاح الدين

أخذ الفرنج برج السلسلة ، وعلم العادل بذلك ، فمرض لساعته ، ثم مات بسبب هذه الحادثة المؤلمة .

وتولى ابنه الكامل حكم مصر ، وما كاد يستقر له الأمر فيها بعد لأى ، حتى طفق يستنجد بإخوته من ملوك الأيوبية ، لاستنقاذ دمياط من الفرنج .

وكان مما كتبه الكامل لأخيه الملك الأشرف موسى ، صاحب مملكة خلاط ، وكان يلقب فيها « بشاه ارمن » ، يستحثه على سرعة الحضور ، قوله : [١]

يا مسعدى إن كنت حقا مسعفى ... فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا ... بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل مااستطعت ولاتنخ ... إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له ... متوقع لقدومه متشوف
وإذا وصلت إلى حماه فقل له ... عنى بحسن توسل وتلطف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه ... ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه ... يوم القيامة فى عراص الموقف [٢]

والملك العادل فى انتظار الرد من إخوته : والفرنج يحاصرون ثغر دمياط ، ويضيقون الخناق على أهلها وعسكرها ، وإذا بسهم نشاب يلقى بين يدى الملك الكامل ، وفيه رسالة من الأمير جمال الدين الكنانى من أهل دمياط ، يقول فيها : — [٣]

يا مالكى دمياط ثغر هدمت ... شرفاته ، كادت تجث أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية ... كالمسك طاب دقيقه وجليله

---

(١) السلوك : جزء أول ، قسم أول ، ص ١٩٧ — ط زيادة .

(٢) فى الأصل (بل فى القيامة) .

(٣) السلوك : القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ١٩٩ .

ويقول عن بعد وإنك سامع   حتى كأنك جاره ونزيله
يأيها الملك الذى ما إن يرى   بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من حالتى   ما ليس يمكننى لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت   بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت إليه طريقه   والبحرُ عز لنصره أسطوله
لخضوعه باد على أبراجه   وحنينه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأمَّ بابَكَ لائذا   لكنه سُدت عليه سبيله
فاحرس حماك بعزمة تشفى بها   داءً لمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله   ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعذر فى نصر الإله ودينه   ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره إليك محدق   ما إن يمل من الدموع هموله
ولئن قعدت عن القيام بنصره   جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت   صلبانه وتلى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه   وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله   حقا وجملته وذا تفصيله
وكفاك يا بن الأكرمين بأنه   أضحى عليك من الورى تعويله
حقق رجاء فيك يا من لم يخب   أبدا لراجى جوده تأميله
واذخر ليوم البعث فعلا صالحا   الله ضامن أجره وكفيله

تلك رسالة من أهل دمياط ، بعث بها أمير من أمرائهم وهو محصور معهم فى ذلك الثغر . وهى كما نرى رسالة بسيطة ، وليس لأسلوبها حظ كبير من الجمال أو الجزالة ، ولكنها مع ذلك أثرت فى نفس الملك تأثيرا بليغا ، فما كاد ينتهى من قراءتها حتى أمر فى مصر والقاهرة بالنفير العام للجهاد .

وكيف لا يفعل ذلك ، وأهل هذا الثغر الحزين يقولون له على لسان الأمير جمال الدين :

وكفاك يابن الأكرمين بأنه   أضحى عليك من الورى تعويله

فاذخر ليوم البعث فعلا صالحا　　　الله ضامن أجره وكفيله

كل ذلك والفرنج يزداد تمكنهم من الثغر ، وتتقوى نفوسهم بكثرة من يقدمون إليهم من البحر . وما زال أمرهم يعلو ، وخطرهم يزداد ، حتى كان يوم طلبوا فيه موافقة الملك الكامل على أن يسلمهم دمياط بغير عوض .

فأخذ الكامل يمهلهم ويراوغهم ، حتى يتمكن من فتح السدود التى على النيل ، فلما فتحها أحاط الماء بالفرنج من جميع جهاتهم ، وأيقنوا أنهم مقتولون بأيدى المسلمين لا محالة ، ففت ذلك فى عضدهم ، وعظمت نكاية المسلمين بهم ، وطلبوا الصلح من فورهم ، فأجيبوا إليه ، ورحلوا إلى بلادهم يحمدون الله على سلامتهم .

وجلس الملك الكامل محمد وإخوته بعد رحيل الفرنج مجلس أنس كبير بمدينة المنصورة ، فأمر الملك الأشرف موسى جارية له يقال لها « ست الفخر » فغنت على عودها (١) :

ولما طغى فرعون عكا ببغيه　　　وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا　　　فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف ، وقال لها : « كررى » ، فشق ذلك على الملك الكامل ، وأمرها فسكتت ، وقال لجاريته « غنى أنت » .

فغنت على العود :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا　　　لما قد جرى فى وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ، إن عيسى وقومه　　　وموسى جميعا ينصرون محمدا

فطرب الملك الكامل ، وأمر لها بخمس مئة دينار ، ولجارية أخيه الأشرف موسى بخمس مئة دينار مثلها .

وكان قاضى غزة ، وهو الإمام الأجل هبة الله بن محاسن ، حاضر هذا المجلس ، فأنشد يومئذ : (٢)

هنيئا فإن السعد راح مخلدا　　　وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

---

(١) ولاشك أن التورية فى هذا البيت ظاهرة ، إذا علمت أن اسم الملك الكامل (محمد) واسم الملك المعظم (عيسى) واسم الملك الأشرف (موسى) .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٢ وأنظر السلوك جزء أول قسم أول ص ٢١٠ .

حباناَ إله الخلق فتحا لنا بدا مبينا وإنعاما وعزا مخلدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغا البحر الخضم بأهله الطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شلو مجدل ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه وموسى جميعا ينصرون محمدا

على أن صاحب النجوم الزاهرة لا ينسب الأبيات السابقة إلى القاضى الأجل هبة الله بن محاسن قاضى غزة ، بل إلى راجح بن إسماعيل الأسدى ، المعروف بالحلى ، شاعر الملك الظاهر بحلب .

وكان من الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم إلى الملوك من بنى أيوب فى مخيمهم بالمنصورة ، شاعر يقال له شرف الدين ابن عنين (١) وقصيدته هذه جزلة ، وهى فى رأينا من عيون الشعر العربى كله فى باب الحماسة العربية ، ومنها قوله :

(١) وهو شاعر حاد اللسان ، هجا بشعره كثيرا من السلاطين والأمراء ، ومنهم صلاح الدين الأيوبى بقوله :
« النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ »

سلطاننا أعرج وكاتبه أعمش والوزير منحدب

فنفاه السلطان إلى الهند ، فأرسل إليه يعتذر « ص ١٦ شفاء القلوب » ثم عاد إلى الهجاء ، فنفاه السلطان إلى اليمن ، فاتصل بسيف الإسلام أخى السلطان ، وجعل له أموالا عمل بها متجرا ، وعاد إلى مصر فى عهد الملك العزيز بن صلاح الدين ، فأخذ منه زكاة ماله على ربح التجارة ، فقال ابن عنين :

ما كل من يتسمى بالعزيز له أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون فى مقالهما فذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقه

ثم هجا ابن عنين كذلك الملك العادل بقوله :

إن سلطاننا الذى نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

« شفاء القلوب ٥٥ ب » ولكنه عاد فحسنت صلته بالملك العادل وأخذ فى مدحه والتقرب إليه ، ومن ذلك قصيدته التى أولها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحونى بالكرى

« شفاء القلوب ص ٦٣ » وحسنت صلته كذلك بأبناء الملك العادل ، فقد رثى منهم المعظم بقوله :

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا أرسلت سهم الحادثات فأقصدا

سلوا صهوات الخيل يومَ الوغى عنا ... إذا جهلَتْ آياتنا والقنا اللُّدْ نـا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يُحصى يقينا ولا ظنَّا
قد اجتمعوا رأيا ودينا وهمة ... وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سِنَّا
تَدَاعَـوا بأنصار الصليب وأقبلتْ ... جموعٌ كأن الموجَ كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرورٌ فأرقلوا ... إلينا سراعا بالجهـاد وأرقلنا
فما برحت سمرُ الرماح تنُوشهُم ... بأطرافها حتى استجاروا بِنَا منَّا
سقيناهم كأسا نَفَـتْ عنهم الـكرى ... وكيف ينام الليلَ من عدِمَ الأمنا !
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا ... طويلا فما أجدى دفاعٌ ولا أغنى
بدا الموتُ من زرق الأسنة أحمرا ... فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منـا سجية ... نورثها من صيـد آبائنا الابنا
وقد جربونا قبلهـا فى وقائع ... تُـعلِّـمُ غمر القوم منا بها الطعنا
أسودُ وغًى لولا وقائع سُـمرنا ... لما لبسوا قيدا ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حرٍّ ما وقينـا هجيره ... وكم يوم قر ما طلبنا له كنا
فإن نعيمَ الملك فى وسطه الشقا ... ينال وحلو العيش من مره يُجنى
يسير بنا من آل أيوب ماجدٌ ... أبى عزمه أن يستقر بنـا مغنى
كريمُ النثا عارٍ عن العار باسل ... جميلُ المحيا كاملُ الحسن والحسنى
سرى نحو دمياط بكل سُميْذعٍ ... إمامٍ يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثرُ مجـد خدرتها(١) سيوفه ... طوال المدى يفنى الزمان ولا تفنى
وقد عرفت أسيافنـا ورقابُهم ... مواقعها منا فإن عاوَدوا عدنا

أغمدت سيفا مرهفا شفراته ... قد كان فى ذات الإله مجردا

« شفاء القلوب ٧٧ ب » .

بل من أجل المعظم أيضا هجا ابن عنين أخاه الأشرف حين كانت هناك خصومة بين الأخوين فقال :

وكنا نرجى بعد عيسى محمدا ... لينقذنا من شدة الضر والبلوى
فأوقعنا فى تيه موسى كما ترى ... حيارى فلا من لديه ولا سلوى

« شفاء القلوب ٨١ » .

فأمر الأشرف بقطع لسانه ، ثم شـفع فيه فهرب . وشعر ابن عنين جزل اللفظ غزير المعنى. وله ديوان مطبوع .

(١) خدرتها : بمعنى سوّدتها، من الخدرة ، وهى السواد والظلمة .

منحناهم منا حيـــاةً جديدة فعاشوا بأعناق مقلدةٍ مَنّـا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ولوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا[١]

ومصدر الجمال فى هذه القصيدة الحماسية ، هو الجزالة كما قدمنا . وذلك فرق ما بين شاعر كابن عنين ، وبين الشعراء المصريين ، الذين يميلون كثيرا إلى السهولة والرقة . بل ذلك أيضا فرق ما بين ابن عنين وبين آخرين من شعراء الشام ، كالعماد الأصفهانى ومن لف لفه ، ممن اعتمدوا اعتمادا واضحا على الزينة اللفظية .

ولم يكتف ابن عنين بذلك حتى بعث إلى الملك الكامل بقصيـدة أخرى فى تهنئة الملوك الأيوبية ، ومنها قوله[٢] :

قسما بما ضمت أباطح مكة وبما حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمد لرقى على درج الخطيب الأسقف
لولاه ما ذل الصليب وأهله فى ثغر دمياط وعز المصحف

وكان للملك الأشرف موسى . شاعر من شعراء مصر يختص به ، وهو كمال الدين ابن النبيه ، أنشد فى مدحه قوله[٣] :

للذة العيش والأفراح أوقات فانشر لواءً له بالنصر عادات
أمام جيشك أنى سار أربعـــة فصلٌ ونصر وآراءٌ وآيات
وتحت غيل القنا آساد معركة لها ثبات ، وفى الهيجاء وثبات
أهلة فى سماء من مغافرها لهـا الكتائب أفلاك وهالات
تهتز أعطافهم يوم الجلاد إذا غنت لهم من بنات القين قينات
صفائح هى إن دب المنون بها صحائف كتبت فيها المنيات
إن مس شمس الضحى من لمعها رمد كحلنها بالعجاج الأعوجيات

ومنهـا :

الويل للروم والإفرنج من ملك له من النصر والتأييد عادات
أين النجاة لسرب الروم من أسد ضارٍ له من رماح الخط رايات

---

(١) السلوك ، قسم أول ، جزء أول : ص ٢١١ . وانظر شفاء القلوب : ص ٢٤

(٢) المصدر المتقدم : ص ٢١٢ .

(٣) راجع ديوان ابن النبيه طبعة عبد الله باشا فكرى .

دمياط طور ونار الحرب موقدة ... وأنت موسى وهذا اليوم ميقات

ولا يخفى عليك ما فى هذه الأبيات الأخيرة من شتى أنواع البديع كالتورية والاقتباس، ومراعاة النظير الخ. ولنمض فى هذه القصيدة فمنها قوله:

ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ... ولا تخف ما حبال القوم حيات

طأهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم ... فإنهم لبغاث الطير أقوات

أنت الصباح فمزق ليل كفرهم ... واصبر ورابط فللأعمال نيات

زلزل بغاراتك الشعواء دارهم ... فشيمة النجُد الغر الإغارات

أصبتهم بسهام الرأى من حلب ... وللمكايد من بعد إصابات

فطهر الله ذاك الثغر من قلح ... أصابه وانجلت تلك الثنيات

والتورية كذلك ظاهرة فى لفظ الثغر، وهو هنا ثغر دمياط.

والقلح: صفرة فى الأسنان، استعيرت هنا لما كان يصيب الثغر من أذى العدو.

ومن هذه القصيدة أيضا قوله:

قتلا وسبيا وأسرا وانتهاب ثرى ... لله كم حسنت تلك الإساءات

شننتها غارة كالنار محرقة ... للكفر وهى على الإسلام جنات

لله من ثغر دمياط وبرزخها ... فتح له تفتح السبع السموات

شرحت صدر رسول الله وانحسرت ... بنصرة الدين والدنيا غمامات

يوم على الروم يمشى ريحه سحبا ... أمطارهن مصيبات مصيبات

رأوا جيوش بنى أيوب يقدمها ... ليث له فى جيوش الترك هجمات

فللرماح كُلاهم أو صدورهم ... وللصوارم أعناق وهامات

تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم ... والموج ترقصه تلك المسرات

تفاءلوا أن عيسى نصرة لهم ... فقلت بينهما فرق وأشتات

هذا تموت به أحياؤكم أبدا ... وذاك تحيا به فى الأرض أموات

ثق «يا أبا الفتح»(١) بالفتح المبين فلم ... تنسب لغير أبيهن الفتوحات

الله أكبر أن تمسى مزامرهم ... تتلى وتنسى من القرآن آيات

---

(١) كنية الأشرف

وأن يخور على القربان عجلهم ... جهرا ويخفى أذان أو تلاوات
ما كل من طلب العلياء أدركها ... ووافقت سعيه فيها سعادات

فانظر إلى هذه الأنشودة الخالدة من أناشيد النصر، التي نظمها شاعر ولد بمصر، ثم أسعده الحظ فلحق بخدمة ملك من ملوك بنى أيوب، كان له فضل فى كسب الموقعة التى انهزم فيها الصليبيون، ففرح لهزيمتهم المسلمون هذا الفرح العظيم، وراح شعراؤهم يسجلون هذا الفرح بطريقة تخيل إلى القارى أنه إنما يشهد موكبا صاخبا من مواكب الشعب، وفيه الجند يهللون ويكبرون ويغنون ويترنمون، ويقبل بعضهم على بعض مهنئين .

ثم انظر إلى هذا الشاعر الثانى «البهاء زهير» وقد بعث بقصيدة له من الصعيد إلى حيث يقيم ملوك بنى أيوب، وخص بالمدح منهم الملك الكامل والملك الأشرف، ومنها قوله :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر ... وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة ... تقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقل بها بذل النفوس بشارة ... ويصغر فيها كل شىء من النثر
ألا فليقل ما شاء من هو قائل ... ودونك هذا موضع النظم والنثر
وجدت محلا للمقالة قابلا ... فمالك إن قصرت فى ذاك من عذر
تميس به الأيام فى حلل الصبا ... وترفل منه فى مطارفه الخضر
أياديه بيض فى الورى موسوية ... ولكنها تسعى على قدم الخضر
ومن أجله أضحى المقطم شامخا ... ينافس حتى طور سيناء فى القدر
فيا ملكا سام الملائك رفعة ... من الملأ الأعلى له أطيب الذكر
وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها ... لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم يقم بالله حق جهاده ... لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية ... لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة ... ويثرب ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله إن سميه ... حمى بيضة الإسلام من نوبة الدهر

هو الكامل المولى الذى إن ذكرته ... فياطرب الدنيا ويافرح الدهر
به ارتجعت دمياط قسرا من العدا ... وطهرها بالسيف والملة الطهر
ورد على المحراب منها صلاته ... وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر
وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى ... فلا حلمت[1] إلا بأعلامه الصفر

ومنها :

صبرتَ إلى أنْ أنزلَ الله نصره ... لذلك قد أحمدْتَ عاقبةَ الصبر
وليلة غزو للعدو كأنها ... لكثرة من أرديته ليلةُ النحر
سددتَ سبيل البر والبحر عنهم ... بسابحة دُهْمٍ وسانحة غُر
أساطيل ليستْ فى أساطير من مضى ... بكل غُراب راح أفتكَ من صقر
وجيش كمثل الليل هَولا وهيبة ... وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله ... لآل زهير لا ولا لبنى بدر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه ... وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامىء البيض والقنا ... وأشبعت منهم طاوىَ الذئب والنسر
وجاء ملوك الأرض نحوك خُضعا ... تجرر أذيالَ المهانة والصُّغر
أتوا ملكا فوق السماك محلُّه ... فمن جوده ذاك السحاب الذى يسرى
فمنّ عليهم بالأمانى تكرما ... على الرغم من بيض الصوارم والسمر
كفى الله دمياطَ المكاره إنها ... لمنْ قبلة الإسلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلا لأنه ... يحلُّ محلَّ الريق من ذلك الثغر
فلله يومُ الفتح يومَ دخولها ... وقد طارتْ الأعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها ... وأنسى حديثا عن حُنين وعن بدر

وانظر إلى هذه الأنشودة الأخرى من أناشيد النصر الخالدة ، التى نظمها شاعر مصرفى عصره « البهاء زهير » بطريقته المصرية المعروفة ، التى يكثر فيها من القسم على عادة المصريين ، ويجنح فيها إلى اليسر والسهولة على طريقتهم أيضا ، ويصطنع فيها التورية وحسن التعليل كما فى قوله :

وما طاب ماء النيل إلا لأنه ... يحل محل الريق من ذلك الثغر

(١) فى الأصل : حملت .

ويبالغ فى وصف الفخار الذى نال المسلمين فى يوم دمياط حتى ليقول :

لقد فاق أيام الزمان بأسرها وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر

وهكذا أتاح النصر الذى أحرزه ملوك بنى أيوب على الفرنج فى يوم دمياط ، فرصة ثمينة للشعراء ، فقالوا أحسن ما عندهم من الشعر ، بل هكذا أتاحت هذه الفرصة للناقد الأدبى فرصة جميلة ، ليرى بعينيه الفرق بين شاعر سورى كابن عنين ، وبين شاعرين مصريين كابن النبيه والبهاء زهير .

فلو أن الألفاظ كانت لها شخصياتها التى تميزها ، أو كانت كما يقول ابن الأثير : « تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتمثل كأشخاص ذوى دماثة ولين خلق ولطافة مزاج » (١) لكانت ألفاظ القصيدة التى نظمها ابن عنين مثلا للجزالة ، فهى تشبه رجالا ركبوا خيولهم ، واستكملوا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد ، بينما ألفاظ شاعرى مصر ، وهما ابن النبيه والبهاء زهير ، تشبه ملوكا خرجوا على الناس فى زينتهم ، فقال الناس : يا ليت لنا مثل ما أوتى هؤلاء . ومعنى ذلك باختصار أن الجزالة كانت أظهر من الزينة ، فى قصيدة ابن عنين ، وأن الزينة كانت أوضح من الجزالة فى شعر ابن النبيه والبهاء زهير ، وأن المسحة المصرية كانت أبين فى قصيدة هذا الأخير .

غير أن فرح الملك الكامل وإخوته لم يدم طويلا حتى أتاهم الملك فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى حملة صليبية ، ووقع الاتفاق بينه وبين الملك الكامل على أن يأخذ الإمبراطور القدس ، بشرط أن يبقى خرابا لا تتجدد أسواره ، وأن تكون قرى المسلمين حوله لهم ، لا يزاحمهم فيها الفرنج ، وأن يكون الحرم بما فيه الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين وحدهم ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط .

فقبل الإمبراطور هذه الشروط ، وسلم المسلمون القدس ، فاشتد بكاؤهم عليه فى ذلك الوقت . وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس الى مخيم الملك الكامل ، ووصلوا إلى

---

(١) المثل السائر : ص ٦٩

بابه ، وأذنوا عليـــه فى غير أوقات الآذان ، يريدون بذلك أن يعبروا له عن سخطهم الشديد ، فعز عليه ذلك (١)

واشترك فى التشنيع على الملك الكامل ابن أخيه الملك الناصر داود بدمشق ؛ فجمع مجلسا بجامع المدينة حضره الإمام الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزى ، فقام هذا الإمام وخطب الناس ، مذكرا إياهم بفضائل بيت المقدس ، ومثيرا فى نفوسهم أعمق الحزن على استيلاء الفرنج عليه .

« واجتمع فى هذا المجلس ما لا يحصى عدده من الناس ، وعلت أصواتهم بالصراخ والبكاء ، وكان مما قاله الإمام يومئذ : « . . . . وانقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كان لهم فى تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم فى تلك المساكن من دمعة . . .

تالله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت ، ولو قطعت قلوبهم أسفا لما اشتفت ،.... أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين . . .

لمثل هذه الحادثة تنسكب العبرات ، ولمثلها تنقطع القلوب حسرات .... . الخ (٢)

قالوا : ثم أنشد الحافظ شمس الدين الناس قصيدة طويلة ، عدتها ثلاث مئة بيت ، فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم ، ومن هذه القصيدة قوله (٣) :

أعينى لا ترقى من العبرات ... صلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها ... توقد ما فى القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما ... خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله ... يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذى جل قدره ... على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحى والهدى ... على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التى ... أنافت بما فى الأرض من صخرات

(١) السلوك جزء أول قسم أول ص ٢٣١

(٢) شفاء القلوب مخطوط ص ٨٥

(٣) راجع شفاء القلوب ص ٨٠ والسلوك ج ١ ص ٢٣٣ قسم ١ والروضتين ج ٢ ص ٢٠٥ ويجب أن نذكر أيضا أن هذه القصيدة منسوبة إلى الرئيس شهاب الدين أبى يوسف يعقوب بن محمد بن مجاور

على القبلة الأولى التى اتجهت لها ... صلاة البرايا فى اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر ... وأشرف مبنى لخير بناة
وما زال فيه للنبيين معبد ... يوالون فى أرجائه السجدات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ ... ـرفيع العماد العالى الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما ... وللبر والإحسان والقربات
يوافى إليه كل أشعث قانت ... لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها ... توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ... فمن بين نواح وبين بكاة
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهى أختها ... وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه فى أكرم الحجرات !
لقد أشمتوا عكا وصورا بهدمها ... ويا طالما غادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها ... وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ... وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره ... لهم عظم ما والوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهم ... بمسعاته عدّوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم ... وهل ثمر إلا من الزهرات
فمن لى بنواح ينحن على الذى ... شجانى بأصوات لهن شجاتى
يرددن بيتا للخزاعى (١) قاله ... يؤبن فيه خيرة الخيرات
« مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات »

أرأيت إلى هذا الإمام كيف هيج بكلامه الرأى العام ؟ أرأيت إليه كيف ضرب على وتر حساس فى قلب الإسلام ؟ أرأيت إليه كيف أثار فى أعماق نفوس المسلمين أشد عواطف الأسى والحزن ؟ أرأيت إليه كيف استدر من أعينهم أغزر الدمع ؟ أرأيت إليه كيف عير بفقد القدس ملوك بنى أيوب ، وقال لهم إنهم بفتح القدس

(١) هو دعبل بن على الخزاعى الشاعر الشيعى فى العصر العباسى .

وحده أصبحوا سروات فى نظر الناس والتاريخ ؟ إن هذا الإمام — أو ذلك الداعية الخطير من دعاة الحروب الصليبية فى الإسلام — لم يكتف بوعظه ونثره وشعره ، حتى ذكر الناس بشعر الشعراء من قبله ، فأتى بذلك البيت الشيعى الحزين :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

وملاك القول فى هذه القصيدة الأخيرة أنها تعتبر من أروع القصائد الصليبية ، التى عبرت يومئذ عن حزن المسلمين العميق على ضياع القدس ، وذكرتهم بأشعار الشيعة القديمة ، وهى أشعار كلها حزن ، ولها فى تاريخ الأدب العربى هذا الطابع المعروف ، ومن تلك القصائد الشيعية قصيدة دعبل الخزاعى التى استعار الواعظ منها بيتا ، وجاءت على وزنها ورويها هذه القصيدة التى ألقيت فى ذلك الجمع الحاشد ، الذى أشرنا إليه .

* * *

ومات الملك الكامل وخلفه ابنه الملك العادل الثانى ، وحدث فى أيامه أن خرق الفرنج الذين بالقدس شروط المعاهدة التى كانت بين الملك الكامل وفردريك ، وفيها تعهد الإمبراطور بأنه لا يقيم أسوار بيت المقدس ، ولكن الفرنج عادوا يعملون فى عمارة أبراجه ، وإقامة أسواره . فلما بلغ ذلك الملك الناصر داود صاحب دمشق ، ذهب بنفسه إلى القدس ، ورماه بالمنجنيقات ، وهدم الأبراج التى بناها الفرنج ، وتمكن من أخذ بيت المقـــدس ، وفرح المسلمون يومئذ بانتصار الملك الناصر فرحا عظيما ، لا يعدله إلا حزنهم على ضياع القدس من قبل . وفى ذلك يقول الشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح :

المسجد (١) الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا وناصر (٢) طهره آخرا

وظفر بمصر بعد ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من يد أخيه الملك العادل الثانى .
وما كاد الملك الصالح يفرغ من التغلب على المحن الكثيرة التى تعرض لها ، وكتب

---

(١) السلوك : جزء أول ، قسم ثان ، ص ٢٩٢ — والروضتين : ج ٢ ص ٢٠٦
(٢) يقصد بالناصر الأول : صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبالناصر الثانى الملك الناصر داود .

عليه أن يقاسى كثيرا من أمرها ، حتى عاجلته أنباء الحملة الصليبية الثالثة والأخيرة على مصر ، وهى الحملة التى قادها الملك لويس التاسع .

وكان الملك الصالح نجم الديوب أيوب فى أثناء ذلك مريضا بدمشق ، فخرج فى محفة ،وجىء به إلى مصر ، ليشرف بنفسه على إعداد الأسطول والجيش . وبينما هو مشتغل بهذه الأمور ، إذا بالملك لويس يبعث إليه بكتاب على هيئة إنذار شديد اللهجة ، هو الكتاب الذى تقدم ذكره فى الفصل السابق . فلما وصل الكتاب إلى السلطان ، وقرىء عليه ، أغرورقت عيناه بالدموع وقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم أمر فكتب الجواب بإنشاء القاضى بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء ،على نحو ما تقدم أيضا .

وجد الفرنج يومئذ فى قتال المصريين ، وشجعهم على ذلك ما علموه من موت الملك الصالح نجم الدين ، فاستعد المصريون من جانبهم لهذا اليوم الثقيل ؛ وشاءت إرادة الله أن يحارب النيل إلى جانبهم ؛ فأحاط بالفرنج من كل ناحية ،كما أحاط بهم فى المرة السابقة ، وانتهت الموقعة بهزيمة الفرنج ، ووقوع ملكهم لويس التاسع نفسه فى الأسر ، فقيده المسلمون بقيد من حديد ، واعتقلوه — كما قلنا — بدار بن لقمان ، ووكلوا به الطواشى صبيحا .

وصادف هذا قدوم الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاستبشر الناس بقدومه ، وقدم الشعراء عليه ، يهنئونه بانتصار المسلمين ؛ وأخذ الملك تورانشاه يبعث بالكتب إلى جميع الممالك الإسلامية فى البشارة ، وترد إليه ردودهم ، ومنها رد نائبه على دمشق ، واسمه (ابن يغمور) الذى كتب إلى سيده يقول :

أسيد أملاك الزمان بأسرهم تنجزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدا ويلبس أسلاب الملوك عبيده

يشير بذلك إلى غفارة الملك لويس التاسع،وقد بعث بها المعظم تورانشاه إلى نائبه هذا ، مع الرسالة التى بشره فيها بهزيمة الفرنج (١)

وبقى الملك لويس سجينا ومعه قواده وأمراؤه ، حتى عرض على المسلمين أن يطلقوه بفديه قدرها أربع مئة ألف دينار،فآثر مماليك الصالح إطلاقه بها،لحاجتهم يومئذ إلى المال،

---

(١) السلوك : قسم ثان ، ج أول ، ص ٣٥٨

فأداها الملك لهم وهو يعجب كل العجب من مسلكهم هذا ، ويقول : ما رأيت أقل عقلا ولا دينا منكم ، مثلى ملك البحر ، وقع فى أيديكم ، بعتوه بأربع مئة ألف دينار ، ولو طلبتم مما كتى دفعتها لكم حتى أخاص (١)

وفر الملك لويس ومعه الأمراء والنبلاء إلى عكا ، فسمع المصريون أنه جدد العزم على العودة إلى مصر ، فسخروا منه ، ونظم فى ذلك الصاحب جمال الدين بن مطروح قصيدة ، يقول فى آخرها متهكما بأحلام لويس التاسع وأوهامه :(٤)

قل للفرنسيس إذا جئته   مقال نصح من قئول فصيح
آجرك الله على ما جرى   من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها   تحسب أن الزمر يا طبل ريح !
فساقك الحين إلى أدهم   ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم   بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم   إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها   لعل عيسى منكم يستريح
إن يكن البابا بذا راضيا   فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه   أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة   لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح !

وفكر لويس التاسع بعد ذلك فى قصد تونس ، فاستعد له ملكها ، واستمر القتال بين الفريقين ستة أشهر ، وكاد المسلمون فيها أن يغلبوا ، لولا أنه أصبح يوم فاذا الملك لويس نفسه ميت . ففت ذلك فى عضد الفرنج ، وفى ذلك يقول شاعر من أهل تونس :

يا فرنسيس هذه أخت مصر   فتأهب لما إليـه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرا   وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فألا عليه ومات (٣)

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ٣٦٩

(٢) السلوك : قسم ثان ، ج ١ ، ص ٣٦٣

(٣) السلوك ، ج ١ ، قسم ثان ، ص ٣٦٥

وانتهت بذلك آخر صفحة من صفحات الجهاد ، التى كتبت على الدولة الأيوبية ، وأتى بعدهم سلاطين الأتراك ، فلم يفكر الصليبيون على عهده فى قصد مصر ، ولا أصبحت لهم آمال صليبية فى الشرق ، فساعدت هذه الروح على طردهم منه نهائيا ، ومن ثم لم يكن للحوادث الصليبية صدى يذكر فى أدبهم ، واشتغل سلاطين الأتراك يومئذ بأمر آخر كان يهم الإسلام ، وهو رد المغول عن بلاده ، وانقاذه من ذلك الخطر ، الذى كان لا يقل عن الخطر الصليبى فى ذاته .

. . .

جزى الله شعراء العربية عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى به محسن إلى قومه ، مخلص لهم ، صادق الذود عن حياضهم ، والوقوف إلى جانبهم ، فى كل محنة تمر بهم ، وكل نصر يحرزونه على عدوهم ، تقوية لنفوسهم ، وإبقاءً على تحمسهم فى مدافعة القوم .

لئن كانت الصحف والمذياع وغيرهما من وسائل الإعلان ، بل وسائل التعبير عن الرأى العام ، تفعل فعلها فى حياتنا ، من جوانبها الاجتماعية والسياسية والإدارية والعقلية ، فقد كان الشعر — قبل النثر — يقوم بهذا الإعلان فى العصور الوسطى . فالشعر هو الذى أبقى على هذه الجذوة المقدسة . وهى جـــذوة الشعور الدينى عند المسلمين فى العصر الوسيط . والشعر هو الذى نفخ فى روح الشعب الإسلامى ، كما نفخ فى روح أبطاله وقواده ، وكافأهم على بطولتهم ، ومجد قدرة الله فيهم ، وأثنى عليهم ثناء عطرا ، فمضوا فى جهادهم فى سبيل الله ، وبذلوا فى سبيل الجهاد كل ما ميزهم به الله ، حتى كتب لهم النصر على العدو .

ولقد بدأت هذه النهضة الشعرية الصليبية فى الشام ، يوم كانت مقاليد المسلمين المجاهدين إلى يد زعيمهم العظيم نور الدين . ثم اشتركت مصر والشام بحظوظ متساوية فى هذه النهضة الشعرية ، منذ أصبحت هذه المقاليد فى يد سيد هذين القطرين المتجاورين ، وهو البطل صلاح الدين . وبقى هذا الحظ مشتركا بين القطرين حتى آخر الدولة الأيوبية .

أما العراق فكانت على هامش الحوادث الصليبية ، والآداب الصليبية . وأحسب أنها لو اشتركت اشتراكا فعليا فى هذه وتلك ، لكان لها شأن يذكر ، وأدب قد لا تدانيه الآداب الإسلامية ، فى كل من هذين القطرين الشقيقين .

وفى الذى سقناه فى ثنايا الحديث ، من الموازنة بين الشعرين السورى والمصرى ، ما يكفى للدلالة على أمور منها :

أولا — أن الشعرين معا يميلان إلى الزينة اللفظية يقلدان بها شعر العراق ، ويزيدان عليه زيادة ظاهرة فيها .

ثانيا — أن الشعرين معا لم يبلغا من الجزالة اللفظية ما بلغه شعر العراق . وذلك باستثناء شعراء فحول كابن القيسرانى ، وابن منير ، وابن عنين . فثلاثتهم يميلون إلى الجزالة اللفظية — كما رأينا — وإن كان ابن عنين أشدهم فى هذا الميل .

ثالثا — أن الشعر المصرى الخالص ،وهو الشعر الذى صدر عن مصريين بمولدهم ونشأتهم ، لا عن مصريين بإقامتهم ، كان موسوما بسهولة اللفظ ، وبالميل إلى المبالغة فى إظهار عواطف الفرح ، بحيث غلب الشعور بالفرح عندهم على الشعور بالفخر ؛ كما ترى ذلك واضحا فى أشعار ابن النبيه ، والبهاء زهير ، وجمال الدين بن مطروح ،ومن قبلهم عند ابن سناء الملك .

رابعا — أن التورية والميل إلى التهكم كان فى الشعر المصرى أظهر منه فى الشعر السورى ، وبخاصة فى الدور الذى كانت فيه مصر مركز الجاذبية الصليبية . وآية ذلك أننا لا نعلم شاعرا تهكم بالصليبيين قدر ما تهكم ابن مطروح .

. . .

(وبعد) فقد كان القدس هو كل شىء فى ذلك الشعر . فإذا اقترب المسلمون المحاربون منه خطوة ، هلل الشعر وكبر . وإذا استرده المسلمون بالفعل أقام الشعر من أجله الدنيا وأقعدها ، وإذا فقد المسلمون جزءا منه بكى الشعراء عليه بكاء مرا ، ثم إذا عاد اليهم عادوا إلى فرحهم وسرورهم وافتخارهم وازدرائهم للفرنج ، والسخرية بهم وبدينهم ومعتقداتهم وأوهامهم وآمالهم وأحلامهم كما رأينا .

والخلاصة أن الشعر الصليبى يمتاز بشيئين هما القوة والعاطفة . أما القوة فلأنه شعر الحماسة الإسلامية فى محنة الحروب الصليبية . وأما العاطفة فلأنه يتصل أشد اتصال وأوثقه بشعور دينى عميق فى نفوس المسلمين ، هو شعورهم بأن القدس لهم ، وأنه مسرى نبيهم إلى آخر تلك المعانى الدينية، التى أشار إليها وعاظهم وفقهاؤهم وأدباؤهم .

الفصل التاسع

الرسائل النثرية والحروب الصليبية

أشرنا فى مقدمة البحث إلى الفرق الكبير بين الشعر والرسائل الديوانية فى عهد الحروب الصليبية . وهو فرق يدعو - فى الحقيقـــة — إلى العجب العجاب ، كما يقول الناس .

فجمهور النقاد والأدباء على أن الجهد الفنى الذى يبذله الشعراء فى الشعر غالبا ما يكون أكبر وأوسع من الجهد الفنى الذى يبذله الكتاب فى النثر . ذلك أن النثر بطبيعته أطوع وأسهل ، والحرية فيه أوسع وأكمل . فإذا حرم النثر هذه الحرية ، كان معنى ذلك أنه أصبح أدخل فى باب الفن بما قيد نفسه من القيود ، التى لا يخضع لها إلا الشعر .

ذلك ما يفهمه جمهور النقاد والأدباء ، أو ما يرون أنه الأغلب . ولكننا فى عصر الحروب الصليبية أمام طائفةمن الرسائل الديوانية ، تعرض فيها أصحابها لألوان شتى من التعب الفنى ؛ وحققوا فيها أمورا كثيرة ربما لا تتحقق كلها حتى فى الشعر المتكلف ؛ ونعنى به الشعر الذى يمثله لنا شاعر كأبى تمام الطائى .

وكأنى بصاحب هذه الرسائل الديوانية — ولنضرب المثل هنا بالقاضى الفاضل أو العماد الأصفهانى — قد أسكره ما أحرزه المسلمون من نصر ، وفعل الطرب فى نفسه مالا تفعله الخمر ، ثم اتخذ لنفسه هيئة الموسيقى أو المصور أو النحات ، وجلس إلى غرفته الخاصة يحاول تصوير الموقعة التى انتصر فيها المسلمون ، تصويرا يشبع فيه الناحية الفنية ، التى خصه الله بها دون غيره من عامة الناس .

وإنك لتستطيع أن تتمثل القاضى الفاضل على هذه الهيئة التى نشرحها ؛ وقد أمسك بقلمه وقرطاسه ، وأكب عليهما إكبابا وهو يكتب رسالة إلى الخليفة العباسى ، على لسان السلطان صلاح الدين الأيوبى ؛ يصف فيها حوادث الموقعة ، ويسهب ما شاء له

الإسهاب فى وصف ما تركته سيوف المسلمين من آثار فى بلاد الأعداء ، ويتأنق ما شاء له التأنق فى جميع هذه الأوصاف . فإذا رسالته إلى الديوان مزدحمة بعدد لا حصر له من الصور البيانية الرائعة ، والأساليب الإنشائية القريبة .

وكأنى بالخليفة العباسى نفسه ، إذا أحب أن يقرأ هذه الرسالة الفاضلية قدحبس نفسه مدة ما فى إحدى غرف الديوان ، وأخذ يقرأ الرسالة سطرا سطرا ، بل جملة جملة ، وكلمة كلمة ، وهو يرى فى كل لفظة من ألفاظ الرسالة سحرا ، وفى كل سطر من سطورها فنا ، فيظل يتأمل هذا السحر والفن، كما يتأمل صورة ما لفنان موهوب، أرسلها إلى معرض من معارض الفنون الجميلة .

وإذن فلا سبيل إلى تصور السرعة فى كتابة القاضى الفاضل لهذه الرسالة ، ولا سبيل إلى تصور السرعة فى قراءة الخليفة العباسى أو غيره لهذه الرسالة . وإنما يجب أن نفهم أن الفاضل أمضى وقتا طويلا فى الكتابة ، وأن القارىء أمضى وقتا طويلا فى القراءة . وذلك أن ما يكتب أو يقرأ من هذه الرسالة ليس خبرا رسميا صيغت عباراته على عجل ، وقرئت على عجل ؛ وإنما هو لوحة فنية، تعب صاحبها فى رسمها ، وتأليف أصباغها ، ولا بد للناظر إليها — إذا أراد تقديرها — أن يقابل ذلك التعب أو الكد بكد مثله ، فى استجلاء مفاتنها ، والتعرف إلى ما فيها من نواحى الجمال .

والآن ، وبعد هذه التهيئة النفسية التى لم يكن بد منها ، يصح أن نقدم للقارىء على سبيل المثال رسالة من رسائل القاضى الفاضل فى (فتح القدس) ، بعث بها إلى ديوان الخلافة العباسية، نتبعها برسالتين أخريين : إحداهما للعماد الأصفهانى ، والأخرى لضياء الدين بن الأثير فى نفس هذا المعنى ، لتتيسر الموازنة بين هؤلاء الكتاب الثلاثة، ولنعطى القارىء صورة دقيقة من صور النثر الديوانى، الذى كان قسما من أقسام الأدب الصليبى. وسأستأذن القارىء مرة أخرى أن يستأنى ما استطاع فى قراءة الرسالة الفاضلية التى ، سنقدم له جزءا منها ، بعد إذ بذلنا غاية الجهد فى تحقيقه ، بالرجوع إلى مصادر عدة [١]

---

(١) راجعنا هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٩٦ والروضتين ، ورسائل القاضى الفاضل بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ ، وكتاب الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم — مخطوط بدار الكتب أيضا .

وعنوان الرسالة الفاضلية هكذا :

كتاب إلى الديوان العزيز أيضا يذكر فيه فتح بيت المقدس ، أعد ليسير به ضياء الدين ابن الشهرزورى ، فلم يسر به ، فأصحب تاج الدين بن أخى الوزير ، وقد كان وصل من جانب الديوان رسولا ، سار به فى العشر الأواسط من ذى الحجة سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة . وكان الفتح يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب من هذه السنة .

وأما الرسالة نفسها فهذا نصها :

« أدام الله أيام الديوان العزيز ، ولا زال مظفر الجد(١) بكل جاحد ، غنى التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعى على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والسيف فى جفنه راقد ، ووارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعى الفضل، وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد (٢)، ماضى حكم القول بعزم لا يمضى إلا بسل غوى وريش راشد (٣) ، ولا زالت غيوثُ فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع (٤) وأنوارا إلى المساجد ، وبعوثُ رعبه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب وخيالا إلى المراقد(٥) » .

تلك هى مقدمة الرسالة أو ديباجتها — كما يقولون — وفيها يظهر القاضى الفاضل بفنه الذى نعرفه . فهو حريص على السجع كل الحرص ، حتى لكأن السجع غاية عنده وليس وسيلة . وهو حريص على الطباق كل الحرص ، فهو يطابق بين « موقوف » و « مطلقات » وبين « مستيقظ » و « راقد » وبين « متعدد » و « واحد » . وهو حريص كذلك على الجناس . والجناس هنا ناقص كما فى قوله « أنواء . وأنوار » وقوله « مراقب ، ومراقد » .

والفاضل فى هذه الديباجة أو المقدمة كان أشبه رجل بالشاعر الذى ينشد الخليفة شعرا فى المدح فيمدحه بأنه رجل موفق دائما ، منصور دائما ، جواد يعم بجوده جميع

---

(١) الجَـد ، بفتح الجيم: الحظ . وقراءة الكلمة على هذا الوجه هى الأنسب .

(٢) أى أن فضله يسعى فى جهات مختلفة، وشكر الناس عليه واحد .

(٣) سلّ الشىء : انتزعه وأخرجه . وراش فلانا : نفعه وأغناه .

(٤) المرابع: جمع مربع ، وهو المنزل فى الربيع .

(٥) المراقب : المراصد . والمراقد . المضاجع . والإشارة هنا إلى قول أشجع السلمى :

وعلى عـدوك يابن عم محمد رَصَـدَان ضوءُ الصبح والإظلامُ
وإذا تنبَّـه رُعتَـه وإذا غفـا سلّـتْ عليه سيوفَـها الأحلامُ

الناس ، ذو عزم قوى ينفع نفعا محققا إذا أراد ، ويضر ضررا محققا إذا كانت الحكمة فى ذلك ، ذو هيبة فى قلوب أعدائه ، تفزعهم فى اليقظة ، وتقض مضاجعهم فى النوم .

ويبدأ الفاضل رسالته بعد هذه الديباجة فيقول :

« كتب الخادم هذه الخدمة (١) تلو ما صدر ، عنه مما كان يجرى مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة . والعنوان للكتاب وصف النعمة . فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ، ولطف [من] (٢) الحق ، للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر فى شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار ، فى إظهارها مسارب (٣) . ولله فى إعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام ، لا يقال معه هذا مضى ، وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه ، فلما وقع الشرط حصل المشروط . وكان الدين غريبا فهو الآن فى وطنه ، والفوز معروضا ، فقد بذلت الأنفس فى ثمنه ، وأمر (٤) أمر الحق وكان مستضعفا ، وأهل (٥) ربعه وكان قد (٦) عيف حين عفا . وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، وأدلجت (٧) السيوف إلى الآجال وهى نائمة ، وصدق وعد الله فى إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان (٨) الحين ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم (٩) آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأى طارقا ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم »

هكذا بدأ الفاضل رسالته ، فقال للخليفة : إنه إنما كتب هذه الرسالة فى نفس المعنى الذى كتب فيه من قبل رسائل أخرى ، كان فيها مبشرا بالفتح ، وكانت تلك الرسائل أشبه شىء بعنوان لكتاب النعمة التى من الله بها على المسلمين ، وهى نعمة هذا الفتح . ومن الحق على المسلمين أن يعيدوا شكرهم لله تعالى على هذه النعمة ، التى جلت عن الوصف .

---

(١) الخدمة ، هى الرسالة : والخادم هنا : هو صلاح الدين الأيوبى ، التابع للخليفة العباسى .

(٢) هذا اللفظ زيادة منا لا وجود لها فى جميع النسخ التى رجعنا إليها .

(٣) المسارب . مجارى الدمع .

(٤) أمر ، مثلثة الميم بمعنى ولى . والاسم الإمرة .

(٥) أهل : أصبح مأهولا .

(٦) عيف ، من عاف يعاف : بمعنى أعرض عنه .

(٧) أدلجت : سارت بالليل .

(٨) حيان الحين : من قولهم حاينه حيانا ، وساوعه سواعا بمعنى أعطاه ميعادا معينا . والمعنى حل وقته ،

(٩) آبقا هاربا

ثم قال للخليفة : و بذلك أصبحت أمور الإسلام على أحسن حال ، وأصبح المسلمون خليقين بهذا النصر ، الذى كان مشروطا بصدقهم فى القتال . وهكذا غدا الدين فى وطنه بعد إذ كان غريبا ، وأهل ربعه بالسكان وكان قد درس زمانا طويلا . وبذلك تم للمسلمين استرداد تراثهم الذى فر من أكفهم ، وحققوا فى يقظتهم ما لم يكونوا يأملون تحقيقه فى أحلامهم ، ونشروا أعلامهم على المسجد الأقصى ، وأقبلوا بجموعهم يقبلون الصخرة التى شفت غليلهم ، كأنها ماء وليست بصخرة .

أما الفن الفاضلى فى هذه الفقرة ، فالجديد فيه هنا هو اختياره للألفاظ القرآنية ، وإيثاره لها ، كما فى قوله يصف نعمة الفتح : فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ؛ فهى تذكر بقوله تعالى : (إن لك فى النهار سبحا طويلا) ، ولطف من الحق للشكر فيه عبء ثقيل .

وشىء آخر فى هذه الفقرة هو الجناس بالاشتقاق كما فى قوله : (وأمر أمر الحق) وكان يستطيع أن يقول (وظهر سلطان الحق) ، ولكنه آثر لفظ (أمر) ليحقق به هذا النوع من التجنيس .

وانظر بعد إلى المقابلة بين دلج السيوف ونوم الآجال . وانظر كذلك إلى المبالغة فى وصف النور الذى استطار من أنوار الدين حتى أزرى بنور الصباح ، وأفهمه أن وقت رحيله قد حل ، فليس له إلا الرواح !

ثم قال الفاضل فى رسالته بعد ذلك ما نصه :

« ولما قدم الدين عليها (١) عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببتّ (٢) عصمتها من الكافر بحربه . وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من استمطله فى حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى فى عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة إلى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هى العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا . وكانت الألسنة ربما سلقته ، فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها ، فاطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلى غمرة (٣) غامر ، وإلا فإن القعود يلين تحت

---

(١) أى على الصخرة .
(٢) البت : القطع .
(٣) الغمرة بالفتح : الشدة

نيوب الأعداء المعاجم [١] فتعضها ، ويضعف فى أيديها [٢] مهزّ القوائم فتفضها [٣] هذا إلى كون القعود لا يقضى فرض الله فى الجهاد ، ولا يرعى به حق الله فى العباد ، ولا يوفى به واجب التقليد الذى تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء كانوا فى مثل هذا اليوم لله يسألون ، لا جرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم ، لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولا غضوا [٤] لما نظر ؛ بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم إلى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها ، وإلى الصفائح [٥] ما عبقت [٦] به [٧] جيوبها [٨] ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا ، والنهار به بصيرا ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن أبدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن واره [٩] . فإنه نور لا تكنه [١٠] أغساق [١١] السدف [١٢] ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف » .

ومضى الفاضل فى الرسالة التى بعث بها الخليفة ، فقال له : إن تلك الصخرة التى بالمسجد الأقصى هى من قلب الدين حبته ، وإنه لا نظير لها عند المسلمين إلا الحجر الأسود نفسه ، وإنه حين علم الحجر الأسود برجوع الصخرة إلى المسلمين ، هنأها بطلاقها من الكفر ، وبراءة عصمتها من أيدى الكافرين براءة لم تحصل عليها إلا بطريق الحرب التى شنها عليهم المسلمون . وهل كان صلاح الدين يسعى سعيه إلا لهذه الغاية ، وهل كان ما قاساه من الأهوال إلا رجاء تلك النعمة ؟ وهل كان يجد فى قتال القوم ويسرع فى ملاقاتهم وإن ما طلوه ، أو يلجأ دائما إلى السيف والرمح فى معالجتهم وإن حقدوا عليه وعاتبوه ، ألا لتكون كلمة الله هى العليا ، وليفوز هو بالآخرة لا بالدنيا ؟

وإن صلاح الدين ليعلم أن من الناس من ربما سلقوه بألسنتهم من أجل نهوضه

---

(١) من عجمه بمعنى عضه أو لاكه أو هزّه تجربةً
(٢) مهز : اسم مكان من هز الميم وهو خطأ ولا معنى له .
(٣) الفض بالفاء الكسر بالتفرقة .
(٤) غضّ بصره منعه عما لا يحل له
(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وصفيحة الوجه : بشرة جلده
(٦) عبقت : انتشرت رائحة الطيب منه
(٧) جيوبها جمع جيب ، وجيب القميص : طوقه
(٨) واره فعل أمر من وارى بمعنى أخفى
(٩) تكنّه : تستره
(١٠) اغساق جمع غسق ، وهو الظلمة
(١١) السُّدف جمع سَدفة وهو الظلمة أيضا

بالجهاد ، فما لهؤلاء عنده من جواب غير الاحتقار ؛ وأن منهم من يتغيظون منه تغيظا كبيراً ،فلا يقابل ذلك منهم إلا بالحلم والاصطبار . ومن طلب جسيما من الأمر خاطر ، ومن رغب فى كبير من الربح جازف بسببه ، ومن سمت همته إلى إزالة شدة غامر بنفسه فيها حتى تنجلى .

ولو قعد السلطان عن الجهاد لطمع فيه الأعداء واستلانوه واستهانوا بأمره . هذا فضلا عن أن القعود نفسه لا يرضى الله تعالى ، ولا فيه رعاية لحق عباده ، ولا وفاء بحق التقليد الذى فى عنقه للخلافة .

وهنا أخذ الفاضل يمدح الخلافة العباسية . فوصف أئمتها بأنهم يقضون بالحق وبه يعدلون ، وأنهم كانوا إلى الله تعالى فى مثل هذا اليوم يضرعون ، وأنهم ورثوا ملكهم سلالة طاهرة ، وبقية شريفة ، وفضلاء يدل عليهم سواد أعلامهم وبياض تاريخهم . « ذرية بعضها من بعض » ؛ ما غابت عن الجهاد وقد حضر واحد منها وهو الخليفة ، ولا أهملت قط أمر هذا الجهاد وقد نهض به هـذا الخليفة . بل إن أجر الجهاد نفسه واصل إليهم جميعا،للصلة التى بينه وبين أجداده من الخلفاء ، وشرف العمل فيه مقسوم بينه وبينهم على السواء . ومن ثم اطمأن آباؤه فى مضاجعهم ، وانتهت إليهم الذكرى الطيبة فى مراقدهم ؛ وهى ذكرى لا يزال الناس يسمرون بها ليلهم ، ويهتدون بها فى نهارهم . بل إن نور هذه الذكرى ليغنى الشرق عن إظهار أضوائه ، فإذا ظهر منها شىء دعاه الغرب إلى إخفائه ، لأن ضوء هذه الذكرى أكبر من ضوء الشرق نفسه ، فهو ضوء لا يتغلب عليه الظلام ، ولا تستطيع أن تطمسه سواد الأقلام .

وهكذا أوجب على الفاضل أدبه أن ينسب فضل الجهاد كله إلى الخلفاء العباسيين ، وأن يتحدث إليهم بذلك على لسان صلاح الدين .

وهذا فرط أدب لا يحسنه إلا من عرف أخلاق الملوك . ومن كالفاضل فى معرفة هذا كله ؟

أما الفن الفاضلى فمن آياته فى هذه الفقرة ذلك التشخيص الذى خلعه على الجماد ، حين تحدث عن الصخرة والحجر الأسود على أنهما شخصان ، وحين صور لنا الصخرة وقد رجعت إلى الإسلام بصورة امرأة جاهدت حتى خلصت نفسها من عصمة الكفر .

ثم انظر إلى المجاز فى قوله :

« وكانت الألسنة ربما سلقته ، فأنضج قلوبها بالاحتقار »

وانظر إلى قوله « قلوبها » فإن المراد بها هنا « قلوبهم » . أى قلوب أصحاب هذه الألسنة .

ثم انظر كذلك إلى المقابلة بين سواد الأعلام وبياض الصحائف ، وإلى التجنيس الناقص بين « سرورهم » ، و « سريرهم » . وإلى التجنيس التام بين « أنواره » بمعنى أضوائه و « أن واره » بمعنى أخفه . وهكذا .

ونعود إلى رسالة الفاضل أيضا فنرى بعد ذلك ما نصه :

« وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت [1] قناته [2] شفقا [3] ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته [4] وكان الأكثر عدداً وحصى ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه [5] العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عيونه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه ، وكانت يقظته تريق [6] نطف [7] الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى [8] أو راعفة بالمنون . وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث [9] ، والرب المعبود الواحد ، وكان عندهم الثالث .

فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة [10] ، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يرون فى ماء الحديد لهم عصرة [11] ، ولا فى فناء [12] الأفنية لهم نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة

---

(١) تشظت : تطايرت شظايا . (٢) القناة : الرمح :

(٣) وفى رواية أخرى شققا بقافين . والشفق والفرق ، بفتح الراء : الخوف

(٤) الحصاة . الحجر الصغير : والجمع الحصى :

(٥) عنان الدابة ، بكسر العين : لجامها . وعيان ، بكسر العين أيضا : رؤية .

(٦) تريق : تصب . (٧) نطف : قطرات ماء العين .

(٨) الرعاف : الدم يخرج من الأنف . (٩) الطامث : الحائض (١٠) مهتومة : مكسورة .

(١١) العُصْرة بالضم : المنجاة (١٢) فناء البيت : ماامتد من جوانبه

والمسكنة ، وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة إلى أيدى أصحاب الميمنة » .

فرغ الفاضل من مقدماته ، وكانت آخر هذه المقدمات مدحه الخليفه ، ثم دخل فى الموضوع الحقيقى للرسالة ، وهو هنا وصف الحرب التى انتهت بظفر المسلمين ببيت المقدس . فالآن يكتب صلاح الدين الى الخليفة بعد أن أظفر الله المسلمين بذلك العدو وقد تطايرت شظايا رماحه من الخوف ، وفرت جموعه من الذعر ، وكلت سيوفه فهى كالعصى ، وتناقص عدده وكان أكثر عددا من المسلمين ، ورأى المسلمون بأعينهم كيف تصرفت قدرة الله تعالى فى ذلك العدو ، وكيف أنزلت به من العقاب ما لا يقوى على رفعه أحد من البشر ، وكيف زلزلت أقدامه وكانت ثابتة على الأرض ، وكيف أغمضت عينه من الذل وكان شجعان المسلمين لا يستطيعون النظر إليها ، وكيف نام سيفه وكانت يقظته تذود النوم عن عيون المسلمين ، وكيف انكسر رمحه وكان مستقيما بالأمانى ، راعفا بدماء المسلمين ؟

وبذلك أصبحت الأرض المقدسة طاهرة بعد تدنيس ، وأصبحت تقول بوحدانية الله بعد التثليث ، وانهدمت بيوت المشركين ، وانكسرت نيوب الكافرين ، وأجمعت جيوشهم على تسليم البلاد . وأذعنوا لكل ما طمع المسلمون فيه إذ ذاك . فلم تنجهم سيوفهم ، ولا وسعتهم أفنيتهم . وضربت عليهم الذلة والمسكنة الخ ...

أما الفن الفاضل هنا فقد بلغ فى هذه الفقرة درجة عظيمة . فانظر هنا إلى المقابلة بين السيف والعصا فى أول الفقرة ، وبين المنى والمنون فى نهايتها ، وبين ذلة الكافرين وعزة المسلمين فى وسطها . ثم انظر إلى الجناس بين « فرقه » بمعنى جموعه « وفرقا » بمعنى خوفا . وبين « العنان » بمعنى اللجام و « العيان » بمعنى الرؤية .

ثم انظر بعد إلى ما هو أهم من ذلك كله ، وهو السيوف والرماح كيف ، جعل الكاتب لها عيونا تكسف بالهزيمة ، وكيف جعل لهذه العيون جفونا نامت وكانت تذود النوم عن عيون المسلمين ، وكيف جعل للسيوف أنوفا جدعت ، وكانت تشمخ بالأمل ، وترعف بالدماء التى تقطر من أجساد المسلمين المجاهدين ؟

ثم انظر إلى القاضى الفاضل فى قوله :

« ونيوب الكفر مهتومة » .

كيف جعل من الكفر شخصا له أنياب أصبحت مهتومة بعد الهزيمة .

ونترك من هذه الرسالة الفاضلية قطعه كبيرة ، حتى نأتى إلى قول الفاضل ما نصه :

« وقدم المنجنيقات التى تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر [١] لهم قسيها التى تضرب ، فلا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها [٢] نصالها ، فصافحوا السور بأكتافه [٣] ، فاذا سهمها فى ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد اخلاده إلى الأرض ، ويعلو علوه إلى السماك . فشج [٤] مرادع [٥] أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها [٦] ، ورفع مثار عجاجها [٧] ، فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، فأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده [٨] بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق [٩] الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترقُّ لمقبَّله [١٠] وتبرَّأ بعضُ الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض . وفُتح فى السور باب سدَّ من نجاتهم أبوابا ، وأخذ نقبٌ فى حجره قال عنده الكافر ياليتنى كنت ترابا . فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمرُ الله وغرَّهم بالله الغرور »

هنا وصف الكاتب عمل المنجنيقات التى أخذت تقرب من جوانب الأسوار : وحين أخذت سهامها تتخلل شرفات هذه الأسوار كما يتخلل السواك ثنايا الأفواه . وكان المنجنيق يعلو فى السماء حينا وينخفض إلى الأرض حينا كأنه النسر ، واستطاع المنجنيق كذلك أن يشق فتحات الأبراج وأن يجعلها تئن ويعلوها الغبار . وهكذا حتى خلت الأسوار جميعها من الناس كما خلا ميدان القتال نفسه من المقاتلة .

---

(١) أوتر القوس جعل الله وترا

(٢) السهم واحد النَّبل . والنصل حديدة السهم

(٣) أكتاف الطائر أجنحة وأكتاف السور جوانبه (٤) شج بمعنى كسر

(٥) مرادع من رَدَع بمعنى فَرَجَ فهى فتحات فى الأبراج يُضرب منها . وفى نسخة مراتع

(٦) العجيج الصياح (٧) العجاج الغبار (٨) السرد النقب (٩) الأرق الطائش

(١٠) وفى مسالك الأبصار (لمقتله)

انظر ماسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ١ قسم٢ ورقة ٢٩٦ محفوظ بدار الكتب المصرية

أما النقابون فقد استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن هذه الحرب الزبون ، وأن يدكوا هذه الحصون ، حتى عادت سيرتها الأولى من التراب والطين .

ثم عاد المنجنيق إلى تلك الصخور التي أمامه ، فطحنها بمعوله طحنا ، وما زال يضربها ضربا فيه حذق وفيه مهارة فى وقت معا .

وهكذا حتى سمعت الصخرة الشريفة بالمسجد الأقصى حنين تلك الصخور المتهدمة وأنينها واستغاثتها ، فرقت لها ، وعجت لخرابها ؛ وجاء النقابون ففتحوا أبوابا أخرى فى السور ، أيأست العدو من النجاة ، وصاح الكافر عندها : واحسرتاه . . . الخ .

أما الفن الفاضلى فقد بلغ فى هذه الفقرة ذروته ، ووصل إلى نهايته . وبحسبك أن تنظر هنا إلى المنجنيقات كيف جعل الكاتب من سهامها مساويك تدخل فى ثنايا الشرفات الممتدة على السور ، وإلى هذه المنجنيقات التى جلبت النصر للمسلمين كيف حلقت فوق الأسوار كأنها النسور !

ثم انظر إلى معاول النقابين كيف جعل منها أنيابا تمضغ بها الصخر . وانظر إلى الصخر نفسه كيف يئن من وقع هذه المعاول ، وكيف يعلو أنينه حتى تسمعه الصخرة المقدسة بالمسجد الأقصى ، فترق له ، وينعطف قلبها عليه .

وانظر بعد هذا كله إلى تلك الصخور التى سحقتها المعاول سحقا ، كيف يبرأ بعضها من بعض ، وإلى الخراب الذى حل بها ، كيف يأخذ عليها موثقا فلن تبرح الأرض !

أليس فى هذا كله تشخيص للجمادات ، يصبح به كل جماد منها شخصا له قلب ، وله عين ، وله سمع ؟

أليس ما فعله القاضى الفاضل أنه رسم لنا لوحة فيها صورة دقيقة للحرب ؛ وهذه الصورة تزدحم بالمناظر الكثيرة ، والحركات العنيفة ، والأصوات المخيفة ؛ فجمع فى كل ذلك بين عمل الرسام والمصور والموسيقى والممثل والشاعر والكاتب فى وقت معا .

ودع عنك هذا كله ، وانظر إلى خاصة من خصائص القاضى الفاضل ، وميزة من ميزات أسلوبه ، هى له وحده ، وليست لسواه من الكتاب قبله ولا بعده ، باستثناء مريديه وتلامذته .

وهذه الخاصة التى تلفت النظر اليها ، هى خاصة « نثر القرآن » ، على طريقة ابن العميد فى نثر الأشعار . وبيان ذلك أن القاضى الفاضل كان يستطيع بهذه الطريقة أن يدمج

القرآن فى كلامه، فكأنه جزء من هذا الكلام . ولا تقل إنها طريقة بسيطة أو مسبوقة، فالقول ببساطتها أو إمكانها مردود بمحاولتك تقليدها ، وعجزك كل العجز عن ذلك . والقول بأنها مسبوقة مردود كذلك ببحثك فى آثار الكتاب جميعهم قبل الفاضل ، وانعدام هذه الخاصة فى تلك الآثار . وهكذا استطاع الفاضل أن يستغل القرآن لنفسه استغلالا فنيا صرفا ، وأن يتخذ منه صبغا من أجمل أصباغه الفنية التى ألف بينها بطريقة فاتنة .

وانظر إلى قول الفاضل هنا :

« وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض »

وانظر إلى قوله كذلك :

« وفتح فى السور باب سدَّ من نجاتهم أبوابا ، وأخذ نقب فى حجره قال عنده الكافر ياليتنى كنت ترابا »

فذلك هو ما نقصده من « نثر القرآن » والأمثلة عليه فى نثر الفاضل كثيرة ؛ منها فى غير هذه الرسالة قوله :

« يا سيد أخيه — لا تسأل عن خاطر تتناوب عليه النوب ، ولا يأوى إلى ظل إلا وجده ذا ثلاث شعب ؛ فدعنى أدعّ هذا اليتيم الذى هو قلبى ، وأخيط هذا الجرح الذى هو فمى ... » الخ

وقوله :

« أهلا بطلعته ، فإنها فى غربتها مشرقة ، وبخواطره فإنها لا تدخل من باب واحد وتدخل من أبواب متفرقة »(١) .

أرأيت إذن إلى أسلوب القاضى الفاضل ، كيف يمتاز بالسجع والطباق والجناس ، وهى أمور يشترك فيها مع غيره من أصحاب الأساليب الأدبية التى سبقت أسلوبه ، ثم يمتاز بتجسيم المعانى وتشخيص الجماد ، وهما أمران أربى فيهما على من شاركه فيهما من الأدباء قبله وبعده ، ثم يمتاز بنثر القرآن ، وبتلك المعادلات اللفظية التى توحى إلى القارىء بأن ذهن القاضى الفاضل كان ذهنا رياضيا ، أو به استعداد للتفوق فى الرياضة . وهذان الأمران الأخيران يكاد الفاضل ينفرد بهما عن سواه من الكتاب الذين ظهروا قبله فى ميدان الأدب العربى .

---

(١) انظر كتاب الفاضل : من كلام القاضى الفاضل : ص ٤ ب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٨٢ .

وللأسلوب الفاضلي ميزات وأوصاف أخرى ، لم تتح لنا النصوص المتقدمة فرصة إظهارها ، والتحدث عنها . فحسبنا هذا القدر من كلام هذا الزعيم الأدبي الخطير . وقد وعدنا أن نعرض أجزاء من رسالتين أخريين ؛ إحداهما للعماد الأصفهاني ، والأخرى لضياء الدين بن الأثير ؛ وسنرى من الموازنة بينهما وبين الرسالة الفاضلية المتقدمة أن ثلاثتهم من حلبة واحدة ، أو أنهم أصحاب مذهب يصح أن يطلق عليه «المذهب الفاضلي» .

* * *

أما العماد الأصفهاني فتحدث عن نفسه ، وقال إنه كان مريضا بدمشق ، فلما سمع باستيلاء السلطان على القدس أبلّ من مرضه ، وتوجه بنفسه إلى السلطان ، فوصل إليه ثاني يوم الفتح . قال : «وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ، ليغربوا بها ويشرقوا ، وهو يقول لهم : لهذه القوس بار ، ولهذه المأدبة قار . قال : فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ؛ كل كتاب بمعنى بديع وعبارة ؛ ومنها كتاب إلى الديوان ببغداد افتتحته بهذه الآية :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا » (١) .

« الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخصّ سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، ومكن دينه المرتضى ، وبدّلَ الأمن من المخافة ، وذخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى ، للعصر الإمامي النبوي الناصري ، على يد الخادم أخلص أوليائه ، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه . وهذا الفتح العظيم ، والنجح الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حسرة تمنيه ، وحيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسنيه ، وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم .

الحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس ! وأعاذه من الرجس ، وحقق من فتحه

---

(١) انظر كتاب الروضتين : (ج ٢ ص ٩٦) .

ما كان فى النفس ، وبدّل وحشة الكفر من الإسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ماحيا ذل أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضُّلال من البطرك والقس ، وعبدة الصليب ومستقبلى الشمس . وقد أظهر الله على المشركين الضالين ، جنوده المؤمنين العاملين ، وقطع دابر القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين . فكأن الله شرف هذه الأمة ، وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التى بها فضلكم ، وحقق فى حقهم امتثال أمره فى قوله الكريم : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » .

وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان ، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الأنصار وأظهر الأعوان ، وأخرج من بيته أهل المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ، وقمع من كان يقول إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح . وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظما ونثرا ، وعبد الله فى البيت المقدس سرا وجهرا ، وملكت بلاد الأردن وفلسطين غورا ونجدا وبرا وبحرا ، وملئت إسلاما وكانت قد ملئت كفرا ، وتقاضى الخادم دين الدين الذى غلق رهنه دهرا ، والحمد لله شكرا ، حمدا يجدد للإسلام كل يوم نصرا ، ويزيد وجوه أهله بشرى ، فتتوجه بشرا .

وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم ، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم ، وأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم ، وقتل رجالهم ، وسبى ذراريهم ونسائهم . ولما أيسوا من النجاة ، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة ، خوّفوا بقتل الأسارى المسلمين ، وهم أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنهم يفسدون جميع ما فى البلد من مال وبناء بهدم وإحراق وإتلاف . وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع ، وبذلوا إطلاق الأسرى ، وشرطوا حمل مال الفدا ، وما زالوا يبتهلون ويضرعون ، ويذلون ويخشعون ، حتى استقر الأمر أنهم يفادون ، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها ، وبركت البركة الناهضة إليها فى مناخها ، وغسلت من أوضارها وأوزارها ، بعبرات العيون ، ورجع اضطرابها إلى السكون ، وفديت بنواظر أهل الإيمان ، وصوفحت للوفاء بعدها المجدد للإيمان ، وأعيدت الكنائس مدارس ، وأضحت بإحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية

دوارس ، وزالت ضجرة الصخرة ، ونعشها الله من العثرة ، وبدّل بالأنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة ، والحمد لله على هذه النصرة .

وقد تسلمنا مع بيت المقدس ، جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس ، وما كان جاريا فى مملكة بيت القدس ونابلس ؛ ولم يبق إلا صور ، فإنها قد تأخر انتزاعها وتقدم امتناعها ، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها أطماعها ، وهى بتأييد الله مستفتحة ، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة » .

والواضح من قراءة هذه الرسالة من رسائل العماد ، أنها أسهل صنعة، وأطول سجعا وأوضح عبارة من رسالة الفاضل، والكاتب فيها أشد حرصا على الجناس بأكثر ألوانه المعروفة عند البلغاء .

ومن كتاب آخر للعماد الأصفهانى كتبه يوم الفتح ، قوله: وفيه شبه ما بكتابة القاضى الفاضل ، واقتداء ما بأسلوبه أو استمداد من معانيه :

« رأوا المنجنيقات قد أنزلت الأسواء بالأسوار ، وغارت الصخور للصخرة المباركة ، فجدت فى إنقاذها من الإسار ، وهتمت ثنايا الأبراج ، وأعضل بها فى العلاج داء الأعلاج فعاينوا الحمام . وشاهدوا الموت الزؤام ، وأقامت المنجنيقات على عصابته حد الرجم ، وواقعت ثنايا شرفاته بالهتم ، وتطايرت الصخور فى نصرة الصخرة المباركة ، وحجرت على حلم السور بسفه الأحجار المتداركة ، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الأسوار ، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار . ونهضت لإصراخ الصخرة المقدسة الصخور ، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور . فما أسرَّ البيت الحرام بفكاك أخيه من الأسر ، وإجراء الإسلام فيه لغسل أوضار الكفر ، وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وإلحافها من البهاء والرونق والعز الإسلامى بكسوة . ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه ، وطهرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون التى بها قذيت ، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدى الشرك صديت . وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة ، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها فى عهد الصحابة رضى الله عنهم من حسن الصحبة ، ودنا المسجد الأقصى فأقصى منه الساجد للشمس ، وسكن العلماء والفقهاء فى مواطن البطرك والقس ، وأبدل الناقوس بالآذان ، بل

الكفر بالإيمان ، وصلى محراب الإسلام (يريد صلاح الدين) فى المحراب الذى أسلم ، وقد سنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم والنجح الأفخم إلخ (١) .

ويلاحظ القارىء لرسالة العماد أن معانيها كالمعانى التى أوردها القاضى الفاضل سواء بسواء . غير أن الفاضل كان يشق على نفسه فى أداء معانيه بأكثر مما يفعل العماد . بل إن القارىء ليحس أن الفاضل كان يستأنى فى كتابته ، ويتحذق تحذقا بأكثر مما يفعل صاحبه . ولست أدرى أهل كان لهذه الأناقة والأناة صلة ما يشعور الفاضل فى نفسه أنه زعيم الكتاب ، فينبغى أن تكون رسالته زعيمة الرسائل ؟ أم أن هذه الإناقة كانت نتيجة طبيعية لطريقة الفاضل فى الكتابة ، وضرورة قصوى من ضروراتها ؟ (٢) .

* * *

أما ضياء الدين بن الأثير — صاحب المثل السائر — فقال إنه كتب كتابا عن الملك الناصر صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد ، يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاده من أيدى الكفار ، وذلك فى معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى عنه (٣) .

ولسنا نستطيع هنا أن نأتى على رسالة ابن الأثير كاملة لطولها . فلنكتف منها ببضع فقرات ، قال : « خلد الله الديوان العزيز النبوى ، وجعل أيام دولته أترابا ، ومناقب مجده هضابا ، وزادها على مرور الأيام شبابا ، وأوسعها توشية وإذهابا ؛ إذا أوسع غيرها تلاشيا وإذهابا ، ومنحها فى الآخرة عطاء وفاقا لا عطاء حسابا .

لو جمعت العصور فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخرا ، وفاز بسبق

---

(١) الروضتين : جـ ١ ص ١٩٨ .

(٢) قال عبد اللطيف البغدادى فى وصف القاضى الفاضل : دخلت عليه فرأيته شيخا ضئيلا ، كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه فى إخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه . قيل وكان له غرام كبير فى الكتابة وتحصيل الكتب واستنساخها . وكان لباسه البياض ولا يبلغ جميع ما عليه دينارين . ويركب معه غلام وركابى ، ولا يمكن أحدا أن يصحبه . قيل وكان ضعيف البنية رقيق الصورة ، له حدبة يغطيها الطيلسان . وكان فيه سوء خلق ، يكمد به نفسه ولا يقر أحدا به . وكان يجل أصحاب الأدب ويكرمهم ويعاونهم ، ويؤثر أرباب البيوت الغرباء ، ولا ينتقم من أعدائه : فإما أن يحسن إليهم ، أو يقتصر على الأعراض عنهم إلخ .

فانظر إلى قوله « وكأنه يكتب بجملة أعضائه » كيف أنها تصور لنا القاضى الفاضل حريصا على اتقان عبارته ، وإخراجها قطعة من نفسه ثقة بأن طريقته فى الكتابة محتاجة إلى كل هذا الجهد .

(٣) الروضتين : (ص ٩٨ جـ ١) .

اوائلها وإن جاء آخرا . وليس ذلك إلا لحظوته بالدولة الناصرية التى كسته حبرا ، وقلدته دررا . ودونت له من المحامد سيرا .

وقيض الله من الخادم وليا يواصل يومه فى طاعتها بأمسه ، ولا يرى إلا ومن نفسه فى خدمتها رقيب على نفسه . وطالما سعى بين يديها بمساع تغص بأخبارها محافل القوم ،ويقال له فيهاما ضرك ما صنعت بعداليوم . وقد سلفت منها آيات تتمايل فى أشباهها وأضرابها ، واستؤنف لها الآن واحدة تدعى بأم كتابها ؛ وهى فتح بيت المقدس الذى تفتحت له أبواب السماء ، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء ، واسترد حق الإسلام ، وطالما سعت الهمم فى طلبه بالزاد والماء . ومن أحسن ما أتى به أنه آنس قبلته الثانية بقبلته الأولى ، وأطال منه كل ما قصرته يد الكفر وكانت هى الطولى ؛ وبه صح لهذا البيت معنى اسمه ، وانتقل إلى الطهارة ونزاهتها عن الرجس ووصمه » .

ثم وصف ضياء الدين حركة الزحف وعمل المجانيق بقوله : « واتفق الرأى على لسان المنجنيق فى خطبة عقيلية أبلغ خطابا ، وأدنى من المطلوب طلابا ، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انبجست عيون أهله دماء ، كما انبجست عيون الحجر ماء » .

ووصف الكاتب تقدم السلطان للقتال ، ومن ورائه عزائم الجند الذين معه ثم قال :

« ولم يكن قتاله بالسهام التى نهايتها أن تصف أجنحتها للمطار ، وتنال كلومها من فوق الأسوار . بل بالسيوف التى إذا جالدت بلدا أخذت بكظمه ، وتوغلت فى هجمه ، وأغنت بسرعة خطوتها إليه عن المنجنيق وإبطاء هدمه .

وكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحظى بلباس الإشراق ، وأتم بدارا والبدور لا يكون تمامها فى المحاق ؛ ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير لم تدخله لام التعريف ، وكانت أجنحة الملائكة تطيف بهم فأكرم بالمطاف وبالمطيف . وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التى هى الفوز الأكبر ، وقرنها بإدناء مضاجعهم من الأرض المقدسة التى هى أرض المحشر ؛ فما يسرهم أن يعودوا إلى الدنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهاد ، وأسر من ذلك أن أرواحهم فى حواصل طير خضر تعلق (١) من ثمار الجنة إلى يوم الميعاد » .

ووصف العماد خضوع الصليبيين وإذعانهم ورغبتهم بعد ذلك فى دفع الفدية ، ثم قال :

---

(١) تعلق أى تأكل من ثمار الجنة — أى تأكل وتجتزىء بالعلقة وهى البلغة من الطعام . النهاية لابن الأثير .

« ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار ، زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار ، واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار . وزاده فخرا إلى فخره أنه فى تلك الأرض وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوى الذى كان موعده ، ومن صخرتها مصعده ، وذلك هو الإسراء الذى ركب إليه ظهر البراق ، واستفتح له أبواب السبع الطباق ورقى فيه الأنبياء على اختلاف درجاتهم ، فظفر خير مَلْقِىّ بخير لاق . وبركة ذلك اليوم سرت إلى هذا فأطالت من شهرته ، وضمنته نصرة الدين الحنيف الذى لله عناية بنصرته ، وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه ، كما أرخ للنبى صلى الله عليه وسلم بدار هجرته » .

ومن هذه الرسالة أيضا قوله :

« ولما رأوا طلعة الإسلام داخلة عليهم أعلنوا بالجؤار ، واصطرخوا جميعا كما يصطرخون غدا فى النار ؛ وزادهم غيظا إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة ، وقد صار الناقوس أذانا ، وكلمة الكفر إيمانا ، وأقيمت الجمعة وهى أول جمعة حظى الأقصى بمشهدها ، وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها : فمن باك بدمعة سروره الباردة ، ومن مجيل نظرة فى نعمة الله الواردة ، ومن شاكر للزمن الذى أبقاه إلى يومه هذا الذى كل الأيام له حاسدة :

من كان مولده تقدم قبله أو بعده فكأنه لم يولد

ثم قال :

« وجىء باللواء الأسود فركز من المنبر فى أعلاه ، ونطق لسان حاله فقال : من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه فأنا مولاه . ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بيانا من لسانه ، غير أن هذا يزهى ببلاغ موعظته وهذا يزهى بعزة سلطانه . ولما ذكرت سمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الذى ملأ المسجد بعجيجه ، وسبق الكرام الكاتبون بزميله إلى السماء ووشيجه ، وكان اليوم فصلا ، والموقف حفلا ، وذلك الدعاء فرضا لا نفلا .

ومنها قوله :

« واستوطن المؤمن مكان الكفور ، وبدلت الظلمات بالنور ، وقالت الصخرة الآن جمع بينى وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام ، والجمع بين الأختين فى هذا الأمر من الحلال لا من الحرام »

ومنها :

« ولو أتيح للقلم الخيلاء فى مقام المقال ، كما أتيح لصاحبه فى مقام القتال ، لاختالت مشيته فى هذا الكتاب ، ولقال وأسهب فليس الإكثار هنا من الإسهاب . ولكنه منعه من ذلك أن يكون ممن نخر بعمله فأبطله . وأرسل خطابه إلى الديوان العزيز ، فلم يقبضه بالأدب حين أرسله ... » الخ

ومن السهل على القارىء أن يرى فى رسالة ضياء الدين بن الأثير ما رآه فى رسالة العماد ، من الحرص على السجع ، والاسراف فى التجنيس ، وإيثار ما يسميه البلاغيون « بالتوجيه » كما فى قوله : وقالت الصخرة الآن جمع بينى وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام ، والجمع بين الأختين فى هذا من الحلال لا من الحرام ؛ وهو توجيه منقول من الفقه ، أو تورية منه .

ثم أن الموازنة بين هاتين الرسالتين معا وبين رسالة الفاضل ، تدلنا على أن العماد كان أكثر تعلقا بالطريقة الفاضلية ، وأشد أخلاصا لها . كما تدلنا على أن عبد الرحيم أبعد الثلاثة عن السهولة فى تأليف الكلام ، أو البساطة فى تحبير العبارة ، وعلى أن ضياء الدين بن الإثير منافس خطير للقاضى الفاضل نفسه .

ولنا أن نقارن بين ما كتبه الأول — وهو عبد الرحيم — فى وصف المجانيق وعملها فى هدم الأسوار ، وبين ما كتبه كل من العماد وضياء الدين بن الأثير فى وصف هذه المجانيق ، فسنرى أن الأخير اكتفى بوصف المنجنيق بأن له لسانا بليغا فى الأداء ، وأن له عصا تضرب فى الحجر فيتفجر منه الماء ، كما انفجرت عيون أهله بالدماء . وأما عماد الدين فيصف أحجار المنجنيق بأنها أنزلت الضرر بالأسوار ، وبأنها هتمت ثنايا الأبراج ، وبأنها أقامت على الكفار حد الرجم ، وبأنها أضرت بشرفات السور ، وألحقت الأذى بثناياه ، وبأنها كشفت عن عروس البلد بعد أن هدمت الأسوار التى كانت تحجبها عن الناظرين ، إلى آخر هذه الأوصاف التى تذكرنا بالأوصاف التى أتى بها الفاضل فى رسالته .

على أنه لم يزل هناك فرق بين الفاضل والعماد ، وهو أن الأول أطول نفسا فى استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأنه أكثر استقصاء للمعانى ، وأصبر على تجسيم الجمادات ، وأنه أبسط قوة ، وأظهر قدرة على إلباس هذه المعانى ثياب الأشخاص ، والتحدث

إليها كأنها ذات عقول وأرواح . وذلك ما قصدنا إليه من قولنا إن الفاضل أبعد الثلاثة عن الأسلوب الطبعي الذى لا تكلف فيه، وإن أسلوبه أقرب الثلاثة إلى الخلق والإبداع ، وأشد إمعانا فى دائرة الفن بمعنى الترف فى التعبير . بل ذلك أيضا ما قصدنا إليه من القول فى أول هذا الفصل، بأننا من كتب القاضى الفاضل أمام نثر أكثر من الشعر كلفة ، وأحق منه باسم « الفن الرفيع » ؛ وهو اللفظ الذى كثر دورانه فى العصر الحديث

* * *

على أن هناك طائفة أخرى من الرسائل الإخوانية المنسوبة إلى القاضى الفاضل ، ليس فيها هذا القدر من التكلف ، ولا هذا الإبداع فى الكتابة ، ولا هذا الحظ من المحسنات البديعية على اختلافها . وهى الرسائل التى كان يبعث بها عبد الرحيم إلى صديقه ومولاه صلاح الدين ، فى المحنة التى وقع فيها هذا الأخير ، عقب الحملة الصليبية الثالثة .

وهنا ، أعنى فى هذا المقام ، لم تكن كتابات الفاضل للترف ولا للأناقة ، وإنما كانت رسائله فى تلك الحالة للضرورة أو للحاجة . فقد كان عليه أن يشارك السلطان فى أحزانه ، وقد كان عليه أن يقوى من عزيمته على المضى فى القتال . وإذ ذاك يكون من حق الفاضل أن يدع الفن والزينة جانبا ، وأن يُعمل فى هذه الرسائل قلبه — لا عقله — إعمالا من نوع خاص ، وأن يسرع فى كتابتها ، لأن الظرف لا يحتمل الإمهال . والحق إن هذه الرسائل الفاضلية التى نأتى على بعضها الآن لتمسّ الوجدان مسا قويا جدا ، وتؤثر فى المشاعر تأثيرا خاصا .

تذكر أنه أتى إلى الفرنج نجدتان ؛ إحداهما قريبة من إخوانهم بالشام ، والأخرى بعيدة من وراء البحار ، على حين أن المسلمين أنفسهم كانوا قد تعبوا من حمل السلاح ، وطلبوا من السلطان دستورا أو إجازة من القتال . فاجتمعت هذه المصائب كلها على السلطان صلاح الدين وخارت قواه . وفعل الحزن به فعلا كاد يذهب بصبره وحلمه لولا لطف الله ، ولولا رسائل صديقه القاضى الفاضل التى كانت شفاء لصدره ، ومن هذه الرسائل قوله (١) :

« . . . وما تجدد للعدو من الشروع فى آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر فى هذا الوقت للضرورة ،

---

(١) الروضتين : جـ ١ ص ١٦٦ .

والتماس العسكر الشرقى الدستور للضجر، وحاجة المولى من الإنفاق إلى ما لا يسعه التدبير، ويضيق عنه الإمكان، ومطالبة الغنى بالزيادة مع الغنى، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه، وضياع الفرصة، واختلاف الرأى بين المتشاورين من الجماعة، وجود الألسنة بالآراء، وبخل الأيدى بالمعونة، وانفراد المولى بالتعب، واشتراك الناس فى الراحة، وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذرا فى القعود، وكتمه المولى عن نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس؛ فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر، وحسن الصبر، ليشعره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر؛ ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى، وعروة عزمه أوثق العُرا، لما أهله لأن ينصر ملة لا يعرف الملوك غير الله ينصرها. وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها. فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر معقول، ودعاء مقبول. ومن الأمثال المنظومة:

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا   يوم الهياج وإن علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على أيدينا القدس ثم ينصره. ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر. واذا كان ما يقدم الله إليه المماليك قبل المولى لا بد منه، وهو لقاء الله سبحانه وتعالى، فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا (١). فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره، وتملأ صدره. فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم.

وهذا دين ما غلب بكثرة، ولا نصر بثروة. إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات، وذوى قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة، و«اشتدى أزمة تنفرجى»، والغمرات تذهب ثم لا تجى، والله تعالى يُسمع الأذن ما يسر القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية الكرب، ونستغفر الله العظيم، فانه ما ابتلى إلا بذنب».

ثم حدث أن انهزم المسلمون للصليبيين هزيمة كبيرة فى عكا — كما رأينا — فازداد حزن السلطان، ووصلت إليه فى أثناء ذلك أنباء المسلمين المحاصرين فى عكا، وقد أفناهم المرض والجوع والوباء، وأتت سيوف الأعداء، فأجهزت على البقية الباقية منهم

(١) أى إذا تقدم جنود السلطان إلى الموت قبله ولم يبق له جنود يحارب بهم، فذلك أبين لحجته أمام الله.

وبلغ ذلك السلطان وهو فى مخيمه ، فصاح من فوره قائلا :

اقتـلونى ومالكا واقتـلوا مالكا معى !

هنا — كان على الفاضل أن يعجل له برسائله المهـدئة ، بل بتلك الرقى التى كانت تفعل فى نفس السلطان فعل السحر ، وترده إلى شىء من الطمأنينة والصبر . فانظر إلى إحدى هذه الرسائل وفيها يقول الفاضل [١] :

« . . يا مولانا ، أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ، ولم يستصلح ، ولم يسهل ، ولم يستعمل ، ولم يستخدم فى إقامة دينه ، وإعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبـلة موحديه إلا أنت ؟

هذا — وفى الأرض من هو للنبوة قرابة ، ومن له المملكة وراثة ، ومن له المال كثرة ، ومن له فى العدد ثروة ؛ فأقعدهم وأقامك ، وكسلهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا إليهم ، وبغضها إليك ، وصعبها عليهم، وهونها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك ، وأشقاهم وأنعم عليك ، وثبطهم وسيرك . «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولـكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

نعم — وأخرى أهم من الأولى : أنه لما اجتمعت كلمة الـكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ، ومزخر البحر ، ما تأخر منهم متأخر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ؛ ولا أموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزجرهم ، مهطعين إلى الداعى ، ساعين فى إثر الساعى ، وهم من كل حدب ينسلون ، ومن كل بر وبحر يقبلون كنت [٢] — يا مولانا — كما قيل أبقاك الله :

ولست بملك هازم لنظـيره ولـكنك الإسلام للشرك هازم !

هذا ؛ وليس لك من المسلمين مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهم ، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة . تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع ، وذراعا بباع ؛ تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم

---

(١) نفس المصدر صفحة ١٦٦ . (٢) جواب لقوله (لما) فى أول الفقرة .

إلى نفسك ، وتسألهم الفريضة ، وكأنك تكلفهم النافلة ، وتعرض عليهم الجنه ، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم ، والآراء تختلف بحضرتك ، والمشورات تتنوع بمجلسك : فقائل لم لا نتباعد عن المنازلة ؟ وآخر لم لا نميل إلى المصالحة ؟ ومتندم على فائت ما كان فيه حظ ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد ، مشير بالتخلى عن عكا حتى كأن تركها تغليق [١] المعاملة ، وما كأنها طليعة الجيش ، ولا قفل الدار ، ولا خرزة السلك ، إن وهت تداعى السلك ، وانبت فى يد الملك ، فألهمك الله قتل الكافر وخلاف المخذل ، والتجلد وتحت قدمك الجمر ، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر :

ولكن مولانا صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لا شبهة أن المملوك قد أطال ، ولكن قد اتسع المجال ، وما مراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ، وبسره عليه ، وحببه إليه . فرب ممتحن بنعمة ، ورب منعم عليه بمشقة ، وكم مغبوط بنعمة هى داؤه ، ومرحوم من بلوى هى دواؤه . ويريد المملوك بهذا ألا يتغير لمولانا - أبقاه الله - وجه عن بشاشة ، ولا صدر عن سعة ، ولا لسان عن حسنة ، ولا ترى منه ضجرة ، ولا تسمع منه نهرة ، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها ، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها ، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا - عز نصره - بطرا ، فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا .

والمملوك يستحسن بيتى حاتم ، ومولانا - أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه - يحفظهما :

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى وما منهما إلا سقانا به الدهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

ومن هذه الكتب الفاضلية أيضا [٣] :

« المملوك يوصى المولى بالإسلام ، والإسلام هو قلب المولى ، فيروحه ولا يحمله ويشغله بما يثقله . ويوصى المولى بقلوب المسلمين ، وقلوب المسلمين جسم مولانا ؛

(١) من علق الرهن كفرح استحقه المرتهن وذلك إذا لم يفك فى الوقت المشروط . واستغلقنى فى بيعته لم يجعل لى خيارا فى ردها . المحيط . (٢) نفس المصدر ص ١٦٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٩ .

وقد بلغ المملوكَ من حمله على نفسه ، ما يخشى على مولانا الإثم فيه ؛ وإنما نتجشم كل مشقة ليسلم منه ، ونحن فى ضر قد مسنا ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلى به ، وفى طوفان فتنة ، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . ولنا ذنوب قد سدت طريق دعائنا ، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا ، ولله قدر لاسلاح لنا فى دفعه إلا أن نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد جمع العدو لنا وقيل لنا اخشوه فقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل ، متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم . وليس لنا إلا الاستعانه بالله ، فما دلنا الله فى الشدائد إلا على الدعاء له ، وعلى طروق باب كرمه ، وعلى التضرع إليه ، « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم » ؛ ونعوذ بالله من القسوة ، ومن القنوط من الرحمة ، ومن اليأس من الفرج ، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرشد ، مطرود عن الله ، مقطوع الحظ منه ، ولا حيلة إلا بترك الحيلة ؛ إن علم الله من جند مولانا أنهم قد بذلوا المجهود فقد عذرهم ، فيعذرهم المولى ، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة ، وقصروا فى نصرة كلمة الله ، فيكفيهم مقت الله » .

ومن هذه الرسالة الأخيرة :

« قيل للمهلب : أيسرك الظفر ليس فيه تعب ؟ فقال أكره عادة العجز . ولا بد أن تنفذ مشيئة الله فى خلقه ، لا راد لحكمه . فلا يتسخط مولانا بشىء من قدره ، فلأن يجرى القضاء وهو راض مأجور ، خير من أن يجرى وهو ساخط موزور ، فيصطلى نارا لشدة — أعاذه الله منها ، ولا يجد راحة الثواب — وفر الله حظه منه . من شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى ، واستغاث بقادر ، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة . فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا ، ولا يقطع الظهور التى لا تشتد إلا به ! ولا يضيق صدورا لا تنفرج إلا منه ! وما شرد الكرى ، وأطال على الأفكار ليل السرى ، إلا ضائقة القوت بعكا . ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس ، وأعفاؤها من الفكر ، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا رب الدهر ، ولا ينفذ الأمر ، إلا بصاحب الأمر ، وأنه لا يقل الهم إن كثر الفكر :

قد قلت للرجل المقسم أمره   فوض إليه تنم قرير العين

يا مولانا — هذه الليالى التى رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التى ينادى فيها : يا خيل الله اركبى ، وهذه الساعات التى تزرع الشيب فى الرءوس ، وهذه الغمرات التى تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها ، هى نعمة الله عليك ، وغراسك فى الجنة ، ومحملات محضرك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ؛ وهى مجوزاتك على الصراط . وهى مثقلات الميزان ، وهى درجات الرضوان ، فأشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر . ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب . وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع فى اللحاق بالغبار ، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار . ما استعمل الله فى القيام بالحق إلا خير الخلق . وقد عرف ما جرى فى سير الأولين ، وفى أنباء النبيين ، وأن الله تعالى حرض نبيه صلى الله عليه وسلم على أن يهتدى بهداهم ، ويسلك سبيلهم ، ويقتدى بأولى العزم منهم . وما تغلو الجنة بثمن ! وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر ، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا ، وكأن ما قد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنما يقظات العين كالحلم .

وأهم الوصايا ألا يحمل المولى هما يضعف به جسمه ، ويضر مزاجه ، والأمة بنيان وهو — أبقاه الله تعالى — قاعدته ، والله يثبت تلك القاعدة القائمة فى نصرة الحق .

ومما يستحسن من وصايا الفرس : إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز ، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة — والعياذ بالله — فلا تجزع . ورب واقع فى أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه ، مع مقدور الله ، لا نصرف همه ، وكفى خطبه ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه ، قاتلت الملوك بطمعها ، وقاتل هذا بإيمانه . وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته . فهنالك الفرج ميعاده ، واللطف ميقاته ، فلا يقنط من رَوْح الله ، ولا يقل متى نصر الله ؟ وليرْض عن الله سبحانه ، فإن الراضى عن الله هو المسلم حقا الخ » .

وكتب السلطان صلاح الدين إلى القاضى الفاضل بعد هذا كتابا من بلاد الفرنج

يخبره بما لاح له من أمارات النصر ، ويقول له: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها . فكتب إليه الفاضل يقول : (١)

« فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا ، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت ، والآثام كانت مكتوبة ثم عفى عنها بهذه الساعات وعفيت . فيكفى مستغفرا لسان السيف الأحمر فى الجهاد ، ويكفى قارعا لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد ، وبعين الله موقفك ، وفى سبيل الله مقامك ومنصرفك ، وطوبى لقدم سعت فى منهاجك ، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك ، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلتْ ، وإن الخواطر بشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت . . . » .

* * *

فانظر فى هذه الرسائل كلها إلى القاضى الفاضل ، كيف سلك طريقة أخرى فى الكتابة ، يوشك ألا يكون بينها وبين رسائله الأولى شبه مَّا إلا فى السجع . بل انظر إليه كيف يهمل هذا السجع نفسه أحيانا ؛ وذلك عند ما يورد طائفة من الأمثال العامة بعضها فى إثر بعض ، كما فى قوله :

« وما تغلو الجنة بثمن ، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر ، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا ، وكأنَّ ما قد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنما يقظات العين كالحلم » .

أىُّ درس فى الجهاد ذلك الدرس القيم الذى أعطاه الفاضل مولاه السلطان فى تلك المحنة التى مرَّتْ به ؟ وأى فن هذا الذى صدر عنه الفاضل فى رسائله ! لا ، بل أى قلب هذا الذى كانت تتنزل عليه تلك المعانى العلوية ؟ لقد كان الفاضل وحده جيشا ثانيا يحارب فى المحنة الصليبية .

وانظر إلى هذا الرجل الذى تمثلت فيه ثقافة عصره كلها تمثلا حسنا قد استطاع — فى مهارة وحذق — أن يفيد فائدة كبيرة من هذه الثقافة التى أخضعها لفنه ، وأن يمزج هذه الثقافة نفسها بهذا الفن مزجا خرجت به الطريقة الفاضلية فى زينتها ، فبهرت أعين الناظرين إليها ، وجعلتهم ينظرون إلى صاحبها على أنه عاهل الكتابة العربية فى

---

(١) كتاب المثل السائر ط. ؟ : صفحة ٢٢٣ .

عصره ، وإلى طريقته فى الترسل على أنها كالشريعة المحمدية نسخت ماقبلها من الشرائع .!

قليل جدا من الأدباء فى جميع العصور الأدبية من يستطيعون أن يحيلوا الثقافة التى لهم إلى فن ، كما فعل القاضى الفاضل ، ومن سبقه من أعلام الأدب العربى ، من لدن أبى تمام الطائى. وهؤلاء الذين وهب الله لهم تلك الهبة يجب أن يتمتعوا دائما بتقدير الأجيال الأدبية المتعاقبة ، وذلك على الأقل إبقاء على الفن ، وإذكاء لروح الخلق ، وضنا بالأدب العربى أن يفقد أغلى ما يعتز به ويفتخر على الآداب الأخرى .

تكفلت لك — أيها القارىء — بتحليل هذه النماذج الأدبية ، ولا غاية لى من وراء ذلك إلا أن تقتنع معى بأن الزينة اللفظية فى هذه النماذج لم تكن على حساب المعنى ، ولو كانت كذلك لحاسبنا عليها أصحابها حسابا عسيرا ، لأننا فى سبيل النقد الأدبى لهذه النماذج ، لا فى سبيل التقريظ الذى لا يتفق والمنهج العلمى .

* * *

وبعد ، فقد كان على النثر ما على الشعر من القيام بتسجيل الحوادث التاريخية ، والوقائع الحربية، التى اشتبكت فيها الجيوش الإسلامية بالجيوش الصليبيـة ، وكان على كل واحد من كتاب الدواوين الإسلامية ، أن يبعث إلى ديوان الخلافة حينا ، وإلى أمراء الإسـلام حينا آخر ، بالرسائل الطوال ، فى وصف كل موقعة من المواقع التى انتصر فيها ملوك العرب الأبطال ، فهل كان علينا أن نسير فى عرض هذه الرسائل النثرية على النمط الذى اتبعناه فى عرض القصائد الشعرية ، نتبع كل موقعة من هذه المواقع بما كتب فيهـا من الرسائل ؟ أظن لا — وذلك للأسباب التى شرحناها فى مقدمة البحث ، وقلنا إن من أهمها أن الشعر كان أسهل تعبيرا من النثر ، وكان أدنى إلى قلب الشعب . ومن ثم اكتفينا بنماذج قليلة لثلاثة من أعظم كتاب تلك الحقبة التاريخية العظيمة ، وهم : القاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى ، وضياء الدين بن الأثير . ولا بد أن لكل واحد من هؤلاء الثلاثة – بخاصة — ديوانا كبيرا جمعت فيه رسائله التى بعث بها إلى الديوان ، وإلى أمراء الإسلام [1] .

---

(١) وقد رأيت أننا رجعنا بالفعل إلى ديوان الرسائل الفاضلية ، وعلمنا بوجود قطعة كبيرة من ديوان الرسائل التى كتبها ضياء الدين بن الأثير . وأما ديوان رسائل العماد فوجوده عندنا مرجح فقط .

على أن الدرس التاريخي البحت لهذه الدواوين النثرية ، وترتيبها بحسب الحوادث التاريخية ، مما يهم المؤرخ أكثر مما يهم الناقد الأديب . فللمؤرخين — متى شاءوا — أن يعمدوا إلى هذه الدواوين ، وأن يرتبوها بحسب الحوادث والسنين ، فإن هذا الدرس والترتيب يفيد كثيرا فى استجلاء معالم التاريخ . أما نحن فحسبنا هنا ما صنعناه من نقد طائفة قليلة من تلك الرسائل النثرية الجليلة ؛ وأكبر الظن أن النماذج الأخرى لا تكاد تبين عن خصائص فنية أدبية أكثر مما قد أشرنا إليه .

* * *

. . . وجزى الله كتاب العربية إبان المحنة الصليبية ما يجزى به المجاهدون المثابرون، فقد جاهدوا فى الله بأقلامهم وأفكارهم ، وتولوا بأنفسهم تشجيع ملوكهم وأمرائهم وقوادهم ، وكانوا لسان الحكومات الإسلامية التى ساهمت فى تلك الحروب الدينية . وأدارت دفة السياسة الإسلامية . وقد رأينا أولئك الكتاب الفضلاء يتخذون من ظروف المحنة وسيلة لإظهار فنهم ، والإبانة عما وهب الله تعالى لهم من القدرة على التعبير بطريقة توافق مزاج العصر ، وتدل — كما رأينا — على أنهم كانوا بحق أصحاب فن خليق بالدرس .

الفصل العاشر

الخطابة والحروب الصليبية

كانت الخطبة الدينية التي يقصد بها إثارة الشعور الديني إبان الحروب الصليبية تسمع — بطبيعة الحال — في صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وفي أوقات الفتوح الكبرى، وأوقات المحن القاسية التي كان يتعرض لها المسلمون على أثر هجوم الصليبيين، ودخولهم مدينة هامة من مدن الإسلام في مصر أو الشام. وكان المكان الطبيعي لهذه الخطب كلها هو المسجد.

وكثيرا ما كان يعقب الصلاة مجلس كبير للوعظ، يتولى الكلام فيه إمام كبير من أئمة المسلمين، فيحضهم على قتال الكافرين، أو ينقد فيه بعض ملوك المسلمين ممن قصروا في الحرب، أو تساهلوا قليلا مع الفرنج؛ كما حدث ذلك في المجلس الذي عقده الملك الناصر داود — ابن عم الملك الكامل — في جامع دمشق، وندب فيه الإمام العظيم سبط ابن الجوزي، فقام يندد بالملك الكامل في إعطائه للإمبراطور فردريك القدس.

وهاك مثلا آخر من الوعظ الديني الذي ينسب إلى هذا الإمام الكبير — سبط ابن الجوزي — وكأنه كان جزءا من برامج الدعاية السياسية، وإثارة الحمية الإسلامية إبان الحروب الصليبية:

« جلس سبط بن الجوزي مرة بجامع دمشق، ووعظ وحث الناس على الغزاة — وكان الناس من « باب الساعات » إلى « مشهد زين العابدين » — فذكر حكاية أبي قدامة الشامي مع المرأة التي قطعت شعرها، وبعثت به إليه، وقالت له: اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله. فاجتمعت عند سبط بن الجوزي شعور كثيرة، فعمل الجوزي من الشعور التي عنده شكلا لخيل المجاهدين. ولما صعد المنبر أمر بإحضارها فكانت

ثلاث مئة شكال . فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة ، وقطعوا مثلها . وكان والى دمشق حاضرا ومعه الأعيان .

فلما نزل سبط ابن الجوزى من المنبر قام والى دمشق ، ومشى الإمام وركب ، وركب الناس ، وخرجوا إلى باب المصلى ، وكانوا لا يحصون كثرة ، وساروا إلى نابلس لقتال الفرنج ، فأسروا وهزموا وقتلوا ورجعوا سالمين غانمين »(١) .

فانظر إلى هذه الحركة المسرحية البارعة التى قام بها هذا الامام الداعية للحرب ، وقدر فى نفسك إلى أى حد كان لوعظه هذا تأثير عميق فى قلوب المسلمين فى ذلك الوقت !

على أن هذا الوعظ الدينى لم يكن دائما بالمسجد وحده ، بل كان أحيانا فى ميدان القتال نفسه ، وفى الأماكن التى يرابط فيها الجند . فكان المسلمون المحاربون إذا وهنوا أو ضعفوا ، أو ثقلت عليهم وطأة العدو ، وبدأ اليأس على وجوههم ، وترك أثره فى عزائمهم وقلوبهم ، فكر السلطان صلاح الدين فى الأمر ، ودعا لهم بشيخ من كبار الأئمة فى الدولة ، فجلس يعظهم ويذكرهم بآيات الله ، على نحو ما كان يفعل « القاصّ » فى الدولة الأموية أو العباسية . مثال ذلك أنه حين استعاد الصليبيون عكا ، وقوى أمرهم بها ، واستطالوا على السلطان بطلب القدس ، وكان فى جيش المسلمين من دعاة الهزيمة والفشل رجلان من أمرائهم ، هما : ابن المشطوب وأبو الهيجاء السمين ، وكان من رأيهما إذ ذاك أنه لا بأس على السلطان من إجابتهم إلى طلبهم فى استرداد القدس ؛ وذلك حقنا لدماء المسلمين فى ذلك الوقت . فعزّت هذه المقالة على السلطان صلاح الدين ، وشق عليه قولهم ، فجمع أمراءه ليشاورهم فى الأمر ، ويحثهم على مجاهدة العدو ، وكان مجلسا عظيما ، دُعى فيه القاضى بهاء الدين بن شداد للكلام ، فكان مما قال :

« إن النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضى الله عنهم على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من يتأسى به صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، ولعل ببركة هذه النية يدفع هذا العدو » .

فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه ، ثم شرع السلطان — بعد أن سكت طويلا فى صورة تفكر والناس سكون كأن على رءوسهم الطير — فقال :

---

(١) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلى : ج ٥ ص ١١١ .

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ؛ إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته . وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين ، وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم . فإن وليتم بأنفسكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد طىّ السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ؛ فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال . فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

فانتدب لجوابه سيف الدين بن المشطوب الذى مر ذكره ، فقال :

« يا مولانا . نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت أنعمت علينا وكبرتنا وعظمنا وأعطيتنا وليس لنا إلا رقابنا ، وهى بين يديك . والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلا أن نموت »

وقال الجماعة مثل ذلك . فانبسطت نفس السلطان ، وطاب قلبه ، ثم انصرفوا (١) .

فانظر إلى طريقة ابن شداد فى التغلب على اليأس الذى استأثر بقلوب الجند ، وتصور كيف كان كلامه شديد التأثير حتى فى نفوس أولئك الذين نثروا بذور الجبن فى قلوب المحاربين ، فما كاد ينفض هذا الاجتماع الخطير حتى استحال أولئك المتخاذلون إلى مشجعين مستبسلين يقولون للسلطان « . . وليس لنا إلا رقابنا ، وهى بين يديك . والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلا أن نموت » !

ومهما يكن من شىء، فإننا لانريد أن نبالغ فى وصف هذه الخطب أو الوعظ من الناحية الفنية الخالصة . وإن كنا نعلم علم اليقين أن لها خطرها الذى لا يدانى من الناحيتين السياسية والدينية كما رأينا . أما خطب القواد ـ كخطبة السلطان صلاح الدين التى مر ذكرها ـ فكانت قصيرة بطبيعتها ، ولا حظ لها من الإناقة الفنية ، أو الصنعة الأدبية . وأما وعظ الوعاظ فكان يرتجل ارتجالا ، لا يسمح كذلك بالتجويد والتأنق ؛ وربما كان هذا وحده كافيا لئلا يرتفع كلامهم إلى مستوى الفن بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

لقد كان الوعاظ يعتمدون فى نجاحهم على الحركات المسرحية ، التى يأتونها فى مجالس الوعظ ، كالحركة التى قام بها سبط بن الجوزى ، وكانو يعتمدون على الآيات القرآنية ،

---

(١) النوادر السلطانية لبهاء الدين بن شداد ص ٢١٢ .

والأحاديث النبوية ، وعلى سير الأبطال المسلمين فى الغزوات ونحو ذلك ؛ فيتألف لهم من كل ذلك مجلس كبير ، يؤدى مهمته فى التأثير فى السامعين بنجاح كبير ، منقطع النظير ، وكان السامعون مهيئين لقبول هذا التأثير .

* * *

أما الخطب التى كانت لها خصائصها الفنية التى ليس إلى أنكارها من سبيل ، فهى الخطب التى كانت تلقى من أعلى المنابر فى أيام المحن أو الفتوح ، إذ كان أصحاب هذه الخطب يعنون بها ، ويتعبون فى إعدادها ، كما يتعب الشاعر فى قصيدته ، والكاتب فى رسالته .

وسنكتفى هنا بأن نذكر مثلا واحدا لهذه الخطب ، ربما يكون فيه غنى عن غيره من الأمثلة . ذلك المثل هو « خطبة القدس » ، وذلك فى الجمعة التالية لجمعة الفتح ، إذ كان الفتح فى يوم جمعة ، وضاق الوقت يومئذ عن أداء الفريضة .

ومنذ تسامع الناس فى سائر الأطراف بهذا الفتح ، توافدوا إلى القدس من كل صقع ، وجاءوا إليه من كل فج . واجتمع من المسلمين عدد عظيم لا يقع عليه الإحصاء ، وامتلأت عراص المسجد الأقصى وصخرته بالخلائق من جميع الأرجاء ، واستعبرت العيون ، وخشعت الأصوات ، ووجلت القلوب . ورشح جماعة من أكابر العلماء أنفسهم للخطبة فى هذا اليوم العظيم ؛ فمنهم من عرض للسلطان بطلب ذلك ، ومنهم من صرح به ، والسلطان ساكت لا يبدى سره . فلما حان وقت الخطبة نص على رجل واحد ؛ هو القاضى محيى الدين بن زكى الدين ، وقدمه لهذا الأمر الجليل . فرقى المنبر بالأهبة السوداء العباسية ، وخطب خطبة بليغة قوية ، بدأها بهذه الآيات القرآنية[1] :

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

« الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .

وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرا .

---

(١) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٩١ . والروضتين ج ٢ ص ١١٠ .

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب .

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

الحمد لله فاطر السموات والأرض » .

وهكذا نرى الخطيب آثر أن يبدأ خطبته بثمان آيات قرآنية فيها حمد الله ، لأن المقام كان يدعو إلى ذلك الحمد على ما أنعم الله تعالى به على المسلمين من نعمة الفتح .

ثم قال :

« الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ؛ قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ؛ القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه، ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ؛ شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه . وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، رافع الشك ، وداحض الشرك ، وراحض الإفك ؛ الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به من السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان » .

تلك هى مقدمة الخطبة التى ألقاها محى الدين من فوق منبر المسجد الأقصى . وهى كما ترى مقدمة جليلة ، توضح قدرة الله الذى آثر بنصره المسلمين ، وتثنى على نبيه وعلى

الخلفاء الراشدين ، وتذكر جند صلاح الدين بأن المسجد الأقصى الذى حاربوا من أجله إنما هو مسرى نبيهم ، والبلد الذى فتحه السابقون من المسلمين بسيوفهم . وذلك كله فى عبارات مسجوعة، وألفاظ أهم ما تمتاز به أنها ألفاظ ذات إيحاء خاص ، يفهمه المسلمون ، ويستدعى من المعانى العزيزة على نفوسهم الشىء الكثير .

ثم قال الخطيب :

« أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ؛ لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ؛ وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مئة عام ؛ وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستعمر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه ، وبالتقوى بابه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ؛ فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل، ومهبط الوحى ، ومنزل تنزل الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذى شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله » وقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم» . وهو أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين. لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه. ولا تعقد الخناجر بعد الموطنين إلا عليه.

وفى تلك الفقرة من الخطبة حرص الخطيب على أن يبين للسامعين مقدار البلد الذى ردوه إلى الإسلام ، والضالة التى رجعت إليهم بعد قرابة مئة عام ، والشرف الذى نالوه بهذا الفتح ، والكرامة التى أصبحت لهم بعد هذا النصر . وأفاض الخطيب فى ذكر فضائل القدس كما رأيت .

ثم قال :

« ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم

بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية . فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء . فاقدرُوا — رحمكم الله — هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم لهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عينا الأنبياء والمرسلون . فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى تقوم بسيوفهم — بعد فترة من النبوة — أعلام الإيمان . فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الخضراء ، أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء ؛ أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونصّ عليه فى خطابه ، فقال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) ؟ أليس هو البيت الذى عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ؟ وغضب عليهم لأجله ، فألقاهم فى التيه عقوبة العصيان ؟

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد ، عن سوف وحتى . فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه

من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث . فالآن يستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلى عليكم الصلوات المباركات » .

وفى الفقرة السابقة تهنئة صادقة من الخطيب للمسلمين عامة ، وجند صلاح الدين خاصة . بدأها بطائفة من العبارات القصـــيرة ، التى تشبه الشعر المجزوء من بعض الوجوه ، بل تشبه الشعر المرقص أيضا . وإن القارئ ليخيل إليه أن المنبر الذى كان يخطب الإمام من فوقه كان يرقص به رقصا حين يقول :

« فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية » .

ثم يستأنف الخطيب هذه العبارات المرقصة بقوله :

« جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية » الخ .

ثم طلب الخطيب إليهم أن يتوجهوا بالشكر لله الذى خصهم من بين عباده بهذه النعمة ، ورشحهم لهذه الخدمة ، بأن جعلهم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى تقوم بسيوفهم راية الإيمان . وهنا احتاج الخطيب إلى العودة مرة أخرى إلى ذكر فضائل القدس ، وبلغ من ذلك ما أراد ، ثم رجع لحضهم على الشكر لله الذى وفقهم لما خذل فيه غيرهم من الأمم الماضية ، حتى أصبحت حيازة المسلمين للبيت المقدس حقيقة واقعة ، لا أمنية باقية ، وأصبح المسلمون خليقين بأن يشكرهم الملائكة المنزلون . وكيف لا يشكرونهم وقد أماطوا عن طريقهم إلى البيت المقدس أذى الكفر والكافرين ، وطهروا هذا الطريق من وضر الشرك والمشركين ؟

ونعود إلى الخطبة نفسها فإذا الخطيب يقول :

« فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضاه ، إذ جعلكم من خير عباده . وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ،

فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى مواطن الجلاد . لا — والله — ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل . وخصكم بهذا الفتح المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين » .

فانظر إلى القاضى محي الدين بن زكى الدين وقد خاف أن يحدث هذا الفتح العظيم فى نفوس الجند غرورا وزهوا كبيرا ، فقال : « وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، ويتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى مواطن الجلاد . لا — والله — ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » .

وأكثر من ذلك أنه حذرهم أن يتخذوا من هذا الفتح ذريعة إلى اقتراف المعاصى ؛ يفعلون ذلك دلالا من عند أنفسهم على الله والإسلام ، فيفسدون بذلك النصر الذى منّ الله به عليهم ، والفتح الذى خصهم به من دون غيرهم ، فيكونون (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، أوكالذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين) .

ونعود إلى هذا الإمام العظيم فإذا به يصل فى خطبته إلى قوله :

« الجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التى أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ؛ فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة المحمدية . الله أكبر : فتح الله ونصر . غلب الله وقهر . أذل الله من كفر . واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها . فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها . فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون . وقد قال الله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون

يغلبوا مئتين) . أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ، « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » .

وفى تلك القطعة التى يختم بها الخطيب خطبته المنبرية الأولى يدعو المسلمين إلى المضى فى الجهاد من أجل الدين . ثم يلقى عليهم جملا كأنها أوامر . ولذلك فصل بعضها عن بعض — فى غير موضع للفصل — ليكون كل أمر منها جملة قائمة بذاتها ، وذلك حيث قال : انصروا الله ينصركم . اذكروا أيام الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء الخ . ولا شك أنه كان من عناصر القوة فى خطبة القاضى محي الدين تلك السجعات القصار التى تقرع الأسماع قرعا قويا ، والتى كان يأتى بها الخطيب من آن لآخر . ومثلها فى هذه الفقرة الأخيرة قوله : « الله أكبر . فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر الخ » .

وجلس الخطيب بعد خطبته الأولى ، ثم نهض بخطبته الثانية ، فقال ما جرت به العادة ، ثم قال بعد الدعاء للخليفة :

« اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع ، والذابّ عن حرمك الممانع ، السيد الأجل الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبا المظفر يوسف بن أيوب ، محي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك برياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه . اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للايمان حوزته ، وانشر فى المغارب والمشارق دعوته .

واللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظُنت الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يده أدانى الأرض وأقاصيها ، وملكه صياصى الكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة ، إلا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه ، وأنفذ فى مشارق الأرض ومغاربها

أمره ونهيه . اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء الممالك وأكنافها . اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وبث سرايا جنده فى سبل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أيوب الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم كما أجريت على يده فى الإسلام ، هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعاءه فى قوله : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

ثم دعا الخطيب للمسلمين كافة بما جرى به العرف فى الخطب المنبرية ، ونزل فصلّى بالناس فريضة الجمعة . وكان المنبر الذى ألقيت من فوقه هذه الخطبة هو المنبر الذى أنشأه نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله تعالى — لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة ، إذ أمر مهرة الصناع فى حلب ، فصنعوه على أحسن وجه وأكمله . فلما فتح صلاح الدين القدس أمر بهذا المنبر فنقل إليه ، وتناصرت الألسن يومئذ بالدعاء لنور الدين بالرحمة ، ولصلاح الدين بالنصرة ، وعد الناس ذلك من كرامات البطل الشهيد نور الدين ، الذى رأى بفراسته ، ونافذ بصيرته ، أن القدس يفتح فى القريب العاجل ، ويحتاج الأمر إلى منبر عظيم يليق به ، وقد كان — رحمه الله — لا يشغل قلبه ، ولا يملأ نفسه غير هذه الغاية الشريفة .

ولما قضيت الصلاة ، نصب سرير للوعظ ، وتقدم السلطان صلاح الدين إلى « زين الدين الواعظ » ليعظ الناس بحضرته ، « فخلب بعباراته الحلوة العبرات ، وشار العسل بمعسول الإشارات ، وذكر الفتح وبكارته ، والقدس وطهارته ، والدين وجسارته ، والكفر وخسارته ، والقدر وإعانته ، والظفر وإبانته ، والصخرة وإصراخها ، والروعة وإفراخها ، والنار وسراطها ، والقيامة وأشراطها ، والرحمة وبابها . . . ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله ، والخير ودلائله ، والنجح ووسائله ، والشرع ومسائله ، وإحسان السلطان وفواضله ، والدين وحقه ، والكفر وباطله . وكان

يوما راجحا ، وسوما رابحا »[١] .

أما الصخرة المقدسة فقد رتب السلطان لها إماما ، ووقف عليها أرضا ودارا وبستانا ، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف . ورتب لها بعض الصوفية. « فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع ، وزهرت الشموع ، وبان الخشوع ، ودرت من المتقين الدموع ، واقشعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولى يعبد ربه ، ويأمل بره ، وكل أشعث أغبر لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره . وهناك كل من يحيي الليل ويقومه ، ويسمو بالحق ويسومه . وهناك كل من يختم القرآن ويرتله ، ويطرد الشيطان ويبطله ، ومن عرفته لمعرفته الأسحار ، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأذكار . وما أسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها ، وتلحق الشمس أنوارها ، وتحمل القلوب إليها أسرارها[٢] .

ولم تزل هذه الصخرة المقدسة يتبارى ملوك بنى أيوب فى العناية بها ، والرعاية لها ؛ فمنهم من يغسلها بماء الورد ، ومنهم من يبذل حولها الصدقات ، ومنهم من يتولى بيده كنسها ومسحها ، تبركا بها ، ومنهم من يزودها بالبسط الرفيعة ، ومنهم من ينفق فيها كل ما يملكه ، ومنهم من يبنى حولها المدارس والربط ونحو ذلك .

* * *

تلك الخطب الصليبية التى أتينا فى هذا الفصل بواحدة منها ، لم نعرف لها نظيرا فى الأدب العربي ، غير خطب ابن نباته صاحب سيف الدولة . وكان ابن نباته الخطيب من أهل ميافارقين ، وهو خطيب حلب ، « وبها اجتمع بأبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة بن حمدان . وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ، ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة »[٣] ؛ ذكر ابن خلكان أنه ولد سنة ٣٣٥ هـ وتوفى سنة ٣٧٤ هـ . فكأنه لم يتجاوز من العمر تسعا وثلاثين سنة .

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ١٠٩ نقلا عن كتاب البرق الشامى ، للعماد الأصفهانى .
(٢) نفس المصدر ص ١١٤ نقلا عن الفتح القسى للعماد .
(٣) انظر مقدمة ديوان خطب ابن نباته ص ١٠ نقلا عن ابن خلكان .

وأما ديوان ابن نباته هذا فمملوء بالخطب الدينية عامة ، وخطب الجهاد خاصة . غير أن أكثر هذه الخطب الأخيرة جاءت مختصرة إلى حد ما، ولسنا ندرى أكان اختصارها من ابن نباته نفسه ، أم كان اختصارها من صنع من عنوا بنشر خطبه من بعده .

ونريد فى خاتمة هذا الفصل أن نأتى ببعض نماذج من خطب هذا الخطيب الكبير ، الذى أعان سيف الدولة بلسانه وبيانه . وذكر القدماء أنه أبلى فى ذلك بلاء دونه بلاء غيره برمحه وسنانه .

فمن خطب ابن نباتة قوله بعد المقدمة(١) :

أيها الناس ، إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون . وإلى كم تقرعون بالزجر فلا تقلعون ، كأن أسماعكم تمج ودائع الوعظ ، أو كأن قلوبكم بها استكبار عن الحفظ ، وعدوكم يعمل فى دياركم عمله ، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله ، صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه ، هذه البهائم تناضل عن ذمارها ، وهذه الطير تموت حمية دون أوكارها ، بلا كتاب أنزل عليها ، ولا رسول أرسل إليها ، وأنتم أولو العقول والأفهام ، وأهل الشرائع والأحكام ، تندون(٢) عن عدوكم نديد الإبل ، وتدرعون له مدارع العجز والفشل ، وأنتم والله أولى بالغزو إليهم ، وأحرى بالمغار عليهم ، لأنكم أمناء الله فى كتابه ، والمصدقون بثوابه وعقابه ، خصكم الله بالنجدة والباس ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس ، فأين حمية الايمان ، وأين بصيرة الإيقان ، وأين الإشفاق من لهيب النيران ، وأين الثقة بضمان الرحمن ، فقد قال عز وجل فى الفرقان : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . فقد اشترط عليكم التقوى والصبر ، وضمن لكم المعونة والنصر ، أفتتهمونه فى ضمانه ؟ أم تشكون فى عدله وإحسانه ؟ فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نقية ، ونفوس أبية ، وأعمال رضية ، ووجوه مضية ، وخذوا

---

(١) انظر ص ١٨٨ نفس المصدر .

(٢) تندون : تتفرقون وتنفردون . يقال ندت الإبل : إذا تفرقت خوفا، وذهبت على وجوهها . وادرع المدرعة : لبسها .

بعزائم التشمير ، واكشفوا عن رءوسكم عار التقصير ، وهبوا أنفسكم لمن هو أملك بها منكم ، ولا تركنوا إلى الجزع ، فإنه لايدفع الموت عنكم ؛ « ولا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض » الآية « فالجهاد الجهاد أيها الموقنون ، والظفر الظفر أيها الصابرون ، والجنة الجنة أيها الراغبون ، والنار النار أيها الهاربون ؛ فإن الجهاد أثبت فوائد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان ، وإن من ناصح الله فيه لبين منزلتين مرغوب فيهما ، مجتمع على تفضيلهما : إما السعادة بالظفر فى العاجل ، وإما الفوز بالشهادة فى الآجل ؛ وأكره المنزلتين إليكم ، أعظمها نعمة عليكم ؛ فانصروا الله ، فإن نصر الله حرز من الهلكات حريز ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » الخ .

إن أحسن ما نطقت به بلغاء الخطاب ، وأنور ما أضاءت به ظلماء الألباب ، كلام العزيز الوهاب ؛ ثم قرأ : « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض — الآية » .

فتلك خطبة من خطب ابن نباته فى الحض على الجهاد . وهى كما ترى تعتمد اعتمادا تاما على السجع ، وفيها وعظ وزجر ، وفيها حث على الدفاع عن الأوطان ، وهو أمر يقوم به الحيوان، ذبا عن حياضه ، ودفاعا عن ذماره ، بدون حاجة إلى كتاب من عند الله ، أو رسول يرسله الله تعالى إليه . إلى آخر تلك المعانى المألوفة فى الجهاد ، وهى المعانى التى ترى نظائرها فى « نهج البلاغة » المنسوب للإمام على رضى الله عنه .

وهذه خطبة أخرى لابن نباته ، وفيها يقول بعد المقدمة (١) :

أيها الناس ، إن الطرق إلى الله واضحة ، ولكن طريق الجهاد أقصرها ، وإن فروض الكتاب لازمة ، ولكن فرض قتال ذوى الإلحاد أوكدها . فما بال الجهاد فيكم مهملا ، وباب الاجتهاد دونكم مقفلا ، كأنكم لا تجدون عن الفشل معدلا ، ولا ترون غير الحياة الدنيا منزلا . يا حسرتا على نفوس بالذل راضية ، وأمة على غير سمت الهدى راسية . . . أفلا سامع يسمع فيجيب ، ألا نازع يقلع فينيب ، ألا رام يرشق حقيقة الغرض فيصيب . أين أهل العزائم والنيات ؟ أين أبناء الصبر والثبات ؟

---

(١) الديوان : ص ٢٢٩ .

أين حلفاء الصوم والصلاة ؟ أين ذوو الصدقة والصلات ؟ أين المشفقون من سوء البيات ؟ أين المحامون عن الحرم المصونات ؟ أين الناظرون بعيون البصائر إلى مصادر الغايات ؟ أين المشتاقون إلى الحور الحسان المخلدات ؟ أين الهاربون من ثقل الأوزار والتبعات ؟ أين الطالبون شرف المحيا والممات ؟ أين الناشئون تحت خفق البنود والرايات ؟ أين الموفون بالعهود والأمانات ؟ أين حُمَّال السور والآيات ؟ أين المنعوتون فى سورتى الأحزاب والحجرات ؟ هيهاتَ هيهات هيهات ، أصبح والله أهل هذه الصفات ، فى بطون الفلوات ، وأصبحتم بعدهم رهائن الشتات ، ضلاً لا فى مهالك الشهوات ، مستسلمين لحلول المثلات ، أحياء ولكن فى الحقيقة كالأموات ، تسلكون سبيل الفساد ، وتتركون فضل الجهاد ، وتقعدون عن ادخار الزاد ، حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد ؛ فأطيبوا رحمكم الله ما تزرعون ، وأنفقوا فى سبيل الله ما تجمعون ، وأقلعوا عما عنه ستقلعون ، وارجعوا إلى مرضاة من إليه غدا ترجعون ، وتفكروا فى الموعظة فعساكم تنتفعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون الخ .

ومن خطبة ثالثة لابن نباتة ،وفيها ذكر أخذ الدمستق (١) :

أيها الناس ، اتقوا الله تقوى من أناب إليه ، واحذروا مخالفته حذر من يوقن بالعرض عليه ، واشكروا نعمه يزدكم من فضله وسعة ما لديه ،واسألوه التوفيق ، فإن أزمَّة الأمور بيديه . . وانظروا إلى صنيع الله بعدوكم طاغية الروم ، الذى ضلت فى انتظام أحواله ثواقب الأحلام والفهوم ، حين دوَّخ الأقطار ، وفتح الأمصار ، وأخرب الديار ، وجاوز فى بغيه وعتوه المقدار ؛ حتى إذا ارتعدت منه فرائص الاسلام ، وخامت (٢) عنه جيوش الإقدام ، وطاشت لفرقه عقول الأنام ، وتقاعست عن الفتك به صروف الليال والأيام ، ووقع اليأس من دفعه ، لطف الله الكريم لكم بلطيف صنعه ، وأتاه من مأمنه ، وقتله بأنصاره فى وطنه ، منة من الله لم تستوجبها أفعالنا ، ونعمة لم تجل فى طريقها آمالنا . فالآن عباد الله فاستديموها بإصلاح السرائر ، وقابلوها بالاقلاع عن الصغائر والكبائر ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، واعرفوا حقوق

---

(١) الديوان : ص ٢٣٩ (٢) خامت : جبنت .

علمائكم وكبرائكم ، والزموا طاعة ولاتكم وأمرائكم ، وعودوا بالفضل من أموالكم على فقرائكم ، وسدوا ثغركم ، باتفاق أخلاقكم وآرائكم ، يعززكم الله وينصركم على أعدائكم ، واشتغلوا بما ندب الله إليه أيها الغافلون ، ولا تعدلوا عن أمره فتهلكوا كما هلك العادلون ، واحذروا أن يستحوذ على أموركم الأرذلون ، « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » الخ .

تلك نماذج من خطب ابن نباتة ، التى اختلف القدماء أنفسهم عليها ، فمن معجب بها غاية الإعجاب ، ومن منتقد لها فى أمور لاتخفى على قارىء هذه الخطب . فمن المنتقدين لها ابن الأثير فى كتابه المثل السائر ، وقد جاء انتقاده لها فى موضوعين .

الأول — فى باب (ما يسوغ من الألفاظ استعماله للشاعر ، ولا يسوغ للناثر) . وهنا انتقد ابن الأثير على ابن نباتة استخدامه فى بعض خطبه لكلمة « اشمخر » ، قائلا إنها كلمة خاصة بالشعر ، كما فى قول البحترى :

مشمخر تعــلو له شرفات رفعت فى رءوس رضوى وقدس

والثانى — فى باب (السجع) . وهنا انتقد ابن الأثير على ابن نباتة إغراقه فى الكلام المسجوع ، إلى درجة أن الفقرتين من كلامه تتحدان فى المعنى ، كما تتحدان فى القافية » ، وليس ذلك هو المراد بالسجع ، وإن كنا حين نتأمل كلام المفلقين ممن تقدم كالصابى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وفلان وفلان ، نرى أن أكثر المسجوع منه كذلك ، والأقل منه ما أشرت إليه .

قال ابن الأثير : ولقد تصفحت المقامات الحريرية ، والخطب النباتية — على غرام الناس بهما ، وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذى أنكرته . فالكلام المسجوع يحتاج إلى أربع شرائط :

الأولى — اختيار مفردات الألفاظ .

والثانية — اختيار التركيب .

والثالثة — أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تبعا للمعنى ، لا المعنى تابعا للفظ .

والرابعة — أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها

أما أبو هلال العسكرى ، فذكر خطب ابن نباتة أو أشار إليها فى موضعين :

الأول — فى باب (الترصيع) حيث قال :

وقد ورد هذا الضرب كثيرا فى الخطب التى أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم ابن نباتة ، ثم أورد شواهد من كلامه منها :

أيها الناس أسيموا القلوب فى رياض الحكم ، وأديموا النحيب على ابيضاض اللمم ، وأطيلوا الاعتبار بانتقاض النعم ، وأجيلوا الأفكار فى انقراض الأمم الخ .

الثانى — فى باب (التضمين) حيث قال :

وقد استعمل هذا الضرب كثيرا الخطيب عبد الرحيم بن نباتة رحمه الله . فمن ذلك قوله فى بعض خطبه :

فيأيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون . فما لكم منه لا تشفقون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون . الخ .

. . .

وأما عز الدين بن أبى الحديد صاحب (الفلك الدائر على المثل السائر) فذكر خطب ابن نباتة مرارا فى كتابه (شرح نهج البلاغة) ووازن بينها وبين كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ونقل عن سبط بن الجوزى أن خطيب الخطباء — ابن نباتة — كان يحفظ كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وأن عامة ألفاظه من معانيه الخ .

والخلاصة أن القدماء انتقدوا خطب ابن نباتة فى ثلاثة أمور ؛ وهى استخدام الألفاظ الشعرية أحيانا فى الخطب النثرية ، والولوع بالسجع إلى درجة الترصيع ، وقد سبق أن رأينا فى بعض خطب ابن نباتة أنه أتى بعشرين سجعة ذات قافية واحدة حيث قال : أين أهل العزائم والنيات ، أين أبناء الصبر والثبات . . . إلى قوله : مستسلمين لحلول المثلات ، أحياء ولكن فى الحقيقة كالأموات .(١) .

. . .

أما خطباء الحروب الصليبية الحقيقية فقد كانوا — فيما يظهر لنا — فريقين :

فريق يؤثر السجع على طريقة تشبه طريقة ابن نباتة ، وهم الأكثرية الساحقة .

---

(١) راجع الخطبة الثانية من خطب ابن نباتة ؛ وهى التى استشهدنا بها فى هذا الفصل .

وفريق يعدل عن السجع إلى طريقة الكلام المرسل ؛ وزعيم هؤلاء شيخ الإسلام، عز الدين بن عبد السلام . وإن كنا لا نعرف ذلك إلا مما أثر من القدماء فى وصف الأسلوب الذى كان يجرى عليه هذا الإمام .

قال القدماء : « وكانت خطب السلف خالية من السجع ، إلا ما أتى عفوا بغير تكلف ولا تعسف . ولذا ذكروا فى مناقب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، أنه ترك السجع فى خطبه حين ولى الخطابة »[1] .

غير أننا — للأسف — لم نعثر بعد على شىء من خطب هذا الشيخ الذى عدل عدولا تاما عن السجع . وإن كنا نعلم من سيرته أنه كان من الجرأة والجسارة والاعتداد بالنفس ، بحيث كان فى العصر الأيوبى أمة وحده فى كل شىء : فى الفقه ، وفى الوعظ ، وفى انتقاد الحكام ، والشدة فى مراقبة من كان من هؤلاء تحدثه نفسه بالخروج على حكم من أحكام الشرع . حتى إنه باع كثيرا من أمراء المماليك ، وأنفق الثمن فى مصالح المسلمين .

مثل هذا الرجل الجرىء ، لم يكن غريبا أن يخرج على هذا التقليد الأدبى المتين ؛ وهو مراعاة السجع فى الكتابة أو الخطابة . ولا ريب عندنا فى أنه أطلق قلمه ولسانه من تلك القيود القديمة ، كما أطلق عقله ورأيه وقلبه من تلك المخاوف التى ملأت قلوب غيره من الناس !

. . .

ومهما يكن الأمر فالذى رأيناه فى خطبة القاضى محيي الدين بن زكى الدين ، أنها قامت على السجع ، وأن فيها ما فى خطب ابن نباتة من الترصيع حينا ، والاقتباس أو التضمين أحيانا . هذا من حيث الأسلوب أو التركيب . أما من حيث المعانى فلا شك أن خطبة المسجد الأقصى أغزر أفكارا ، وأعظم حظا من التنظيم والتنسيق . ذلك أن المقام الذى قيلت فيه خطبة محيي الدين بن زكى الدين ، غير المقام الذى كانت تقال فيه خطب عبد الرحيم بن إسماعيل .

أما هذا — ابن نباتة — فكان يقول فى مجرد الحض على قتال الكافرين ،

---

(١) مقدمة ديوان خطب ابن نباتة ص ١٩ نقلا عن ابن أبى الحديد .

— وأما الآخر — وهو محيي الدين — فكان يقول في يوم الفتح الذى انتصر فيه المسلمون انتصارا حاسما على الصليبيين فى وقعة حطين . وشتان بين المقامين ، وبين حالتى المسلمين المعنوية فى هذين الموطنين .

فمن يدرى أى خطبة تلك التى كان يقولها ابن نباتة إذا قدر له أن يشهد انتصار صلاح الدين فى ذلك اليوم العظيم ، وحضوره المسجد الأقصى لأداء فريضة الجمعة الأولى بعد خروج الصليبيين من القدس .

ومهما يكن شىء فان القارئ يحس فرقا واوضحا بين سجع ابن نباتة ، وسجع محيى الدين بن زكى الدين . فسجع هذا الأخير أوقع فى النفس ، وأعلق بالقلب ، وأخف على السمع ، وأمس للوجدان ، وأدل على قوة العاطفة من سجعات ابن نباتة الكثيرة العدد ، المتحدة القافية .

(وبعد) فلم تمدنا المصادر التى رجعنا إليها بعدد آخر من الخطب الصليبية ، وإن كنا نحمد الله على أن أظفرنا فى تلك المصادر بهذه الخطبة القوية التى للشيخ محيى الدين ابن زكى الدين . ولعلنا نحظى فى المستقبل بعدد آخر من هذه الخطب لتكون فرصة النقد أتم ، ومادته أغنى ، والحكم لهذه الخطب أو عليها أقرب إلى العدل .

الفصل الحادى عشر

فى الفروسية والجهاد

لم يكن المسلمون ليلقوا بأنفسهم فى أتون هذه الحرب الدينية الضروس ، إلا وعندهم من الإيمان العميق ما يجعلهم يتحملون ويلاتها ، ويستهينون بأهوالها ، ويركبون أخطارها ، واثقين بأنهم إنما يذودون عن دينهم وعقيدتهم ، ويدافعون عن بلادهم وعشيرتهم ، ويتقربون بهذا الجهاد زلفى إلى الله ورسوله ، والحياة الصحيحة فى نظر المؤمن محبة لله تعالى وجهاد فى سبيله .

ولم يكن المسلمون لينهضوا بذلك العبء حتى يكون أمامهم مثل يحتذونه ، وطريق يترسَّمونه . وقد وجدوا هذا المثل كاملا فى القرآن الكريم ، ووجدوا هذا الطريق لاحِبًا فى سنة رسوله العظيم . ثم أتى علماؤهم وفقهاؤهم وزعماؤهم الروحيون ، فلم يفعلوا أكثر من أن شرحوا لهم آى الذكر الحكيم ، وأحاديث الرسول الكريم ، ومزجوا ذلك كله بسير المجاهدين الأولين ، وتألفت لهم من ذلك كله كتب خاصة ، سموها « كتب الجهاد » ، وهى التى نتحدث عنها فى هذا الفصل .

* * *

فأما القرآن الكريم فقد دعا إلى الحرب فى مئة آية وتسع آيات موزعة بين سور البقرة والتوبة والفتح والعنكبوت والنحل والنساء والأنفال والحديد والحج والأحزاب ومحمد والحشر والصف [1] .

ومن هذه الآيات على سبيل المثال قوله تعالى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم

---

(١) راجع كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم) للأستاذ جون لا بوم — ونقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى — (انظر ص ٥٨٠) — وانظر أيضا كتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وضع الأستاذ محمد عبد الباقى تجد أن مادة (جاهد) وما تفرع منها ذكرت فى خمس وأربعين آية قرآنية . فليراجعها من أراد .

وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .   سورة الأنفال

وقوله تعالى :

« يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال. إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين. وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .   سورة الأنفال

وقوله تعالى :

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .   سورة البقرة

وقوله تعالى :

كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .   سورة البقرة

وقوله تعالى :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .   سورة التوبة

* * *

وأما كتب الحديث فقد جاءت بطائفة صالحة من كلام النبي عليه الصلاة والسلام فى موضوع الجهاد وآدابه ، وفضل المجاهد وثوابه . وقد راجعنا كتاب « مفتاح كنوز السنة » للعالم « ونسنك الهولندى » [1] فاذا البخارى أتى بخمسة وخمسين حديثا فى هذا المعنى ، وأتى مسلم بتسعة وستين ، والترمذى بخمسة وأربعين ، وأبو داود بثمانية وثلاثين ، والنسائى بواحد وخمسين ، وابن ماجة باثنين وثلاثين ، وهكذا

ومن هذه الأحاديث أيضا على سبيل المثال :

عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل يعدل الجهاد . قال لا أجده . ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية كذلك الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى . راجع الترجمة — مادة الجهاد ص ١٢٩ .

مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر [١] ؟

يريد الرسول بذلك أن يقول إن فضل المجاهد فى سبيل الله كفضل الرجل القائم لا يفتر أبد الدهر ، الصائم لا يفطر أبد الدهر .

وعن أبى هريرة : سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول : مثل المجاهد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله ، كمثل الصائم القائم . وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه ، أن يدخله الجنة ، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة [٢] .

وعن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها [٣] .

وعن عبد الرحمن بن جبر أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار [٤] .

وعن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن فى الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله . كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض [٥] .

وعن الجاموس قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ، ويقاتل حمية ، فرفع إليه رأسه (وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما) فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله عز وجل [٦] .

وكل هذه أحاديث من البخارى .

ومن أحاديث مسلم :

عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى عليه وسلم :

« من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبة من نفاق » [٧] .

ومن أحاديث النسائى :

---

(١) البخارى كتاب الجهاد ٥٦ (الباب الثانى) .

(٢) نفس المصدر المتقدم (٣) نفس المصدر باب ٧٣ (٤) باب ١٦

(٥) كتاب ٩٧ باب ٢٢ (٦) كتاب العلم باب ٤٥

(٧) مسلم : كتاب الامارة — حديث ١٥٨

عن سلمان الخير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان له كأجر صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطا أُجرى له مثل ذلك من الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتان »[1] .

وفى مسند أحمد :

عن ابن عباس قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم جلوس فقال : « ألا أخبركم بخير الناس منزلا ؟ قال — قلنا بلى يا رسول الله . قال : رجل ممسك برأس فرس فى سبيل الله حتى يموت أو يقتل »[2] .

وفى رواية أخرى :

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم (تَبوك) فقال :

« ما فى الناس مثل رجل أخذ بعنان فرسه ،فيجاهد فى سبيل الله ، ويجتنب شرور الناس » .

ومن أحاديث الترمذى :

عن كعب بن مرة عن عمرو بن عنبسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة »[3] .

* * *

أما الفقهاء فقدجعلوا فى كتب الفقه بابا خاصا بالجهاد . شرحوا فيه آدابه ، ونوهوا فيه بأجر المجاهدين فى سبيل الله ، واعتمد الفقاء فى كل هذا — كعادتهم — على القرآن والسنة . واشتهر بذلك نفر من أئمة العصر الأيوبى وعصر سلاطين الأتراك ؛ منهم عز الدين بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، وهبة الله بن القفطى ، والنووى ، وابن تيمية ،وابن كثير ، وغيرهم كثير . وما أظننا بحاجة إلى استعراض (باب الجهاد) فى كتب الفقه بعد إذ قدمنا للقارىء صورة من الآيات والأحاديث التى اعتمد عليها الفقهاء فى هذا الباب

* * *

---

(١) كتاب الجهاد رقم ٢٥ باب ٣٩ . والفتان الشيطان ومنكر ونكير — انظر القاموس المحيط

(٢) مسند أحمد جزء أول ص ٣١٩ (٣) كتاب الجهاد باب ٩

لم يبق — بعد ذلك — إلا أن نشير إلى كتب الجهاد والفروسية التي ألفها علماء ينتمون إلى عصر الحروب الصليبية .

وقدظفرنا بأسماء طائفة من هذه الكتب ، ننوه منها على سبيل المثال بكتابين فى الجهاد ، وآخر فى الفروسية . فأما الجهاد فمما ألف فيه :

أولا — كتاب « فضائل الجهاد » للشيخ بهاء الدين شداد . قال إنه ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبى .

قال ابن شداد فى كتابه (النوادر السلطانية) يصف السلطان صلاح الدين وحبه للجهاد :

« ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ؛ بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره به ، ويحثه عليه . ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة ، تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحية على برج عكا ، فلو لم يكن فى البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد . وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الأفضل عز نصره »(١) .

ثانيا — « كتاب الاجتهاد فى طلب الجهاد » لابن كثير : وهو إسماعيل بن عمر عماد الدين أبو الفداء القرشى الدمشقى الشافعى ولد عام ٧٠١ هـ وتوفى عام ٧٧٤ هـ وكان تلميذا لابن تيمية ، ولكنه لم يتفق معه فى مذهبه . ومدحه أستاذه وأثنى عليه تلاميذه . وصنف كتبا كثيرة ؛ ومنها كتاب (الأحكام) ، وكتاب التاريخ الذى سماه (البداية والنهاية) ، وكتاب (التفسير) ، وكتاب (طبقات الشافعية) ، وكتاب (مناقب الإمام الشافعى) .

---

(١) انظر النوادر السلطانية ص ١٦ وما بعدها .

ويحدثنا بروكلمان أن للكتاب نسخة خطية بمكتبة كوپريلى بالآستانة رقمها ٨٦٤ . ولكننا لم نصل إلى هذه النسخة .

ومن تصانيفه كذلك هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن ، وهو كتاب : « الاجتهاد فى طلب الجهاد » ألفه إجابة منه لرغبة الأمير (منجك) نائب السلطنة بالشام ، وقد رغب إليه هذا الأمير أن يكتب له ما تيسر من القرآن والسنة والآثار الحسنة فى المرابطة بالثغور الإسلامية ، ليرغب أهلها فى ثواب ما أهلهم الله له من الرباط فى الثغور ،التى هى حفظ حوزة الإسلام .

قال ابن كثير : فأجبته إلى ما أمر ، لأنه نائب الإمام ، وفيما أمر طاعة لله ولرسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .

ثم قال : وقد كنت جمعت فى ذلك مجلدا بسيطا ، فاختصرت منه منهجا وسيطا .
ثم مضى فى كتابه فأتى فيه أولا بسبع آيات من القرآن ،فيها تحريض على القتال، بدأها بالآية الكريمة :

« ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » سورة التوبة .

ثم أتى بثلاثة عشر حديثا لرسول الله عليه الصلاة والسلام فى موضوع الجهاد . ومنها قوله :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« لأن أرابط ليلة فى سبيل الله أحبّ إلىّ من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود » .

وعن فضالة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله ،فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر » .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة[١] إن أعطى رضى ، وإن لم يعط

(١) الخميصة :ثوب معلم من خز أو صوف .

سخط . تعس وانتكس . وإذا شيك[٢] فلا انتقش[٣] . طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ،أشعث رأسه ،مغبرة قدماه . إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة » . الخ

وفرغ الإمام من ذلك ثم أتى بفصل ذكر فيه وقعتين كانتا فى زمن السلطان زين الدين أبى المعالى شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون الذى تولى ملك مصر وتوابعها عام ٧٦٤ ﻫ ، وعمره ١٠ سنوات ، فكان الأمير (يلبغا) هو الأتابك الذى بيده أمور الدولة . ثم أتى ابن كثير فى كتابه بعد ذلك بفصل تاريخى قصير ، ذكر فيه طرفا من الحروب التى دارت بين المسلمين والروم على الشام ،وكيف فتح البيت المقدس فى أيام عمر بن الخطاب ، وكيف بعث معاوية ابنه يزيد فى جيش كثيف لمحاصرة القسطنطينية ، وكيف فتح المسلمون فى أيام الوليدين عبد الملك جميع جزيرة الأندلس . وكيف استقرت هذه الممالك فى أيدى المسلمين الى حدود الخمسمئة من الهجرة .

فلما كانت سنة بضع وتسعين وأربعمئة ، وقد ضعفت الدول الشامية والمصرية فى الخلافة الفاطمية تدانت الفرنج - لعنهم الله — إلى بعض السواحل فملكوها ، واستمر بيت المقدس فى أيديهم نحوا من تسعين سنة ، حتى انتزعه من أيديهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة ، واسترد منهم أكثر السواحل البحرية إلا (عكا وصور) . فاقتدى به الملوك بعده ،فاستنقذوا منهم بقية السواحل ، حتى كان آخرها (عكا) فتحها الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون ،وذلك فى سنة تسعين وست مئة ، فلم يبق للفرنج فى السواحل جليل ولا حقير ، ولا مقدار قطمير ، ولا فتيل ولا نقير ، ولله الحمد والمنة وبه ، التأييد والعصمة .

ثم قال ابن كثير :

فزعم الذين كفروا من هؤلاء الفرنج — لعنهم الله بما حدثتهم به أمانيهم الكاذبة — أنهم يسترجعون ما كان بأيدى أسلافهم — لعنهم الله — من هذه السواحل المذكورة.

---

(٢) شيك : دخل جسمه شوكة وهى المعروفة ، أو هى السلاح .

(٣) انتقش : نزعت منه الشوكة بالمنقاش .

وهيهـــات . كذبت — والله — الظنون ، وخزى الكافرون ، والله حائل بينهم وبين ما يشتهون . . .

وزعم صاحب قبرص — لعنه الله — أنه سيعود ملك بيت المقـــدس إليهم (ولا سبيل لهم إلى ذلك مرة أخرى) أبد الآبدين ،ودهر الداهرين .

فأجاب ابن كثير على هذه المزاعم كلهـــا بكتابه ما سماه « بالبشارة » ، وبها ختم الكتاب ، وفيها يبشر جميع المؤمنين بشيء استنبطه من القرآن ومن السنة . فأما القرآن فمن قوله تعالى :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا . فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » .

فذكر تبارك وتعالى أنه سلط على بنى اسرائيل — بذنوبهم — عدوا من سواهم فقتل من المقاتلة خلقا كثيرا وسبى من الذرية جمعا غفيرا . وهذا المسلط عليهم — فيما ذكره أكثر المفسرين — بختنصر صاحب العراق . هذا فى المرة الأولى كما قال تعالى (فإذا جاء وعد أولاهما) .

ثم ذكر تعالى أن فى المرة الثانية أراد الأعداء أن يفعلوا معهم كما فعلوا فى أول مرة ، فذكر تعالى أنه رحمهم ، ولم يسلط عليهم عدوهم ، بل أجارهم من ذلك .

ثم قال :

« فنحن أيضا — أيتها الأمة المحمدية — قد ابتلينافى بيت المقدس باستحواذ الأعداء عليه فى حدود الخمس مئة سنة ، وأنه استمر فى أيديهم تسعين سنة ، حتى أنقذه الله من أيديهم على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف كما تقدم . فليس إليه بعد ذلك سبيل إن شاء الله تعالى .

وأما السنة فقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث النواس بن سمعان وغيره

رضى الله عنهم فى نزول عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان من السماء على المنارة الشرقية بدمشق. وهى محاصرة بجيوش الدجال وقت صلاة الفجر، وقد أقيمت الصلاة. فيقول له إمام المسلمين: « تقدم ياروح الله » فيقول: « لا ، إنما أقيمت الصلاة لك » . فيصلى وراء إمام المسلمين تكرمة من الله لهذه الأمة . ثم يكون عيسى عليه السلام من هذه الأمة بمنزلة الإمام الأعظم ، كما ثبت فى الصحيحين .

والمقصود أنه قال فى حديث النواس بن سمعان « فيوحى الله إلى عيسى بن مريم أنى قد أخرجت عبادا لى ، لايدان لأحد بقتالهم ، فحض عبادى فى جبل الخمر - يعنى جبل بيت المقدس — فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله فيهم ، فيصبحون فرسى كموت رجل واحد »(١) .

فذلك دليل على بقاء بيت المقدس فى أيدى المسلمين إلى ذلك الحين . الخ

هذا مثال من كتب الجهاد التى تشير إليها أو نموذج منها ، وهى كما نرى لابد من اشتمالها على آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأخبار تاريخية تتصل بفلسطين ، أو بيت المقدس . ولا بأس من اشتمالها كذلك على هذه البشارات التى درج الفقهاء على تبشير المسلمين بها ، لعلمهم أن للمسلمين استعداداً كبيرا لقبولها ، ورغبة ملحة فى سماعها ، واطمئنانا عظيما إليها .

* * *

وأما الفروسية الإسلامية فمن أشهر ما ألفه العلماء فيها : كتاب عنوانه : « الفروسية » للإمام شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الدمشقى المعروف (بابن القيم) إمام المدرسة الجوزية وابن قيمها . وكان عالما فقيها جرىء اللسان ، قوى الجنان . وقعت حياته بين عامى ٦٩١ هـ ، ٧٥١ هـ . وكان قد غلب عليه حب أستاذه (ابن تيمية) فكان لا يخرج على شىء من أقواله ، بل ينتصر له ويحتج لرأيه ، ويظهر الإعجاب به . وهو الذى هذب كتبه ، ونشر علمه . وكان ابن القيم — فيما يقول ابن كثير — طويل النفس فى مصنفاته يتعانى الإيضاح جهده ، فيسهب جداً ، وله فى ذلك ملكة قوية . قال : وكان كثير العبادة لا أعرف فى زماننا من أهل العلم من هو أكثر عبادة منه .

« ولما كان على عقيدة شيخه ابن تيمية ، مناصراً آراءه ، فقد كان من الطبيعى أن يناله

---

(٢) لا يدان لأحد بقتالهم أى لا طاقة له . وجبل الخمر: بفتحتين : وفرسى: أى هلكى .

ما نال شيخه من المحن ، فحبس معه فى المرة الأخيرة بقلعة دمشق ،منفردا عنه ، بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت شيخه » .

بدأ المؤلف كتابه بإثبات أن النبى صلى الله عليه وسلم سابق بالأقدام ، وسابق بين الإبل ، وسابق بين الخيل ، وشارك فى المصارعة ، ورمى بالقوس ، وطعن بالرمح ، وتقلد السيف ، وركب الخيل مسرجة ومعراة ، وحضر نضال السهام ، وصار مع إحدى الطائفتين ، فأمسكت الأخرى ، فصار مع الطائفتين كلتيهما .

وأتى المؤلف على جميع الأحاديث الدالة على ذلك ، وأشار إلى أهم الأخبار المؤيدة له . وزاد على هذا أن أبا بكر الصديق راهن المشركين بعلم من الرسول وإذن منه وذكر أن الشارع إنما أباح الرهان فى الرمى ، وفى العلم ، وفى المسابقة بالخيل والإبل والأقدام ،وفى المصارعة ،والسباحة ،وحمل الأثقال ،لمافى هذا كله من التحريض على تعلم الفروسية ، وإعداد القوة للجهاد ؛ وهو مذهب أبى حنيفة وابن تيمية خاصة .

وطفق ابن القيم يوضح هذا المذهب ، وأتى — على عادة العلماء — بمناظرات كثيرة تبين وجهتى النظر : فمناظرة فى موضوع الرهان والمغالبة ، ومناظرة فى أيهما أفضل : ركوب الخيل أم رمى النشاب ؛ فركوب الخيل أفضل بخمس عشرة درجة ، والرمى أفضل بعشرين درجة وهكذا .

وكأنى بالمسلمين فى العصور التى نؤرخ لها وهم يقرءون هذه المناظرات ، وفيها أحاديث الرسول فى الحض على ركوب الخيل ، والحض على تعلم الرماية وغيرها من فنون الفروسية قد أقبلوا عليها ، وربوا أولادهم وشبابهم تربية إسلامية صحيحة من هذه الناحية وكان لذلك أكبر الأثر فى انتصارهم على العدو . وانظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا » مسافةوإلى قوله :

« إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد به ، فارموا ، واركبوا ،وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا . كل لهو باطل . ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته

---

(١) أنظر مقدمة كتاب الفروسية كتبها السيد عزت العطار الحسينى . وهو الذى قام بنشر هذا الكتاب

أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق . ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة فإنها نعمة تركها — وفى رواية — كفرها » .

وفى صحيح مسلم عن عقبة قال :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى .

وعن عمرو بن عنبسه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . من رمى بسهم فى سبيل الله ويلغ العدو فأصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة » .

وعن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مشى بين الغرضين كان له بكل خطوة حسنة » .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتح لكم الأرض ، وتكفوا المئونة ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » .

وكان العرب يعتقدون أن كل سهم يقوم مقام رجل ، فإذا كان مع الرجل مئة سهم عُد بمائة رجل ، ويرون أن الخصم يخاف من النشاب أضعاف خوفه من السيف أو الرمح. من أجل ذلك مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طلحة لإجادته فى الرمى . قال :

« صوت أبى طلحة فى الجيش خير من فئة » وكان أبو طلحة من أحسن الصحابة رميا وأشدهم نزعا .

وروى أن قوما كانوا يتناضلون . فقيل يارسول الله قد حضرت الصلاة . فقال « إنهم فى صلاة » . فشبه رمى النشاب بالصلاة ، وكفى بذلك فضلا[1] .

أما الخيل فلها من حديث رسول الله نصيب كبير أيضا . روى النسائى فى سننه عن أنس قال : لم يكن شىء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل »

وعن أبى ذر أن النبى قال :

« ما من فرس عربى إلا يؤذن له عند السحر بكلمات يدعو بهن : اللهم خولتنى من خولتنى من بنى آدم ، وجعلتنى له فاجعلنى من أحب أهله وماله إليه » .

ومن الأحاديث أيضا « أن من ارتبط فرساً فى سبيل الله فإن شبعه ، وريه ، وروثه ، وبوله فى ميزانه يوم القيامة » .

---

(١) كتاب الفروسية ١٦

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها . ولا تقلدوها الأوتار [١] » .

وحسب الخيل فخرا أن الله سبحانه وتعالى أقسم بها فى كتابه . قال تعالى :

« والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا » .

وهذا عمر بن الخطاب يعلم الناس الفروسية :

قال على بن الجعد حدثنا شعبة ، قال : أخبرنى قتادة ، قال : سمعت أبا عثمان النهدى قال [٢] :

« أتانا كتاب من عمر بن الخطاب . ونحن بأذربيجان :

أما بعد ، فاتزروا ، وارتدوا ، وانتعلوا ، وألقوا الخفاف ، وألقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل . وإياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمَّام العرب ، وتمعددوا [٣] واخشوشنوا ، واخلولقوا [٤] ، واقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزوا ، وارتموا الأغراض » .

قال ابن القيم : هذا تعليم منه للفروسية ، وتمرين البدن على التبذل وعدم الرفاهية والتنعم ، ولزوم زى ولد إسماعيل بن إبراهيم [٥] . فأمرهم بالاتزار والارتداء والانتعال وإلقاء الخفاف ، لتعتاد الأرجل الحر والبرد ، فتتصلب وتقوى على دفع أذاهما . وقوله « وألقوا السراويلات » : استغناء عنها بالأزر ، وهو زى العرب . وبين منفعتى الإزار والسراويل تفاوت من وجه ، وهذا أنفع من وجه ؛ فالإزار أنفع فى الحر ، والسراويل أنفع فى البرد ، والسراويل أنفع للراكب ، والإزار أنفع للماشى .

وقوله : وإياكم والتنعم وزى العجم ، فإن التنعم يخنث النفس ، ويكسبها الأنوثة والكسل ، ويخون صاحبه أحوج ما يكون إلى نفسه الخ .

وانتقل المؤلف من هذه المناظرات التى أشرنا إليها ، إلى ذكر مظاهر الفروسية ،

---

(١) أى قلدوها طلب اعداء الدين ، ولا تقلدوها طلب اوتار الجاهلية . وقد تكوك الأوتار جمعا لوتر القوس ، فيكون المعنى : لا تجعلوا فى اعناقها الأوتار فتختنق (النهاية لابن الأثير) .

(٢) كتاب الفروسية ص ٩

(٣) تمعددوا : أى الزموا المعدية ، وهى عادة معد بن عدنان فى أخلاقه وزيه وفروسيته .

(٤) اخلولقوا : من قولهم اخلولق السحاب بعد تفرقه : أى اجتمع وتهيأ للمطر ، وصار خليقا له . فالمعنى تهيئوا واستعدوا لما يراد منكم ، وكونوا خلقاء به .

(٥) إشارة إلى الحديث : ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا .

وهى ثلاثة أشياء : ركوب الخيل ، والمسابقة عليها ، ورمى النشاب ، واللعب بالرمح ، ثم دخل مرة أخرى فى الرهان أو المغالبة ، وأورد فيها كلاما كثيرا يهم الفقهاء ورجال الدين ، أكثر مما يهم النقاد ورجال الأدب . ثم تكلم فى السباق ومراتبه وشروطه ، وفى السلاح وصنوفه ، وفى الرمى مرة أخرى وآدابه . وهنا قال ابن القيم : تقدم أن الملائكة لا تحضر من اللهو شيئا إلا الرمى . فينبغى للرماة أن يعلموا مقدار من يحضرهم ، وهم الملائكة ، فينزلوا بهم منزلة الأضياف ، والكريم يكرم ضيفه ، واللئيم يقابله بخلاف ما يليق به من الإكرام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

فينبغى للمناضل أن يعد رواحه إلى المرمى كرواحه إلى المسجد ، واجتماعه بمن هناك كاجتماعه برؤساء الناس وأكابرهم ، ومن ينبغى احترامه منهم ، ولا يعد رواحه لهم باطلا ولعبا ضائعا ، بل هو كالرواح إلى تعلم العلم ، فيذهب على وضوء ذاكرا الله عز وجل ، عامدا إلى روضة من رياض الجنة ، وعليه السكينة والوقار . فإذا وصل إلى الموضع دخل بأدب وسلم ، ووضع سلاحه ، وحسن أن يصلى ركعتين ، وليس بتحية البقعة ، ولكنها مفتاح للنجاح والإصابة . فالأمور إذ افتتحت بالصلاة كانت جديرة بالنجح ، ثم يدعو الله ويسأله التوفيق والسداد ... ثم يخرج قوسه ويتفقدها ، ثم يتفقد سهامه فيمرها على إبهامه ، وينظر ما ينبغى الرمى به ، فإذا وقع على رشق منه ، وهو الندب ، مسحه وتركه ، ثم يوتر قوسه ، ويتفقد وتره ، وينظر فى سيه القوس ومغافرها . فإن كانت على الاستواء رمى عليها ، وإن كان فيها اختلاف تجنبها ، فإذا رمى رسيله لم يبكته على خطأ ، ولم يضحك عليه منه . فإن هذا فعل السفل ، وقل أن أفلح من اتصف به ، ولا يحسده على إصابته ، ولا يصغرها فى قلبه ويقول : رمية من غير رام ، ونحو هذا الكلام . ولا يحسن أن يحد النظر إلى رسيله حال رميه ، فإن ذلك يشغله ، ويشوش عليه قلبه ، وينبغى للرماة أن يخرجوا هذا من بينهم ، فإن ضرره يعود عليهم .

فإذا وصلت النوبة إليه قام وشمر كمه وذيله ، وسمى الله ، وأخذ سهامه بيمينه ، وقوسه بيساره ، ووقف على موقفه بأدب ، وسكينة ، ووقار ، وإطراق ، ولباقة ، وخفة ، واستمداد من الحول والقوة بيده ، أن يمده بالقوة والإصابة ، ويجعل

سهامه بين رجليه ، وسية قوسه السفلى على الأرض ، والعليا عند صدره ، ثم يأخذ السهم فيديره على إبهامه ، ويمسك القوس بلباقة ، ويفوق عليها السهم كما ينبغى ، ويعتمد على وسطها ويمد ، فإذا بلغ نهايتها سكن قليلا ، ثم أطاق ، فإذا خرج السهم تأمل موضع وقوعه ، فإن مر سادا حفظ ذلك الوضع والهيئة، ورعاه كلما رمى . وإن خرج إلى يمين الغرض ، أو يساره ، أو أعلاه ، أو أسفله، نظر فى علة ذلك ، ومن أى شىء حدث ، هل هو من قبل القوس أو الوتر أو السهم أو الريح ، أو من قبل الرامى نفسه . أما من قبضه ، أو عقده ، أو إطلاقه ، أو نظره . فإذا وقع على علة الخطأ تجنبها ، وسمى الله عند كل رمية . فإن أصاب حمد الله وأثنى عليه ، وقال : هذا من فضل ربى . وإن أخطأ فلا يتضجر ولا يتبرم ، ولا ييأس من روح الله ، فخطأ هذا الباب أحب إلى الله من الإصابة فى أنواع اللعب سواه ؛ ولا يشتم قوسه ، ولا سهمه ، ولا يده ، ولا أستاذه ، فإن هذا كله من الظلم والعدوان ، وليصابر الرمى وإن كثر خطؤه ، فيوشك أن ينقلب الخطأ صوابا ، وليعلم أن الخطأ مقدمة الصواب ، والإساءة مقدمة الإحسان[١] » .

لك أيها القارىء — إن أردت — أن تعيد قراءة هذه الفقرة السابقة فسترى أنها تشتمل أكثر الأمور التى نطلق عليها فى عصرنا هذا (آداب الرجل الرياضى) ، وسترى أيضا أن الفارس الإسلامى لا بد أن يكون بهذه الأخلاق العالية ، والآداب الرفيعة ، والذوق الحسن ، والحس الدقيق ، والفهم المستقيم للحياة الرياضية على وجهها الصحيح ، رجلا مثاليا متزنا من جميع نواحيه .

• • •

تلك الفروسية تعلمها الأوربيون من المسلمين ، وأخذوها عنهم ، وانتفعوا بها فى بلادهم ، وظهر أثرها واضحا فى أخلاقهم ، وذلك منذ العهد الإقطاعى ، وهو العهد الذى يفخر على غيره من العهود بشىء واحد ، هو نظام الفروسية ، إلى عصرنا الحاضر ، وهو العصر الذى تباهى فيه الأمم الأوربية باهتمامها العظيم بالألعاب الرياضية .

وختم ابن القيم كتابه بفصل مدح فيه القوة والشجاعة ، وذم فيه العجز والجبن ،

---

(١) كتاب الفروسية : ص ٢٠٧

وأتى فى سبيل ذلك ببعض آيات القرآن ، وأحاديث الرسول . منها قوله صلوات الله وسلامه عليه :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

ثم ذكر المؤلف طائفة صالحة من أشعار الحماسة مثل :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى

ومثل :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومثل :

وما مات منا سيد فى فراشه ... ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل

ثم وضح المؤلف معنى الشجاعة والقوة والثبات ، وضرب الأمثال بشجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبات أبى بكر رضى الله عنه ، وشجاعة عمر بن الخطاب وصبر آل الزبير وأبنائه ، ورتب الشجعان مراتب : أولها الهمام ، فالمقدام ، فالباسل فالبطل ، فالصنديد . وقال إن الناس ثلاثة :

رجل ، ونصف رجل ، ولا شىء .

فالرجل من اجتمع له إصابة الرأى والشجاعة .

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان

ونصف الرجل من انفرد بأحد الوصفين دون الآخر . والذى لا شىء من عرى عن الوصفين جميعا .

قال تعالى فى تدبير الحروب أحسن تدبير: «يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » . فأمر المجاهدين بخمسة أشياء ، ما اجتمعت فى فئة قط إلا نصرت ، وإن قلت وكثر عدد عدوها . فهذه الأشياء هى :

الثبات ، وذكر الله سبحانه وتعالى ، وطاعته وطاعة رسوله ، واتفاق الكلمة ، وعدم التنازع ، والصبر .

* * *

هذا مثال من أمثلة الكتب التى ألفت فى الفروسية ، وهى الموضوع الذى شغل المسلمين فى عصورهم المختلفة . وإن كان المؤلفون الأوائل أدمجوا الفروسية فى موضوع أنساب الخيل . ومن أولئك القدماء الأوائل : أبو المنذر هشام بن أبى النصر محمد بن السائب الكلبى النسابة الكوفى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وله كتاب اسمه (نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام) .

والهرثمى . وله كتاب اسمه (كتاب الخيل) ألفه للمأمون .

وابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ وعنوان كتابه (أسماء خيل العرب وفرسانها) .

والأسود الغندجانى من علماء القرن الخامس . وعنوان كتابه (خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها)

قال ناشر كتاب (ابن القيم) :

وللدولة الغزنوية والسلجوقية والخوارزمية والعثمانية وسائر الأتراك فرسان معروفون فى التاريخ . وفى الفروسية كتب مؤلفة ، كانت تدرس فى الدولتين البحرية والبرجية ، فى طباق القلعة بمصر ، وهى أقدم مدرسة حربية كانت تتسع لاثنى عشر ألف تلميذ حربى . وكثير من تلك الكتب فى الخزانة التيمورية » [١] .

* * *

والذى نعلمه أيضا أن لعلماء العصور التى تؤرخ لها كتبا كبيرة فى موضوع الجهاد والفروسية منها على سبيل المثال :

كتاب لابن الملقن ، واسمه (قصر السيل ، فى أمر الخيل) [٢] .

وكتاب (العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع) ؛ ألفه إبراهيم بن غانم الأندلسى [٣] ، وكتاب (علوم الفروسية) لبدر الدين رماح ، كتبه للمنصور قلاوون [٤] وغيرها كثير .

وقد اطلعنا على أكثر هذه الكتب الأخيرة المخطوطة ، فإذا بها لاتخرج فى نهجها

---

(١) نفس المصدر المتقدم — المقدمة ص ب (٢) مخطوط ٢١٤ فنون حربية .

(٣) مخطوط ٧٤ — فنون حربية (٤) ٤ فنون حربية م .

وطريقتها عن طريقة الكتاب الذى أطلنا عنده الوقوف ، وهو كتاب ابن قيم الجوزية. وكلها ثمرة من ثمرات العصر الذى نؤرخ له ، وهو عصر يمتاز — كما رأينا بطابع الصرامة والجد ، فكان من البديهى أن تتفق آثاره الأدبية والعلمية وهذا الطابع وحده دون سواه

* * *

وبعد ، فقد كان من أهم مظاهر الفروسية عند المسلمين فى أثناء الحروب الصليبية ، لعبة الصوالج ؛ وكان يلعبها نور الدين ومعه كبار قواده ، ورجال دولته ، وفيهم أسد الدين شيركوه ، وأخوه نجم الدين أيوب ، وولده صلاح الدين . وكانوا كلهم يحذقون هذا اللعب ، ويظهرون فيه من المهارة ما يدعو إلى الإعجاب .

قال ابن الأثير يصف طرفا من فروسية نور الدين :

« سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ،كأنما خلق عليه ، لا يتحرك ولا يتزلزل . وكان أحسن الناس لعبا بالكرة ، وأقدرهم عليها ، لم ير (جوكانه) يعلو على رأسه . وكان ربما يضرب الكرة ، ويجرى الفرس ، ويتناولها بيده من الهواء ، ويرميها إلى آخر الميدان . وكانت يده لا ترى والجوكان فيها ، بل تكون فى كم قبائه استهانة باللعب »(١) .

وكم شهد الميدانُ الأخضر بدمشق نورَ الدين ومعه أجناده وأبطاله وهم على ظهور جيادهم ، يتقاذفون الكرة بصوالجهم ، فى منظر عجب يجتمع الناس لرؤيته والاستمتاع به .

وقد كان فى هذا اللعب وأمثاله رياضة للخيل ورياضة للجند ، وتدريب لهم على تحمل المشاق ، وتمرين لهم على إصابة الهدف . وأهم من هذا كله أنه كان فى نظرهم نوعا من عبادة الله تعالى ، فإنهم كانوا لا يمارسون لعبة ما لمجرد التسلية ، أو ترويح النفس أو الجسم ، ولكن لتقوية الجند الذين عليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله ، بأجسام قوية ، وأخلاق قوية ، ونفوس قوية فى وقت معا .

ومن ثم كان احتفاء الدولة النورية عظيما بألعاب الفروسية عامة ، واللعب بالصوالج خاصة ، يأخذون أنفسهم فى أثنائها « بالخلق الرياضى » الذى تحدثنا عنه

(١) انظر الروضتين ص ٨ ج ١ نقلا عن ابن الأثير .

وأشار إليه ابن قيم الجوزية فى كتابه المتقدم عن الفروسية . فلا على نور الدين أن يغلبه نجم الدين ، ولا على نجم الدين أن يغلبه صلاح الدين ، ما داموا جميعا يؤدون بهذا اللعب حق الله عليهم ، وحق الجهاد الذى يهيئون أنفسهم له .

ولقد قام الأدب الأوربى فى كثير من قصصه وراوياته بتمثيل هذا الجانب القوى من جوانب المسلمين الذين ساهموا فى الحروب الصليبية ، وهو جانب الفروسية ؛ فملئوا كتبهم بكثير من الحكايات والنوادر التى تدل على مهارة رجل كصلاح الدين ، ومبلغ حذقه فى ركوب الخيل ، والضرب بالسيف ، وإصابة الهدف ، « ولو كان هذا الهدف خيطا من حرير يطير فى الجو » . وجاءت هذه القصص كلها دليلا على إعجاب القوم بفروسية هذا البطل الإسلامى الكبير ، وإعجابهم كذلك (بخلقه الرياضى) الذى ليس له نظير .

ولولا أننا نتحدث عن أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى لا الأوربى لأتينا بكثير من الشواهد والأمثلة على ما نقول ، ولألحقنا بهذا الفصل ملخصا لبعض القصص أو الأساطير الأوربية ، التى أمدت الأوربيين بصورة دقيقة للفروسية الإسلامية ، وجاءت دليلا أدبيا — إلى جانب الأدلة التاريخية — على أن المسلمين الشرقيين ، هم الأساتذة الحقيقيون لأوربا فى هذا الفن .

ذلك هو « روح الفروسية » عند المسلمين المجاهدين ، وتلك هى الغاية الرئيسية من مزاولتها والاشتغال بها ، واعتبار ذلك جزءا من « الجهاد » الذى فرضه الله عليهم من أجل الدين ، بل « العبادة » التى كتبها الله عليهم كمؤمنين . ولولا نظرهم إلى الفروسية هذه النظرة لما زاولها من رجالهم قوم أتقياء كنور الدين ، يقدمون الاعتبار الدينى دائما على أى اعتبار سواه .

* * *

ليت الفلك يدور دورته ، فيعود للمسلمين مثل هذا الروح المعنوى القوى ، وتعود لهم الرغبة فى مثل هذه الأنواع النافعة من الرياضة الحربية ، وتعود لهم تلك النزعة التى سيطرت على أسلافهم فى العصور الوسطى ؛ فإن فى ذلك وحده ما يكفى لأن يعيد إليهم عازب مجدهم ، ويرجع إليهم سالف شرفهم ، وتطمئن إليهم زعامة العالم الحديث !

الفصل الثاني عشر

في فضائل البلاد الإسلامية

. . . ولم يكن المسلمون المجاهدون ليهتفوا بالحرب ، ويتسابقوا إلى السيف ، ويمسكوا بأعنّة الخيل ، ويرابطوا بالنهار وبالليل ، إلا وعقولهم قبل قلوبهم مؤمنة بأنهم إنما يذودون العدو عن بلادهم التى اختارها الله أن تكون وطنا للإسلام، وأرضا يعيش عليها المسلمون وذراريهم إلى ما شاء الله .

وقد أجمع علماء النفس على أن العقل البشرى إدراك ووجدان وإرادة . فإذا أدركت قيمة الأشياء بعقلك إدراكا ما، شعرت نحوها شعورا ما ، ودفعك هذا الشعور إلى نوع من التصرف ، تقوم به جوارحك إرضاء لمشاعرك ، ونتيجة لاقتناعك بقيمة هذا الذى ظفر منك بهذا النوع من الوجدان .

ولقد كان على العربى الذى اندفع كالسيل يخوض الحرب ، على النحو الذى أتينا فى كتابنا هذا على طرف منه ؛ كان عليه قبل أن يخوض غمار هذه الحروب ، ويضحى بنفسه وماله فى سبيلها ، أن يدرك قيمة البلاد التى كتب عليه أن يحميها من العدو الخارجى ، وأن يعرف مقدارها فى نفسه ونفوس المسلمين من أمثاله ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

ولكن كيف تيسر هذا الإدراك للأمة الإسلامية ؟ ومن الذى أتاهم بهذه الطريقة القوية ؟ أو من الذين قاموا بهذا الدور الخطير ، وهو تعليم المسلمين درسا فى القومية الإسلامية ؟

لقد تيسر هذا كله للمسلمين عن طريق الدين ، والذين قاموا بهذا الدور الخطير هم الفقهاء والعلماء المسلمون . وكانت الطريقة الوحيدة لتعليمهم هذا الدرس الجليل ، هى « الحديث » .

ولا تعجب أن يقوم الحديث وحده بهذه المهمة الكبيرة ، وأن ينهض وحده بهذا العبء الثقيل ؛ فقد نشبت الحروب الصليبية فى عصر لا اعتبار فيه لغير الدين ، ولا يصغى

لغير الفقهاء المسلمين، ولا يعبأ بغير ذلك من صنوف العلم ولم تكن العلوم الحديثة التى تعين على فهم الوطنية فى عصرنا الحاضر قد ظهرت بعد . ومع هذا قام الحديث وحده — كما قلنا — مقام جميع هذه العلوم ، وأربى تأثيره عليها جميعا فى هذه السبيل .

ثم إن الحكومات الإسلامية نفسها فى تلك العصور كانت تحفل بالحديث ، وتتسابق فى ابتناء المدارس الكبرى لتعليمه وتشجيعه . ويسجل التاريخ أن الملك العادل نور الدين كان أول من بنى دارا للحديث فى دمشق ، وأن ملوك الإسلام اقتـــدوا به فى هذا الصنيع ، فانبثت هذه المدارس فى جميع أقطار العالم الإسلامى ، ونبغ فى الحديث علماء كثيرون كانوا موضع إجلال الحكومات الإسلامية جمعاء ، كما كانوا موضع تبجيل الشعب الإسلامى فى كل مكان ، وعليهم اعتمدت الحكومات فى الدعاية للحرب .

وتبوأ رجال الدين عامة — والفقهاء والمحدثون منهم خاصة — هذه المكانة العالية بين الناس والحكام ، فشعروا بأن عليهم واجبا روحيا وعلميا لا يقل فى خطره عن الواجب الحربى أو المادى . وبالفعل قام الفقهاء والمحدثون بواجبهم هـذا كاملا غير منقوص ، فى داخل مدارسهم ، وعن طريق كتبهم التى نشروها بين الناس ، وعلموهم بها دروسا شتى فى الحياة والجهاد . ومعنى هذا ، أنه بينما كان الجنود المحاربون يجاهدون بسيوفهم فى الميدان ، كان العلماء المحدثون يجاهدون بعلمهم خارج الميدان ، فيهيئون الأذهان للاقتناع التام بفكرة الحروب الصليبية ، والنظر إلى كل من ساهم فيها بجهد ما على أنه مجاهد فى سبيل الله تعالى[1] . وتلك هى الخطة التى وضعها ملوك الإسلام كنور الدين وصلاح الدين وخلفاء هذا الأخير من بعده .

وكما كتب العلماء رسائل فى الجهاد والفروسية ، واعتمدوا فيها على الكتاب والسنة ، كذلك كتب العلماء رسائل أخرى فى موضوع آخر ، يتصل اتصالا وثيقا بالحروب الصليبية ، ونعنى به فضائل البلاد الإسلامية . وأهمها فى ذلك الوقت الشام ، وبيت المقدس ، ومصر . أما الحجاز واليمن والعراق ، فلم تتجه إليها كثيرا همم العلماء ، لا لشىء إلا لبعدها عن مناطق القتال الذى كان يدور بين المسلمين والصليبيين فى تلك الفترة .

---

(١) راجع فى ذلك كتاب الحركة الفكرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى فى مصر للمؤلف .

ومع ذلك فقد سارت الكتب التى ألفت فى فضائل هذه الأقطار على نسق الكتب التى ألفت فى فضائل القدس والشام ومصر .

وأما الطريقة التى اتبعت فى تأليف هذه الكتب فقد سبقت الإشارة إليها ، وهى تتلخص فى إيراد الآيات القرآنية ، التى يظن أنها تمتدح كل بلد من هذه البلاد الإسلامية ، ثم الإشارة إلى طائفة صالحة من الأحاديث النبوية التى تتضمن هذا المعنى ، فمن العلماء من يطيل ويسهب ، ومنهم من يوجز ويقل . والراجح أن الطبقة الأولى من هؤلاء العلماء كانوا يسهبون ، وأن الطبقة الثانية منهم كانوا يلخصون ما كتبه علماء الطبقة الأولى ، ويقفون عند هذا الحد .

ولا نريد فى هذا الفصل الأخير من فصول هذا الكتاب أكثر من أن نشير إشارة بسيطة إلى بعض هذه المؤلفات ؛ نأتى بها على سبيل المثال ، ونترك للباحثين من بعد استكمال هذه الدراسة ، متى رغبوا فى ذلك .

* * *

فمن الكتب التى كتبها أصحابها فى ذكر فضائل بيت المقدس كتاب للقاسم بن عساكر المتوفى عام ٦٠٠ للهجرة ، عنوانه « الجامع المستقصى ، فى فضائل المسجد الأقصى » ولم نحظ بالعثور على هذا الكتاب نفسه ، وإنما عثرنا على مختصر له ، للشيخ برهان الدين الغزاوى ، (١) باسم « باعث النفوس ، إلى زيارة القدس الشريف المحروس » .

والقاسم هذا هو ولد الإمام المشهور بابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ صاحب كتاب « تاريخ دمشق » .

وقد صرح برهان الدين فى كتابه بأنه لم يفعل أكثر من أنه اختصر كتاب القاسم بن عساكر ، بعد أن حذف منه الأسانيد خوف الإطالة . ورتبه بعد ذلك على ثلاثة عشر فصلا :

---

(١) ويسميه كاتب مادة ابن عساكر فى دائرة المعارف الإسلامية ابن الفركاح — انظر مجلد أول عدد رابع ص ٢٣٨ . وأما الكتاب المذكور فمخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥١٤ مجاميع ، ٤٢٣ تاريخ

الأول — فى ابتداء بناء المسجد الأقصى الشريف .

الثانى — فى شد الرحال إليه وفضل إتيانه ، ومن أين يدخل الداخل مدينة القدس ، ومن أين يدخل مسجدها الخ .

الثالث — فى فضل الصلاة وفضل الحج إلى مسجد المدينة والمسجد الأقصى الشريف فى عام واحد .

الرابع — فى فضل الإحرام فى بيت المقدس وفضل الأذان فيه .

الخامس — فضل الصلاة فيه والصيام .

السادس — فضل الصخرة وأنها من الجنة .

السابع — فضل البلاطة السوداء ومن أين يدخل الداخل الصخرة .

الثامن — فى قبة المعراج وباب النبى وباب الرحمة ، ومحراب زكريا ، والصخرات التى فى مؤخر المسجد وباب سكينة ، وباب حطة ، ومحراب عمر بن الخطاب ، وقبة السلسلة ، وباب التوبة الخ .

التاسع — فى ماء بيت المقدس ، وعين سلوان ، وجب الورقة .

العاشر — فى الساهرة ، وفضل من مات فى بيت المقدس .

الحادى عشر — فيمن رأى أن يزور تلك المواضع الشريفة .

الثانى عشر — فى جامع فضائل بيت المقدس .

الثالث عشر — فى فضائل قبر إبرهيم الخليل صلى الله عليه وسلم .

وهاك أمثلة من الأحاديث التى ساقها المؤلف فى غضون كتابه هذا . فمما قال فى الفصل الأول : روى البخارى عن أبى ذر الغفارى قال : قلت : يارسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أولا ؟ قال المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى . قلت : كم كان بينهما ؟ قال : أربعون سنة .

ومما قال فى الفصل الثانى :

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجد المدينة ، ومسجد إبرهيم ، ومسجد بيت المقدس . والصلاة فيه — أى بالمسجد الحرام — بمئة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدى بألف صلاة ، والصلاة فى المسجد الأقصى بعشرة آلاف صلاة .

وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله ، أخبرنا عن بيت المقدس . قال : أرض المحشر والمنشر ، ايتوه فصلوا فيه .

وعن كعب رضى الله عنه قال : إن الله تبارك وتعالى بابه مفتوح فى سماء الدنيا بحذاء بيت المقـــدس ، ينزل فيه كل يوم سبعون ألف ملك يستغفرون لمن أتى بيت المقدس يصلى فيه .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من زار بيت المقدس محتسبا حرم الله تعالى لحمه وجسده على النار .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما بنى سليمان بيت المقدس سأل ربه عز وجل أن يعطيه ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة :

سأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فأعطاه ، وسأله حكما وعلما لا ينبغى لأحد من بعده، فأعطاه ، وسأله ألا يأتى هـذا البيت أحد يصلى فيه إلا رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وأنا أرجو أن يكون أعطاه ذلك .

ومما قال المؤلف فى الفصل الثالث :

عن محمد بن سعيد قال : قلت لعثمان بن عطاء الخراسانى : ما تقول فى الصلاة فى بيت المقدس ؟

قال : نعم — ايته فصل فيه ، فإن داود عليه السلام أسسه ، وبناه سليمان عليه السلام ، وبلطه بالذهب والفضة ، وليس فيه شبر إلا وسجد عليه ملك مقرب ، أو نبى مرسل ، فلعل جبهتك أن توافى جبهة ملك أو نبى !

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن الخضر وإلياس يصومان كل عام شهر رمضان فى بيت المقدس ثم يتوجهان إلى الحج الشريف .

ومما قال المؤلف فى الفصل الرابع :

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أهل بحج أو عمرة من المسجد الأقصى ، إلى المسجد الحرام ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة » .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : « من أحرم معتمرا فى شهر رمضان من بيت المقدس عدلت عشر غزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

تلك هى الطريقة التى سار بها المؤلف فى كل فصل من فصول كتابه الذى اختصره من كتاب المستقصى ، للقاسم بن عساكر ، كما ذكرنا من قبل .

وأشار المؤلف إلى الآيات القرآنية التى ذكرت فى فضل بيت المقدس ، ومنها قوله تعالى :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

والأرض هنا هى بيت المقدس .

ومنها قوله تعالى: « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » .

قال : وهما بيت المقدس .

وانطلق المؤلف فى ذكر فضائل هذه البقعة الطاهرة من أرض الله ، فقال :

وفدى الله إسحق على صخرة بيت المقدس .

وقرب نوح القربان على صخرة بيت المقدس .

وشد الله لداود ملكه بيت المقدس .

وألان له الحديد ببيت المقدس .

ومنّ الله على داود وسليمان ببيت المقدس .

وغفر الله تعالى خطاياهما ببيت المقدس .

ورد الله على سليمان ملكه ببيت المقدس .

وبشر الله زكريا بيحيى فى بيت المقدس .

وسخر الله الجبال والطير لداود فى بيت المقدس .

وأنزل الله على مريم فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فى بيت المقدس

وولد عيسى بن مريم ببيت المقدس .

ونزلت آياته كلها عليه ببيت المقدس .

ورفعه الله إليه من بيت المقدس الخ .

ومن الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع نفسه على طريقة الكتب المتقدمة

كتاب بعنوان « مثير الغرام ، إلى زيارة القدس والشام » ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد المقدسي الشافعي المتوفى سنة ٧٦٥ هـ [١] .

ذكر فيه فصلا فى أسماء بيت المقدس . وآخر فى الحث على زيارة المسجد الأقصى طلبا للعبادة . وثالثا فى إعلام النبي صلى الله عليه وسلم بفتح بيت المقدس بعده . ورابعا فى أعيان الصحابة رضى الله عنهم ممن زاروا بيت المقدس كعمر بن الخطاب ، وأبى عبيدة ابن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وأبى ذر الغفارى الخ . وخامسا فى فتوح القدس الشريف على يد عمر رضى الله عنه .

وهكذا نلاحظ أن هذا المؤلف خلط شيئا من التاريخ بشىء من فضائل البلاد فى كتابه ، ولكنه لم يتوسع فى التاريخ ، لأن الموضوع لا يتسع لذلك .

وأتى بعد المقدسى هذا علماء آخرون فى عصور متأخرة عن عصر الحروب الصليبية ، كلهم يسمى (المقدسى) وصنفوا فى هذا الموضوع ، واعتمدوا اعتمادا كبيرا على كتب العلماء الذين سبقوهم إليه . ومن هؤلاء على سبيل المثال عالم اسمه (أبو المعالى المشرف ابن المرجى بن إبراهيم) المعروف بالمقدسى ، ألف كتابا أو مجموعا فى فضائل بيت المقدس وقبر الخليل عليه السلام وفضائل الشام [٢] ورتبه على نحو مئة فصل من الفصول القصيرة ، فجاء هذا الكتاب الأخير أشبه بموسوعة فى هذا الموضوع .

وقد راجعنا هذه الموسوعة فوجدناها مشتملة على أكثر الأخبار المتصلة بالقدس ، أو الأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة فى وصف مناقبه والإشادة به .

* * *

وفى فضائل الشام بوجه عام كتب العلماء كتبا شتى بنفس الطريقة التى رأيناها متبعة فى كتب فضائل القدس . ومن هؤلاء أيضا على وجه المثال العالم الحافظ (أبو سعد بن عبد الكريم بن محمد بن منصور بن عبد الجبار) المعروف (بالسمعانى) المتوفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وكتابه بعنوان (فضائل الشام) [٣] قال فيه :

عن عبد الله بن حوالة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤ تاريخ .
(٢) صورة شمسية رقم ٣١٩٤ تاريخ بدار الكتب المصرية .
(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية : رقم ٧٤٩ ، ٧٥٠ .

انكم ستجندون أجنادا ، فجند بالشام ، وجند بالعراق ، وجند باليمن .

فقال الحوالى رضى الله عنه : يا رسول الله خِرْ لى .

قال عليكم بالشام ، فمن أبى فيلحق بيمنه ، وليسق من غدره ، فإن الله عز وجل قد تكفل لى بالشام وأهله وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، ولا تزال طائفة من أمتى منصورة على الناس لايضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة ، وأومأ بيده إلى الشام.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله وعليه وسلم : الخير عشرة أعشار ، تسعة بالشام ، وواحد فى سائر البلدان . والشر عشرة أعشار ، واحد بالشام وتسعة فى سائر البلدان . وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم .

وعن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنزلت علىّ النبوة فى ثلاثة أمكنة : بمكة ، والمدينة ، وبالشام .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الإسلام احتمل من تحت رأسى ، فظننت أنه مذهوب به ، وأتبعته بصرى ، فحمل به إلى الشام . ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام .

وعن فاتك الأسدى عن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« الشام سوط الله فى أرضه ينتقم به ممن يشاء » — « الحديث » .

وقالوا لعلى بن أبى طالب : « العن أهل الشام . » قال : « لا » ، لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأبدال بالشام . بهم يرحم الله جميع أهل الأرض ، وينصرهم على الأعداء ، كلما هلك منهم رجل أخلف الله مكانه رجلا .

وهكذا أخذ المؤلف يسوق مجموعة صالحة من الأحاديث فى مدح أهل الشام ، إلى أن ختم كتابه بطائفة قليلة من الأشعار فى هذا المعنى . منها قول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة يورقنى بالغوطتين نسيم
وهل يجمعن الكأس شملى بفتية على الدهر منهم نضره ونعيم

وسار العلماء الذين عنوا بمناقب الشام على هذا النهج المتقدم ، يأتون بالأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية . من مثل قوله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » ،
وقوله تعالى :
« ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها » .
وقوله تعالى : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » .
وقوله تعالى : « ونجينا لوطا إلى الأرض التى باركنا فيها » .

غير أن بعض الكتب كانت تأتى بطائفة من الأحاديث النبوية ليست فى الكتب الأخرى ، وكانت يذكر سندها ، وتعقب برأى المؤلف على قوة السند أو ضعفه . فمن الأحاديث التى أتى بها الإمام العالم شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد ابن عبد الهادى المقدسى[1] فى كتاب له بعنوان (فضائل الشام)[2] قوله :

عن نافع عن ابن عمران أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم بارك لنا فى شامنا ، اللهم بارك لنا فى يمننا » ، قالها مرارا ، فلما كان فى الثالثة أو الرابعة قالوا : يا رسول الله : وفى عراقنا ، قال : « بها الزلازل والفتن ، وبها مطلع قرن الشيطان » . قال المؤلف : وهو حديث صحيح رواه البخارى والترمذى .

وعن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام » ، رواه الطبرانى.

وفى رواية أخرى : « ستفتح عليكم الشام ، فاذا خيرتكم المنازل فعليكم بمدينة يقال لها دمشق ، فانها معقل المسلمين من الملاحم ، وفسطاطهم منها بأرض يقال لها الغوطة » .

ومن الذين كتبوا فى فضائل الشام أبو الحسن على بن محمد الربعى المتوفى سنة ٥٨٣[3] وقد سار على نهج أصحاب الكتب السابقة ، فلا داعى للإطالة بذكره .

* * *

أما «مصر» فقد ظفرت كذلك بطائفة من الكتب التى ألفت فى محاسنها وفضائلها ، وذلك منذ بدأ هذه الحركة المؤرخ المشهور (بابن زولاق) المتوفى عام ٢٨٩ هـ . ثم

---

(١) لم نعرف بعد تاريخ وفاته (٢) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥١٩ مجاميع
(٣) أنظر فضائل الشام مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٨١ مجاميع

استمرت هذه الحركة إلى القرن العاشر الهجرى ، حين ظهر كتاب عنوانه (الفضائل الباهرة ، فى محاسن مصر والقاهرة) ألفه عالم مشهور (بابن ظهيرة) ، وهو صاحب كتاب آخر من كتب الفضائل، اسمه (الجامع اللطيف ، فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) .

ولندع هذا الكتاب الأخير. لأنه لاصلة له بالموضوع الذى نفيض فيه ، ولننظر فى الكتاب الأول ، وهو (الفضائل الباهرة ، فى محاسن مصر والقاهرة) . قال المؤلف فى أوله ، بعد حمد الله تعالى والثناء عليه :

وبعد ، فقد أكثر الناس فى المفاضلة بين مصر والشام ، ولم يزالوا يلهجون بها قديما وحديثا . . . وللناس فى ذلك كلام كثير ، من نظم ونثر ، وأخبار الإقليمين بحمدالله معروفة مشهورة ، فقد صنف فيها كتب كثيرة مفيدة ، وتواريخ عديدة . . . وفصل الخطاب بين البلدين ، أنه لامفاخرة بينهما فى الفضل الأخروى ، وشرف البقاع، كما دل عليه النصوص ، من الكتاب والسنة وأقاويل الأئمة .

كيف وبلاد الشام مواطن الأنبياء ومدافنهم ، وبها الأرض المقدسة ، ولم يثبت أنه دفن بأرض مصر نبى. ولكن المفاخرة تقطع فيما عدا ذلك. ولقد أحسن القاضى الفاضل حيث قال : « إن دمشق تصلح أن تكون بستانا لمصر » . ولا شك أن أحسن ما فى البلاد البساتين . . » الخ

ثم قال ابن ظهيرة : ولقد سألنى بعض الإخوان فى جمع شىء يتعلق بذلك ، « فذكرت محاسن مصر القاهرة بالخصوص ، وترجيحها على غيرها بالنصوص ، وكل ذلك مع العدل والإنصاف ، والخلو من التعصب والاعتساف ، فإن لى بالإقليمين صلا أصيلا ، وعرقا صالحا نبيلا ، لأن مولدى ومنشئ قريب من البلاد المقدسة من رض الشام ، وأصول آبائى القديمة من أرض مصر ، والسلام . وإنى وإن كنت إلى الأخيرة أقرب ، فالرجوع إلى الحق أوجب ، وذكر الفضائل للنفوس السليمة أطيب .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

أربعة لا تشبع من أربع: عين من نظر ، وأنثى من ذكر . وأرض من مطر ، أذن من خبر .

وسميته: « الفضائل الباهرة ، فى محاسن مصر والقاهرة » . وانحصر فى مقدمة وفصول:
فالمقدمة ، فى الحث على سكنى الأمصار العظام ، والترغيب فيها ، وحب الوطن .

عن على كرم الله وجهه أنه قال :

اسكنوا الأمصار العظام ، فإنها جماع المسلمين ، واحذروا منازل الغفلة والجفاء ، وقلة الأعوان على طاعة الله تعالى .

وكان كسرى أنو شروان يقول : لا تنزلن بلدا ليس فيه خمس : سلطان قاهر ، وقاض عادل ، وسوق قائمة ، وطبيب عالم ، ونهر جار .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من بدا فقد جفا ، وسكان الكفور ، كسكان القبور .

ولما أشرف الإسكندر على الموت ، أوصى أن تحمل رمته فى تابوت من ذهب إلى بلد الروم ، حبا لوطنه .

وكانت العرب إذا سافرت حملت معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحه ، وتستفه وتشربه فى الماء ، لتتداوى به من تغير الماء والهواء !

ومن ظريف ما حكى أن ابن عبادة مرض حين ولى (الرقة) ، فما كان ينجح فيه الدواء ، فقال له طبيبه : سببه تغير الهواء ، فبعث إلى بغداد ، فحمل الهواء فى أجربة ، فكان يفتح فى كل يوم فى وجهه جرابا حتى برىء .

تلك هى خلاصة المقدمة .

أما فصول الكتاب فكثيرة :

منها فصل فى ذكر حدود مصر ، وفصل فى ذكر ملوك مصر إلى الوقت الذى عاش فيه المؤلف ، وهو أوائل الدولة العثمانية . وفصل فى ذكر كور مصر المشهورة ، يتخلل ذلك كله طائفة من الآيات القرآنية التى أشارت إلى مصر ، من نحو قوله تعالى « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » وقوله تعالى : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » وقوله تعالى : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء » . كما يتخلل ذلك طائفة من الأحاديث النبوية ، نحو قوله صلى الله عليه وسلم : إنكم ستفتحون أرضا يصح فيها القيراط » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : ستفتح عليكم مصر بعدى، فاتخذوا بها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض»، فقال له أبو بكر: لم يا رسول الله؟ فقال: لأنهم هم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أعيته المكاسب فعليه بمصر ، وعليه بالجانب الغربى » وقوله صلى الله عليه وسلم : قسمت البركة عشرة أجزاء ، تسعة فى مصر ، وجزء فى الأمصار كلها . ولا يزال فى مصر بركة أضعاف ما فى الأرض كلها .

وعن عبد الله ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة ، وبقريش خاصة » .

وأعقب ذلك فصل فى (دعاء الأنبياء لمصر وأهلها) ، منه قوله :

قال عبد الله بن عمر : لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، مثل له الدنيا ، شرقيها وغربيها ، وسهلها وجبلها ، وأنهارها وبحارها ، وبناءها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ؛ فلما رأى مصر أرضا سهلة ذات نهر جار ، مادته من الجنة ، تنحدر فيه البركة ، وتمزجه الرحمة ، رأى جبلا من جبالها مكسوا نورا ، لا يخلو من نظر الحق إليه بالرحمة . دعا عليه السلام فى النيل بالبركة ، ودعا فى أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى ، وبارك على سهلها وجبلها سبع مرات ، وقال : « أيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة ، وتربتك مسكة ، يدفن فيها غراس الجنة ، لا خلتك يا مصر بركة ، ولا زال لك ملك وعز يا أرض مصر ، فيك الخبايا والكنوز ، ولك البر والثروة ، وسال نهرك عسلا ، كثر الله زرعك ، وأدر ضرعك ، وزكى نباتك ، وعظم بركتك .

فانظر إلى خيال الشعب الإسلامى عامة، والشعب المصرى خاصة، كيف امتد فى ثنايا الزمن حتى أدرك آدم ، وأجرى على لسانه هذه الأنشودة الجميلة فى حب مصر، وحب النيل ، وهذا الدعاء الجميل لهما . أجل أن العلم لا يطمئن ، ولا يصح له أن يطمئن إلى مثل هذه الأحاديث ، ولكن الأدب يقبلها ويرتاح لها ، ويستمسك بها ، وينظر إليها نظره إلى قصيدة شاعر ألهب حسه حب الوطن ، وملأ قلبه الفخر به ، والإعزاز له .

وأتبع المؤلف ذلك الفصل فصلا عنوانه : « وصف العلماء لمصر، ودعاؤهم لها » . ثم

فصلا فى ذكر من ولد بمصر وكان بها من الأنبياء ، ثم فصلا عنوانه : «عجائب الدنيا» منه قوله : قال الجاحظ وغيره : « عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة ، منها بمصر عشرون ، وعشر فى سائر البلاد » .

وتأتى بعد ذلك فصول ، أحدها فى ذكر ما اختصت به مصر دون غيرها من البلاد ، وفى نهاية قوله على لسان الأئمة : « من دخل مصر ولم يستغن ، فلا أغناه الله » . ثم فصل فى الشهور القبطية ومزية كل شهر ، وفصل فى ذكر القاهرة بالخصوص ، وفصل فى ذكر محاسن مصر الكلية الجامعة ، وفصل فى مدارسها وجوامعها . ثم ختم الكتاب بطائفة من أشعار الشعراء فى مدح مصر . ومنها قول العلامة زين الدين عمر بن الوردى :

ديار مصر هى الدنيا وساكنها ... هم الأنام ، فقابلها بتقبيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها ... مصر مقدمة والشرح للنيل

وذلك فى معارضة قول ابن زريق الكاتب :

سافرت أبغى لبغداد وساكنها ... مثلا وذلك شىء دونه الياس
هيهات بغداد الدنيا بأجمعها ... عندى وسكان بغداد هم الناس

فذلك مثل من أمثلة الكتب التى ألفت فى محاسن مصر ، على غرار الكتب التى ألفت فى الشام ، وفى القدس مع ملاحظة شىء واحد ، هو أن الكلام عن مصر لا يخلو من معلومات تاريخية وغير تاريخية تسمح بها البيئة المصرية ، ولا تسمح بمثلها بيئة أخرى من البيئات الإسلامية . ذلك بأن مصر بلد ذات تاريخ قديم ، وهذا التاريخ وإن لم يعرفه الناس معرفة تقرب من الصحة إلا فى العصر الحديث ، فقد كانوا يدركونه إدراكا غامضا فى تلك العصور التى نؤرخ لها ، وهو مع غموضه وإبهامه واعتماده على الخرافة إدراك له قيمته من الناحية الوطنية ، التى تعنينا فى هذا البحث .

وغنى عن البيان أنه ليس من وكدنا فى فصل كهذا ، أن نستوثق من صحة الأحاديث النبوية الواردة فيه ، أو نحقق الأخبار التى اشتملت عليه .

فالذى يعنينا من كل ذلك ، هو دلالته على عصبية المسلمين لأوطانهم ، وحبهم لها ، واستعدادهم لذود العدو الخارجى عنها ، لما لها فى نفوسهم من المكانة الدينية ، إلى هذا الحد .

خاتمة البحث

آن لنا بعد هذه الجولة الطويلة فى ميادين الأدب الصليبى ، أن نلخص الرأى الذى تكون لنا فى أثنائها عن هذا الأدب : شعره ونثره ، أو أن نحاول أن نصل إلى التقدير العام لقيمة هذا الأدب ، وللغاية التى كان يهدف إليها .

وإذا شئنا تقدير هذا الأدب الصليبى ، فمن الخير أن نحتكم إلى مقياس من أصدق مقاييس النقد عند الشرقيين والأوربيين على السواء . وهذا المقياس هو مقياس «المذهب العاطفى» ؛ ويسميه الأوروبيون « بالمذهب الرومانتيكى » ، ويسميه الشرقيون المحدثون « بالمذهب الذوقى » .

وعندى أن من الإنصاف للأدب الصليبى، أن نقيسه بمقياس المذهب العاطفى، مادام هذا الأدب نفسه قائما على أساس متين من العواطف الحارة ، التى اشتركت فى الشعور بها جميع الأقطار الإسلامية ، منذ شروعها فى مقاومة الخطر الصليبى .

ومعنى ذلك فى صراحة واضحة ، أن الأثر الإقليمى هنا يجب أن يكون ضعيفا فى جملته فى هذا الأدب الصليبى — أو بعبارة أخرى — لا يصح للباحث هنا أن ينتظر فروقا كبيرة بين الأدب الذى أنتجته مصر فى محنة الحروب الصليبية ، والأدب الذى أنتجته الشام ، أو الأدب الذى انتجه العراق فى أثناء هذه المحنة .

والسبب فى ذلك واضح كل الوضوح ؛ وهو أن شعورا واحداً كان يسيطر على جميع هذه البيئات الإسلامية على السواء ، وهو شعور الغضب من العدو الأجنبى ، الذى استقر فى بلاد الإسلام ، وشعور الفرح بالقدرة أخيرا على مقاومته ، ثم طرده منها وإجلائه عنها ، وإعادة البلاد إلى أهليها كما كانت من قبل أن يدهمهم هذا العدو .

وفى هذا الظرف الذى كان يسيطر فيه على العالم الإسلامى كله شعور واحد ، كان الأدباء أنفسهم يصدرون فى آدابهم كذلك عن فكرة واحدة ، أو هدف واحد ؛ وهو هدف يتلخص — كما رأينا — فى وجوب الذود عن المواطن الإسلامية عامة ، وعن البيت المقدس خاصة . وإذ ذاك لا يكون ثم مجال كبير لظهور الفروق الإقليمية ، أو التأثيرات التى يخلقها اختلاف البيئات .

ثم لاتنس بعد هذا كله أن الأدب الصليبي شعره ونثره ، كان يدور كله حول غرض واحد من أغراض الأدب عامة ، أو باب واحد من أبوابه ؛ وهو « باب الحماسة » .

والخلاصة إذن أن الأقاليم الإسلامية التى ساهمت فى الحروب الصليبية ، وأدب الحروب الصليبية ، كانت تتحد كلها فى الفكرة أو الهدف الذى صدرت عنه فى هذا الأدب ، كما كانت تتحد كلها فى العاطفة أو الشعور الذى عبر عنه هذا الأدب ، كما كانت تتفق كلها فى الباب الذى جعلته محورا لجهودها الفنية ؛ « وهو باب الحماسة » .

وعلى الرغم من هـــذا كله ، رأينا فروقا بسيطة بين الأقاليم الإسلامية التى شاركت فى أدب الحروب الصليبية ، بل رأينا فروقا صغيرة أو كبيرة بين شعراء الإقليم الواحد من هذه الأقاليم الإسلامية ، وهذا معنى قولنا فى جميع البحوث التى نكتبها ، والمحاضرات التى نلقيها على طلابنا فى الجامعة : إن أخذنا بنظرية الإقليمية فى الأدب ، لا يصح أن يكون معناه مطلقا إلغاء ما نسميه بالأصالة الفردية لكل أديب من أدباء هذه الأقاليم عامة ، وكل أديب من أدباء الإقليم الواحد خاصة ، بل مهما بالغنا فى قيمة النظرية الإقليمية التى نصدر عنها فى بحوثنا الأدبية ، ومهما أقنعنا أنفسنا بصحتها أو بدقتها فى تقدير الأدب ، فإنه من الحق علينا دائما ألا نغفل عن هذه الأصالة Originalité التى تميز فى نظرنا بين شاعر وآخر ، أو بين كاتب وآخر ، اشتركا فى بيئة واحدة ، وظروف حيوية واحدة .

ومهما يكن من شىء فقد رأينا فروقا ما بين الأقاليم الإسلامية التى شاركت فى أدب الحروب الصليبية . وكانت هذه الفروق تطلّ علينا من حين لحين ، ثم لا تلبث بعدها أن تذوب فى اللون العام لأدب هذه الحروب .

ألسنا نلاحظ — أولا — أن الأدب الصليبي يختلف فى كمه من قطر لقطر ، فقد كان هذا الأدب هزيلا قليلا فى العراق ، على حين أنه كان غزيرا وخصبا فى مصر والشام . والسبب فى ذلك بين لا يحتاج إلى برهان ، وهو أن هذين القطرين الأخيرين هما اللذان نهضا حقا بأعباء الحروب الصليبية . وأما العراق — وهو مقر الخلافة الإسلامية العباسية — فكان موقفه غير موقف مصر والشام من هذه المحنة الإنسانية المؤلمة .

ثم ألسنا نلاحظ — ثانيا — أن هذا الأدب يختلف شكله فى قطر ما عنه فى قطر آخر .

فقد كان الأدب الصليبي فى الشام يميل إلى الزينة اللفظية ، ويسرف إلى الدرجة القصوى فى ميله إلى هذه الزينة التى بلغت أوجها على يد رجل كالعماد الأصفهانى ، على حين كان الأدب الصليبي فى مصر أقرب فى مجموعه إلى القصد والاعتدال فى استخدام الزينة اللفظية ، بالقياس إلى أدب الشام ، وهو الأدب الذى يصح أن يكون أقوى من يمثله هو العماد .

والواقع أن أدب هذا الأخير — بوجه خاص — يعتبر مرحلة قائمة بذاتها من مراحل الأدب الصليبي . يساعدنا فى الذهاب إلى هذا الرأى أن حياة هذا الأديب طالت ، واقترنت بفترة كبيرة من فترات هذه الحروب ؛ فقد عاش الرجل جنبا إلى جنب مع أكثر أبطالها ، وبقى أدبه من شعر ونثر معبرا عن أكثر وقائعها وأحوالها ، وظل هذا الأدب يمتاز بهذا اللون الذى شاركه فيه الشعراء الآخرون مشاركة ما ، ولكنه — أى العماد — انفرد بالإسراف فيه إسرافا جعل من حقه أن يحتكره لنفسه ، أو يقصره النقاد عليه .

ثم ألسنا نلاحظ — أخيرا — أن الأدب المصرى الصليبي — وذلك باستثناء النتاج الفاضلى وحده ، لظروف سنذكر بعضها — كان فوق ميله إلى القصد فى استخدام البديع ، يمتاز فى مجموعه بوضوح العبارة وإشراقها ، وبميله إلى السهولة ، وبعده عن التعقيد . وقد ظهرت هذه الصفات كلها بوضوح فى شعر المصريين . وحسبك هنا أن تعيد النظر فيما نظمه البهاء زهير أو ابن مطروح — على وجه التمثيل — لترى كيف جنح كل منهما إلى سهولة اللفظ ، ومال كل منهما إلى استخدام التورية فى الشعر ، وكان كل منهما واضحا فى تعبيره وضوح العامة فى كلامهم ، والسهولة والوضوح والتورية هى أهم ما كان يمتاز به الأدب المصرى ، والعقل المصرى فى ذلك العصر (١) .

وقد رأيت أننا استثنينا أدب القاضى الفاضل من الأدب المصرى ، وكان لا بد أن نستثنى أدب رجل كابن عنين من الأدب السورى ، ونستطيع أن نعثر بين حين وآخر على ضروب كثيرة من هذا الاستثناء الذى نشير إليه . وذلك مصداق ما ذهبنا إليه من أنه ينبغى — حين نضع قاعدة أدبية للنقد ، أو حين نطبق نظرية ما من

(١) راجع فى ذلك كتاب الحركة الفكرية فى مصر للمؤلف .

نظرياته — ألا نبالغ فى اتباع هذه القاعدة ، أو نسرف فى تطبيق هذه النظرية، فنغض النظر هنا عما نسميه « بالأصالة الفردية » .

فاما القاضى الفاضل — ولم نسلكه كما رأيت فى الأدباء المصريين الخلص — فقد كان مدرسة وحده فى مصر ، وكان من أخلص تلاميذه فيها شاعران : أحدهما مصرى أقام فى مصر ؛ وهو ابن سناء الملك ، والثانى مصرى لم يقم فى مصر ، وهو كمال الدين بن النبيه . وأذكر أنى قلت عن القاضى الفاضل فى بعض كتبى[1] : « إن هذا الرجل كان غريبا عن الديار المصرية ، وأنه وفق فيها مع هذا توفيقا يدعو إلى الإعجاب كله ، والتقدير كله ، فى إدارة دفتها السياسية ، ودفتها الأدبية . ذلك أن عبد الرحيم البيسانى هذا ينحدر من أصلاب رجال عاشوا فى فلسطين ، ثم أتى الى مصر ، والتحق فيها بديوان الإنشاء الفاطمى ، ثم ظهر فيها على مسرح السياسة المصرية والآداب المصرية ، وكتب له النجاح التام فى كل ميدان من هذين الميدانين على حدة .

والمهم هنا هو ميدان الأدب ، وفيه نرى عبد الرحيم يسرف فى استخدام البديع ، وكان لهذا السبب وحده شديد الإعجاب بأدبه صديقيه العماد الأصفهانى وابن سناء الملك ، وكان عبد الرحيم يشق على نفسه كثيرا فى هذا الأدب ، وذلك على نحو يذكر بما فعل أبو تمام فى الشعر . فكان أشبه رجل بالنحات الماهر ، أو الرسام الحاذق ، ينقطع عن الحياة والأحياء ، ليخلو إلى نفسه وفنه ، حينا من الزمان ، ويخرج بعد هذا كله بقطعة فنية خالدة ، تستحق الإعجاب .

وهذه الطريقة فى صنع الأدب طريقة صعبة على نفوس المصريين ، لايحسنها رجالهم ، ولا تميل اليها أذواقهم إلا بمقدار ما يتفق ذلك والاتجاه العام للأدب فى عصر من العصور . وقد كان الاتجاه الأدبى العام وقتئذ نحو البديع . ومن ثم كان على المصريين أن يأخذوا منه بحظ ، ولكن هذا الحظ نفسه ضئيل بالقياس إلى حظوظ غيرهم من أدباء العصر . وهذا كله من حيث الأدب الذى تركه لنا القاضى الفاضل . اما من حيث الأدب الذى تركه لنا ابن عنين فقد رأينا أنه ينفرد من بين أدباء الشام بميزة ظاهرة فى أدبه لم يشاركه فيها كثيرون من أدباء وطنه ؛ وهذه الميزة التى انفرد بها ابن عنين هى « جزالة اللفظ » ، وهى جزالة أضفت على قصائده

---

(١) الاشارة هنا إلى كتاب الحركة الفكرية المتقدم ذكره .

الحماسية لونا من الفخامة والروعة ، وأمدته بشيء كثير من القوة ، ارتفعت بها قصائد ابن عنين الى الصف الأول من صفوف الحماسة العربية كما عرفنا .

ومع ذلك فقد كانت القصائد التى استعرضناها من شعر ابن عنين فى هذا الكتاب قليلة فى جملتها . وأعتقد أن بقية شعره فى ديوانه الذى تم طبعه الآن ، خليق بالدراسة .

وهكذا رأيت أن ابن عنين يقف من أدباء الشام موقفا منفردا ، كما وقف القاضى الفاضل من أدباء مصر موقفا منفردا ؛ فدل هذا وذاك على صحة ما ذهبنا اليه ، من أن الأخذ بالنظرية الأقليمية ليس معناه إغفال النظر عن الأصالة الفردية إغفالا تاما .

* * *

ونريد بعد هـــذا أن نعود إلى « المذهب العاطفى » الذى قلنا إنه يجب أن نعتبره المقياس الصحيح للأدب الصليبى .

وأنت تعرف أن مذاهب النقد فى كل مكان وزمان تلتقى كلها عند نقطة واحدة ؛ وهى أن الأدب فن التعبير ، ثم تفترق بعد ذلك :

فمن قائل إن الأدب فن التعبير عن الشخصية ، كما ذهب إلى ذلك سانت بيف — ومن قائل أنه فن التعبير عن العصر ، كما ذهب إلى ذلك برونتيير الخ .

غير أن المذهب العاطفى لا يعبأ بشيء من تلك المقاييس ، ولا يقف عند شيء من تلك القواعد والأصول ، ولكنه يرى أن لكل تعبير أدبى روحا يظهر من خلاله ، وأن له حياة ينبض بها ، وأن مهمة الناقد العاطفى أو الذوقى هى دراسة هـذا الروح ، أو الكشف عن هذه الحياة

فما قصد الشاعر أو هدفه من هذه القصيدة ؟ وما عمله فيها ؟ وإلى أى حد نجح فى عمله الفنى ؟ وهل استطاع أن يؤثر فينا بقصيدته وما مدى هذا التأثير ؟ الخ .

هكذا يسأل الناقد الحديث — على المذهب العاطفى — نفسه حين يتعرض لنقد أثر فنى . أى أن هذا الناقد الحديث لكى يتذوق أثرا فنيا ما يحاول جاهدا أن يعيد خلقه فى نفسه ، أو ينشئه من جديد فى ذهنه ، أو يغامر بروحه فى روائعه ومفاتنه ، وإذ ذاك فقط يستطيع أن يحكم له أو عليه . أو بعبارة أخرى يستطيع أن يتأثر بهـذا النص الأدبى تأثرا ما ، ويعبر عما وجده من هذا التأثر تعبيرا صحيحا قريبا من الإنصاف بقدر المستطاع .

لسنا نريد أن نتعرض لشرح هذا المذهب ، ولا نريد أن نتحمس له أو عليـــه ، ولا بنا من حاجة إلى المناظرة فيه . وإنما أردنا أن ندل القارىء على أنه ربما كان من أعدل مذاهب النقد الحديث ، وعلى أنه أولى هذه المذاهب بالتطبيق على أدب الحروب الصليبية ؛ ذلك الأدب الذى قلنا إنه يعبر عن تلك العواطف الإنسانية، التى كانت تغمر قلب المحارب الإسلامى .

وحسبك من هذا المذهب العاطفى ، أنه يحمل معه قانونه الذاتى ، ومقياسه الذى يدعو الناس إلى أن يقيسوه به ، ويحكموه فيه .

ونحن حين نغامر بأرواحنا فى هذا الأدب الصليبى ، أو حين نحاول أن نعيد خلقه فى نفوسنا ، أو إنشاءه من جديد فى أذهاننا، أو بعبارة أخرى حين نلق على أنفسنا بعض الأسئلة المتقدمة نستطيع أن نطمئن إلى أن إجاباتنا عن هذه الأسئلة ستكون دائما فى صف هذا الأدب ، بل شاهدة له بأنه قد عبر عن غرضه تعبيرا ترك أثره فينا أعمق ما يكون التأثير .

ألم تتبلور فكرة الحروب الصليبية — كما قلنا فى المقدمة — أحسن تبلور وأكمله فى أذهان الشعراء ؟ ألم يعبر الشعر الصليبى أصدق تعبير وأوضحه عن عواطف الخاصة والعامة من المسلمين على السواء ؟ ألم يرسم الشعر للقادة والأبطال خططهم ، ويصور لهم آمالهم ، وينقل إليهم ما نعبر عنه بالرأى الإسلامى العام ؟

بلى . فعل الشعر كل ذلك ، فضلا عن كونه نجح فى إذكاء الروح المعنوى فى النفوس، فكان يزيد فى فرح المسلمين بالنصر وقت النصر ، ويهون عليهم وقع الهزيمة وقت الهزيمة ، ويقوى فى نفوسهم الأمل بأنهم المنتصرون فى نهاية المعركة .

وباختصار كان الشعر الصليبى يمتاز بأمرين : هما القوة من جهة ، والصدق من جهة ثانية . وهو بهذين الأمرين ، أدب يستحق الأعجاب والتخليد .

ومعنى هذا أن الزينة اللفظية لم تكن كل شىء فى هـذا الشعر الصليبى ؛ ولـكن كان وراء هـذه الزينة — كما رأينا — أمور شتى : إشعال للعواطف ، وقدرة عجيبة على الإيحاء ، وتصوير جميل للوقائع ، وغناء متصل بالبطولة ، وشعور جارف بالقوة ، أحال الشعر الصليبى كله إلى جذوة نار، كانت بردا وسلاما على قلوب أبطال الإسلام ، ولظى يستعر فى قلوب أعدائه !

وهكذا كان الشعر الصليبي مسايرا بكل دقة للعاطفتين الدينية والسياسية للمسلمين ، فى محنة الحروب الصليبية ، فى جميع مراحلها :

فيوم احتاج المسلمون إلى تحريك الهمم فى بغداد — وذلك بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى فى امتلاك كثير من البلاد - استمعنا إلى شعر صليبي يذيب الأكباد، ويحرك الجماد.

ويوم رفع البطل زنكى علم الجهاد رأينا الشعراء يقفون إلى جانبه ، يعظمون من همته ، ويرفعون من مكانته ، ويمنونه الأمانى العذاب، ويصورون له شعور المسلمين فى جميع الأقطار أجمل تصوير وأصدقه فى وقت معا . ثم يوم خلفه فى جهاد الصليبيين ابنه البطل نور الدين، ناضل عنه شاعراه العظيمان، ابن القيسرانى وابن منير، فجاء شعرهما مقياسا دقيقا لحرارة المسلمين ، معبرا أصدق تعبير كذلك عن آمالهم ومشاعرهم ، محركا لهممهم إلى درجة ليس بعدها حظ لمستزيد .

ثم انتهى أمر هذا الجهاد المرير إلى البطل صلاح الدين ، وأصبح وحده المسئول عن طرد الفرنج من بيت المقدس ، وكتب له الظفر بهذه الأمنية العزيزة على نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . وإذ ذاك سجل مقياس الحرارة أعظم ارتفاع لعواطف المسلمين ، وكان على الشعر أن يقوم بالتعبير عن هذه العواطف التى بلغت ذروتها ، وتناهت فى حرارتها وشدتها .

ثم أتى خلفاء صلاح الدين، وقضت سياستهم - لحكمة ما — أن يفرطوا حينا وإلى أجل مسمى فى بيت المقدس — فبكى الشعر هذا الحادث الجلل، وقال الشعراء فى الحزن على بيت المقدس شعرا حادا، لا يقل فى روعته وحدته عن الشعر الذى قيل فى الفرح به.

والخلاصة أننا إذا قلنا عن الشعر الصليبي إنه كان شعر العاطفة الحادة قبل كل شيء ، لم نبعد عن الحقيقة، ولم نعبر إلا عن الواقع . ومعنى ذلك كله أنه يقوم على أساس واحد هو الصدق . وحسبه ذلك ليكون شعرا خالدا على الزمان باقيا مابقى الدهر .

* * *

أما النثر فكان تابعا للشعر فى هذا المضمار ، غير أنه كما رأينا ، كان يستغرق فى عمله وقتا أكبر من وقت الشعر ، أو كانت تقوم به أرستقراطية أدبية خاصة ، لها طريقتها فى التعبير عن مشاعر القوم . وهذه الأرستقراطية الكاتبة هى طبقة الوزراء

والكتاب ممن كانوا يساهمون فى تدبير الدولة ، وكان لهم ضلع كبير فى الحروب الصليبية .

وهذا هو السبب الذى م جله جاءت رسائل القاضى الفاضل أولا ، والعماد الأصفهانى وابن الأثير ومحيي الدين بن عبد الظاهر بعد ذلك معبرة تعبيرا ممتازا عن هذه الحروب ، شارحه شرحا متأنقا لوقائعه . وهذا معنى ما قلناه من أن هذه الرسائل لم تكن تكتب للشعب ، وإنما كانت تصدر من الملوك إلى الخلفاء . فى حين أن الشعر كان يراعى فيه أن نظم لكى يسمعه الشعب كله على اختلاف طبقاته .

من أجل ذلك أيضا كانت عنايتنا فى هذا البحث بالشعر أظهر من عنايتنا بالنثر . فلقد كان الشعر فى محنة الحروب الصليبية أشبه شىء بالصحف اليومية، تنقل إلى القارىء أخبارا شتى ، وأفكارا شتى ، وعواطف شتى . ومن كل هذه الأخبار والأفكار والعواطف كان يتألف الرأى الإسلامى العام . وفرق كبير – كما قلنا فى المقدمة — بين الباحث الأدبى والباحث التاريخى . أما الأول فتتجه أكثر عنايته نحو هذا الرأى الإسلامى العام ، يرى كيف عبر عنه الأدب . وأما الثانى فعنايته تتجه إلى الوثائق الرسمية التى يستأثر بها النثر دون الشعر .

ولقد كان هناك سيل جارف من الرسائل الديوانية التى لو أردنا أن نحصيها بوجه ما لأعيانا الاحصاء . فنحن لا نستطيع مطلقا أن نلم بما كتبه الكتاب فى الدواوين الاسلامية الحكومية وقت المحنة الصليبية ؛ بل نحن لا نستطيع أن نلم بما كتبه واحد فقط من كتاب ديوان الانشاء فى هذه الأقطار الاسلامية . وتصور معى مقدار ما كتبه فى ذلك رجل كالقاضى الفاضل ، أو العماد الأصفهانى ، أو ضياء الدين بن الأثير ، أو غيرهم من الوزراء وكتاب الدواوين فى شتى أنحاء الشرق الاسلامى . إن ما كتبه كل واحد من هؤلاء ليملأ المجلدات الضخمة التى لو ظفرنا ببعضها لاستغرق بحثها أضعاف الزمن الذى قضيناه فى هذا البحث .

على أنه إن أعوزتنا القدرة على جمع الكتب الديوانية فى موضوع الحروب الصليبية فلم تعوزنا القدرة على وصف هذه الكتب من الناحية الفنية . وقد مددنا حبل القول فى هذه الناحية بما لا يحتاج القارىء فيه إلى مزيد ، وطفقنا نحلل الرسائل الفاضلية

والعمادية بنوع خاص تحليلا خرجنا منه بهذه النتيجة التى وصلنا إليها من قبل ، وهى أن النثر كان أشد تعقيدا من الشعر ، أو بعبارة أدق ، أن النثر كان أدخل فى دائرة الفن من الشعر .

ونحن مضطرون هنا إلى الاعتراف بأننا أغضينا النظر عمدا عن لون هام من ألوان النثر ؛ هو النثر التاريخى — وعذرنا فى ذلك أن النثر التاريخى نفسه بعيد عن حدود الأدب البحت ، وإن من الباحثين من لا يعدونه فى الأدب إلا من قبيل التجوز.

ونحن نعلم أن من هذا النثر التاريخى ما روعى فيه الأسلوب الأدبى مراعاة طغت طغيانا كبيرا على مراعاة الحقائق التاريخية . وقد أشرت إلى ذلك فى مقدمة هذا البحث وفى كتاب « الحركة الفكرية فى مصر » ، وسأشير إليه بإذن الله تعالى فى كتاب « الحركة الأدبية » . وربما كان أوضح مثال لهذا النثر التاريخى الذى كانت العناية فيه بالعبارة الأدبية أكثر من العناية فيه بالحقائق التاريخية كتاب للعماد الأصفهانى فى التاريخ ، اسمه (الفتح القسى فى الفتح القدسى) ؛ وهو كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، فضلا عن أنه محلى بألوان البديع المختلفة التى من أهمها عند العماد الجناس والطباق .

ونحن وإن كنا قد استمتعنا بالزينة اللفظية فى شعر العماد ، وأحسسنا على كل حال بأنها خفت على قلوبنا ، وعلقت بنفوسنا ، فإننا نشعر بثقل هذه الزينة اللفظية نوعا ما فى نثر هذا الأديب الممتاز — وهو العماد — وخاصة فى النثر التاريخى الذى اصطلح أكثر النقاد على تسميته نثرا علمياً لا أدبياً .

والقارىء لكتاب تاريخى من كتب العماد لا يسعه أحيانا إلا الضحك ، وهو ضحك ليس مصدره اللذة أو المتاع ، ولا مبعثه التقدير أو الاعجاب ، وإنما مبعثه الاشفاق على هذا الكاتب الغريب الذى كلف نفسه هذا الشطط . وأرغم قلمه وقنه كل هذا الارغام ، وأكثر إكثارا معيبا من الجناس والطباق .

وإذن فقد أغضيت النظر عن هذا النثر التاريخى لسببين وهما : بعد التاريخ عن الأدب نفسه من جهة ، وتكلف العماد والشديد فى نثره التاريخى من جهة ثانية .

ومهما يكن من أمر هذا النثر ، فالذى لا شك فيه أن محنة الحروب الصليبية تركت

آثارها واضحة قوية فى الحركة التاريخية . فكتبت الكتب الكثيرة فى تاريخ هذه الحروب ، وجاءت هذه الكتب كلها على ألوان شتى : فمنها ما كان تاريخاً صرفاً ، ومنها ما كان تاريخا يمتزج بهالأدب امتزاجا حلوا ، ومنها ما كتب فى التاريخ العام لهذه الحقبة ، ومنها ما كتب فى تاريخ بعض الوقائع الخاصة أو السنوات الخاصة ، ومنها ما كتب فى سير الأبطال الخ. وقد فصلنا القول فى ذلك كله فى كتاب « الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول » .

أما الخطابة من جهة ، والجهاد والفروسية من جهة ثانية ، وكتب فضائل البلاد من جهة ثالثة فكانت كلها تصدر عن ذلك المعين الذى لا ينضب ماؤه ؛ وهو القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والتاريخ الإسلامى نفسه فى نهاية الأمر ، ومن ثم جاءت هذه الكتب كلها رطبة بماء الدين ، متأثرة تأثراً عميقا بالكتاب والسنة وسير الأبطال المسلمين. وكان لذلك كله تأثير سحرى فى النفوس ، وقدرة سحرية كذلك على تقوية الروح المعنوى فى الجيش الاسلامى والشعب الاسلامى .

وعندنا أن هذا التأثير السحرى بلغ من نفوس المسلمين فى إبان تلك الحروب ما قد تعجز عن أن تبلغه الصحافة والاذاعة معا فى العصر الحديث .

ولمن يريد أن يتهمنى بالمبالغة فى ذلك أن يوازن معى بين أثر الصحافة والاذاعة فى نفوس الناس فى الوقت الحاضر ، وبين أثر الكتب التى أشير اليها فى نفوس الشعب الاسلامى فى الفترة التاريخية التى أصفها . وأنا واثق كل الثقة من أنه سيخرج من هذه الموازنة بنتيجة واحدة ؛ وهى أن تلك الكتب الاسلامية التى كانت تعتمد على القرآن والحديث والتاريخ كانت أعمق أثرا فى النفوس ، وأنها كانت من أقوى الأسباب الحقيقية فى صبر المسلمين على الحرب ، ومضيهم فيها حتى أحرزوا ذلك النصر .

* * *

وليأذن لى القارىء فأعود به مرة أخرى الى الزينة اللفظية التى هى اللون العام للأدب الصليبى ، وأنبه الأذهان فيها إلى ملاحظة تستحق الذكر :

نحن نعلم أن البديع قديم فى الشعر العربى عامة والشعر العباسى خاصة . ولعل بشار بن برد يعتبر من أوائل الذين عنوا بالبديع فى الشعر ، ثم تبعه مسلم بن الوليد ،

ثم أبو تمام الطائى . وهذا الأخير هو الذى أمسك بزمام البديع وسلك به طرقا لم يألفها القدماء قبله ولا بعده .

ذلك أن أبا تمام كان عالما إلى جانب أنه شاعر . ومتى دخل العلم على الشعر فقد أصبح مخلوقا من طراز آخر ، أقل ما يقال فيه أنه طراز تنكره طبيعة الشعر الذى هو لغة العواطف قبل كل شىء .

وبعد أبى تمام ظهر فى عالم البديع رجال ، أهمهم أبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى . وكان كل منهما عالما مثقفا كأبى تمـــام ، ولـكنهما لم يستطيعا ما استطاعه أبو تمام من إحالة هذه الثقافة التى يملكانها إلى فن ، والاستفادة منها فائدة تظهر فى الشعر . ومن ثم كثرت الإشارات فى شعريهما إلى الفلسفة والتصوف والتشيع والنحو واللغة والعروض والفقه والتاريخ . ولـكنها لم تعد كونها إشارات فقط ، وليست هضما صحيحا لهذه الثقافات على اختلافها بعدة الفن — إن صح هذا القول — كما نجد ذلك عند حبيب ابن أوس .

وهكذا لم يكن الادب العربى ليظفر بعد أبى تمام برجل مثله يملك مثل هذه الموهبة العجيبة التى يستطيع بها تحويل المعارف الانسانية إلى أدوات فنيه .

والذى نريد أن نخرج به من هذا الحديث الأخير هو أن الأصل فى الشعر أنه لغة الشعور ، والأصل فى الشاعر أنه ليس بحاجة إلى الثقافة ، بخلاف الـكاتب فإنه فى أمس الحاجة اليها . غير أن الشعر يستطيع أن يفيد من الثقافة فائدة كبيرة على شرط أن تـكون للشاعر هنا موهبة ممتازة ، يقوى بها على إحالة الثقافة ذاتها إلى فن شعرى .

ونحن نعلم أن الثقافة الإسلامية فى العصر الذى شهد الحروب الصليبية كانت ثقافة محدودة بحدود الدين ، فليس غريبا إذن ألا تظهر فى الأدب الصليبى كله أمور تدل على تأثره بالفلسفة والحلول والتناسخ ، وغير ذلك من العلوم التى شاعت فى عصور أنجبت مثل أبى تمـام وأبى الطيب وأبى العلاء والمؤيد داعى الدعاة ، ومن ذهب مذهبهم ، ولف لفهم .

ومن ثم كان عذر الشعراء المسلمين فى عصر الحروب الصليبية أوسع من عذر سواهم من الشعراء المسلمين فى العصور التى شاعت فيها تلك الثقافية الإسلامية .

ومع هذا وذاك فقد أفاد الأدب الصليبى من نوع الثقافة الدينية التى شاعت فى

عصره . ووجدنا الشعراء يميلون إلى نوع من البديع يسمى « التوجيه » . وهذا التوجيه كان أداة فنية صالحة فى أيدى الشعراء استطاعوا بها أن ينقلوا كثيرا من المصطلحات العلمية من جو العلم إلى جو الشعر .

وهنا نجد أن هؤلاء الشعراء وقفت قدرتهم عند هذا الحد . ومعنى ذلك أن مواهبهم الفنية من هذه الناحية لم تمكن أكثر من موهبة المتنبى والمعرى ، وأنها لم تصل قط إلى مكانة أبى تمام . ولا نكاد نستثنى من أدباء العصر الذى نؤرخ له غير (القاضى الفاضل) ؛ فهو وحده القادر — كما رأينا — على إحالة هذه الثقافة الدينية التى عرفها إلى فن ، وذلك بطريقة تذكرنا دائما بحبيب بن أوس . ومن ثم تقف شخصية القاضى الفاضل وسط الأدباء المصريين والسوريين على السواء كتمثال كبير أقيم فى أكبر ميدان من ميادين العاصمة الكبرى لدولة الأدب الأيوبى خاصة ، والأدب الصليبى بوجه أخص !

. . .

والخلاصة فى الأدب الصليبى أنه يمتاز بصفات عامة ، ثم ينفرد كل فن من فنونه بصفات خاصة . أما الصفات العامة فهى التى تحدثنا عنها ، وقلنا إنها تتلخص فى القوة وصدق العاطفة . وأما الصفات الخاصة فأهمها هنا صفة السجع التى ينفرد بها النثر دون الشعر ، ونجدها فى الخطابة أقوى منها فى الكتابة . وبالسجع وغيره من ألوان الزينة اللفظية والمعنوية يقترب الشعر الصليبى عامة ، والنثر الصليبى بوجه أخص اقترابا عظيما من الفن بمعناه الصحيح .

يقول الأستاذ وليم مارسيه فى ذلك :

« يجمل بنا ألا نشدد الحكم على النثر المسجوع ، فهو الذى أمد العربية بعدد من جواهرها الأدبية ، وهو الذى أكسبها آثارا فيها من جودة الصناعة ، ودقة النقش ما يجعلها مثالا تطبيقيا لقاعدة الفن المطلق الخالص ، أو ما يعرف عندهم — أى عند أدباء العربية — بالفن للفن »(١)

ويقول الاستاذ هـ . أ . ر . جب :

« ولطالما قيل إنه ليس للعرب فن . وقد يكون هذا صحيحا إذا حددنا الفن بأعمال

(١) مقال بعنوان (اللغة العربية) للاستاذ مارسيه نشر بمجلة الرسالة العدد ٦٤١ (السنة الثالثة عشرة).

كالنحت والطلاء الخ. ولكنه يكون تحديدا ظالما خاطئا. فالفن هو أى نتاج يعبر فيه الشعور الجمالى عن نفسه . . . وميدان الشعور الجمالى عند العرب هو — أساسا — الكلمات واللغة ، وهذا أكثر إغراء ، بل أعظم خطرا من سائر الفنون . ومن ثم كان من السهل أن نفهم السبب فى أن العرب — الذين عندهم استخدام الكلام البليغ أسمى الفنون — يرون فى القرآن أعجوبة حقيقية .وعملا فوق طاقة البشر »(١)

والمهم أن البديع بألوانه المختلفة لم يفسد هذا الأدب الصليبى ، ولم يكن فيه على حساب المعنى . فلا محل إذن لتشديد النكير على هذا الأدب ؟ بل يجب علينا أن نقدره، وألا نخشى الإسراف فى إعجابنا به وتقديرنا له . على أننا نلاحظ أن جزءا كبيرا من المعانى التى وردت فى هذا الادب قليلة الحظ من العمق ، وأن قلة حظها منه ربما مكنت الأدباء من التفنن فى الزينة اللفظية ، بل الإسراف فيها إلى الحد الذى رأيت.ومع ذلك فنحن ننظر حتى إلى هذه الظاهرة الأخيرة بشىء من الحذر . فالواقع أن الأدب الصليبى غنى بالمعانى من حيث هى ، ولكنها معان لا تكد الذهن ، ولا تعوق الأديب الذى يؤثر فى تأديتها طريق الفن البحت ، كما فعل أدباء العربية فى إبان الحروب الصليبية .

ودعنى أذكرك — أيها القارىء — مرة أخرى برسائل القاضى الفاضل التى كتبها للسلطان صلاح الدين فى محنة خارت فيها قواه ، ودخل بسببها اليأس إلى قلبه ، وأعلن هذا اليأس نفسه فى قوله :

اقتلونى ومالكا   واقتلو مالكا معى

وهى المحنة التى أصابته عقب الحملة الصليبية الثالثة كما عرفنا .

إننى كلما نظرت فى هذه الرسائل ، وفكرت فى جلال المعنى الذى تحمله كل رسالة منها ، وإلى سمو الروح الذى أطل عليها، عظم فى نفسى ما للفاضل من دين على والاسلام والعروبة .

وكلما نظرت فى هذه الرسائل إلى الفن الذى سما إلى التعبير عن تلك الأفكار ،

---

(١) Modern Trends in Islam
والعبارة المذكورة أخذت من ترجمة إلى اللغة العربية لجزء من هذا الكتاب نشر بمجلة الرسالة العدد ٧٠٩ (السنة السادسة عشرة) .

وجلاها فى تلك الصوره الرائعة التى تبهر الإبصار عظم فى نفسى ما للفاضل من يد على الأدب والكتابة . وتحققت بعد ذلك كله من صدق السلطان صلاح الدين الأيوبى حيث قال : ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا رماحكم ، ولكن بقلم القاضى الفاضل !

أجل ـ هكذا تكون مهمة الأدب ، وهكذا يكون عمل الأديب. ومن هنا يكون قلم رجل واحد بمثابة جيش كامل يحارب به فى صف الدولة إبان الحرب ، ويذود به اليأس عن قلوب رؤسائها ، ويحميها من الخور أو الضعف الذى يصيبها فى مثل الظروف التى مرت بعاهل الدولة الأيوبية ، عقب الحملة الصليبية التى أشرنا إليها .

وإذن فمهما كانت أطماع النقاد والعلماء ، ومهما كانت مثلهم العليا فى الفن أو المهارة فى الأداء ، فإنهم لن يستطيعوا أن ينكروا على الأدب الصليبى ، الذى أوردنا منه أمثلة فى هذا البحث أنه أدب ممتاز ؛ ليس ذلك لإمعانه فى الصنعة والتفنن فحسب ، ولكن لهذا ، ولأمرين آخرين عظيمين ؛ هما : القوة وصدق العاطفة .

* * *

وهكذا كتب الله النصر فى تلك الحروب الصليبية للشرق على الغرب، وكتب التاريخ نفسه صفحة ذهبية لهذا الشرق الذى نهض لمقاومة الغرب ، واستعان فى مقاومته بقوة مادية وأخرى معنوية . والحق أن الفريقين وإن كادا يكونان متساويين فى هاتين الناحيتين، إلا أن الذى لا شك فيه هو أن الشرق الإسلامى كان يفضل الغرب المسيحى فى شىء هام ، هو « الأخلاق » .

وأنا ممن يعتقدون أن أبطال المسلمين من لدن عماد الدين ، فنور الدين ، فصلاح الدين ، فخلفاء هذا الأخير إنما كانوا يحاربون الصليبيين بسلاح متين هو سلاح الأخلاق ، بل كانوا يجاهدونهم بسياسة لم يحسنها الصليبيون دائما ، وهى سياسة الشرف . وأعتقد اعتقاداً جازما أن أبطالنا المسلمين إنما ظهروا على أعدائهم من أمراء الصليب لأسباب كثيرة أهمها هذا السبب !

* * *

ذلك هو العمل الضخم الذى قامت به الآداب العربية لخير الحروب الصليبية . وهو — كما ترى — يدل على أن الأدباء والفقهاء شاركوا فى هذه الحروب الدينية الطاحنة بأقلامهم وأذهانهم ، وبصدقهم وإيمانهم مشاركة لا تقل فى خطرها عما قام به

الجنود المقاتلون فى الميدان بسيوفهم ورماحهم وقوتهم وعتادهم ، وربما لم يكن من التزيد فى القول أن ننظر نحن إلى هذا العمل الأدبى الضخم على أنه كان أعظم أثرا وأجل خطرا من العمل الحربى الذى قام به الجندى .

ولا عجب فى هذا فالجانب المعنوى فى القتال له من الفائدة المحققة ما ليس للجانب المادى بحال من الأحوال .

(وبعد) فهذا بحث لم أبغ به غير وجه الله والعلم ، فلأشكر الله فيه على ما هدى ، ولأضرع إليه سبحانه وتعالى فى طمع وأدب أن يتقبله منى قبولا حسنا وكفى ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؟

مصر الجديدة فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٨

عبد اللطيف حمزة

فهرس الكتاب

فهرس الأعـــلام

(ا)

« ابن »

« أبو »

(ب)

(ت)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

كلمة شكر

تفضل أستاذى وزميلى مصطفى السقا بك فعاونني أصدق معاونة وأخلصها فى مراجعة الأصول الخاصة بهذا الكتاب ، وفى تحقيق نصوصه ، وتصحيح أخطائه وتجاربه .

فليأذن لى الأستاذ الجليل أن أقدم له أصدق الشكر وأخلصه على هذه المعونة العظيمة ، تقديراً منى لأخلاقه النبيلة ، وعلمه الغزير ، وتملكه ناصية العربية نحوا ولغة . بارك الله لنا فى علمه ونفع به .

المؤلف

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١٨	متى	إلى متى
٣٦	١١	ابن صفير	ابن صغير
٣٦	٢٠	ابن صفبر	ابن صغير
٥٨	١٦	الفرقلة	العرقلة
٧٧	١٤	مبعيد الدين	مبيد الدين
١١٩	١١	ابن سعدون	ابن سعدان
١١٩	١٧	تقى الدين عمرو	تقى الدين عمر

كتب أخــــرى للمؤلف

طبع فعلا :

١ — ابن المقفع .

٢ — صلاح الدين .

٣ — حكم قراقوش .

٤ — الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول .

٥ — تراث الاسلام : ترجمة بالاشتراك مع لجنة الجامعين لنشر العلم .

ويصدر قريبا إن شاء الله :

٦ — الحركة الأدبية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول .

٧ — أساليب الصحافة المصرية فى القرن الماضى .

٨ — كيف نقرأ — رسالة فى التربية التجريبية محفوظة بمكتبة معهد التربية للبنين .